حسين البكري

د. رشدى فكار
المفكر الاسلامى العالمى

فى : حوار متواصل حول

قضايا تراث المسلمين

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية / عابدين
القاهرة - ت ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

مطابع المختار الاسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطانا »

« صدق الله العظيم »



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مدخل

... وعن الاسلام والمسلمين يتساءلون

كثيرة هي الأحاديث التي يدلي بها المفكر العالمي ابن قرية الكرنك في أقصى صعيد مصر عن الإسلام وعقلانيته التي تتحدى إيديولوجيات العصر بتفريعاتها الماركسية والبرجماتية والوجودية والوضعية المنطقية ..

وكثيرة هي الأحاديث التي يدلي بها الدكتور رشدي فكار المرشح العربي المسلم الوحيد لجائزة نوبل في الأدب عن تشريحه لحضارة الغرب ، وتفنيده لأصولها الفلسفية وتبشيره بقرب زوالها لتفسخها وعجزها عن مواكبة إنسان العصر الأوروبي والأمريكي الذي يستبد به شبح الماديات البغيض ويتقيأ الشبع والترف في مجتمعاته التي وصلت إلى القمة وتنحدر الآن إلى السفح لترتطم بالقاع ، بعد افلاس العقل الغربي وترديه في خواء الماديات دون إروائه لتطلعات الإنسان الروحية ..

وكثيرة هي الأحاديث التي يدلي بها الدكتور رشدي فكار في التيارات الفكرية التي يموج بها عالمنا العربي والإسلامي رغم تلافيف تأزمات وتوعكات وتخلف المجتمعات الإسلامية التي يعتبرها رغم كل إسرافها وتمزقاتها وتناصراتها مجتمعات فتية ، تسكب كل سمومها ، وتتخلص من كل أدرانها أثناء خوضها لصراعات التحدي ، وتتهيأ لمولود جديد يشق

بصرخاته جدار الكون من خلال عملية المخاض الهائلة التى تمكنها فى نهاية الأمر ، وبعد نضوج ظروفها الموضوعية ، من أن تحدث ثقباً واسعاً فى شرنقة تخلفها ثم تخترقه وتنطلق إلى رحاب الحرية والتقدم والعدالة .. ليدور الزمن دورته « **وتلك الايام نداولها بين الناس** » [1] .. وليست بمستغربة كل هذه التحليقات الفكرية على الدكتور رشدى فكار الذى تربو مؤلفاته الآن وأبحاثه ومعظمها باللغة الفرنسية على ١٤٠ (مائة وأربعين) مؤلفا وبحثاً ، تشمل كثيراً من مناحى العلوم والثقافات .. وهو يقف بذلك فى مصاف جيل الرواد الموسوعيين الذين يلمون فى حنايا عقولهم بمختلف المعارف .

والدكتور رشدى فكار باستيعابه لعلوم الإنسان من مصادرها الغربية .. أو على حد تعبيره : « لقد عشت نصف عمرى لاستيعاب ودراسة علوم الكفار » ..

ثم هضمها وفرزها فى أعماقه الإسلامية وعرضها على منهج الإسلام ووزنها بميزانه الدقيق ، ثم مواجهة الأكاديميات الغربية فى عقر دارها بنقائص حضارتها ، وجلاء أخطاءها بل خطيئتها على ضوء معطيات الإسلام .. فهو إنما يقف مجاهداً على ثغرة من ثغور الإسلام فى بلاد غريبة عنه ، انحسر عنها المد الإسلامى المشرق ، بانحسار موجة المسلمين عن الأندلس ..

وللدكتور رشدى فكار مع ثقافته الموسوعية تخصص هو علم الاجتماع يمارس من خلاله عمله الأكاديمى كأستاذ بجامعة الملك محمد الخامس — بالرباط — بالمملكة المغربية وطنه الثانى بعد مصر .. منبت رأسه ومنبع تعليمه ، حيث ارتوى فى صباه تحت قباب الأزهر الشريف ، وبين أروقته وتحت أعمدته الرخامية التى طالما استندت إليها ظهور علماء غيروا وجه العالم .. تخصص الدكتور رشدى فكار علم الاجتماع ذلك العلم الذى أسسه وشاد بنيانه عالمنا العربى المسلم الفذ « ابن خلدون » ، وقد قاده

---

(1) آل عمران : ١٤٠.

هذا التخصص إلى التعمق فى « السان سايمونية » حتى أصبح أحد قلة قليلة من العلماء تمكنوا من التعمق فى أصول الماركسية حتى جذورها ، بل ونخاعها .. ووصل به الأمر بأن قرأ معظم الكتب التى قرأها « كارل ماركس » الذى كان من عادته أن يعلق برأيه على هوامش الكتب ، وتمثل هذه الآراء العفوية ترجمة لمكنونات عقل ماركس فى شتى مراحل تكونه ، وقد نقل الدكتور رشدى فكار هذه الهوامش ، وكثيراً منها تصدم الماركسيين أنفسهم الذى فتنوا بهذا الرجل الذى وضعوه فى مرتبة الألوهية ، وقد برهن الدكتور رشدى فكار من خلال تعليقات « ماركس » الهامشية هذه أن فكرة الإلحاد التى تنبنى عليها المادية الجدلية وتقوم عليها « الماركسية » ، كانت مهتزة لدى « ماركس » .. الذى كان فى بعض الأحيان يخفى إلحاده .. ووضح ذلك من خلال مراسلاته مع « بابا الفاتيكان » ! وهذا التعمق فى أصول « الماركسية » قاد الدكتور رشدى فكار إلى أطروحاته العالمية التى وضعته على مقعد « أكاديمية العلوم الفرنسية لدائرة ما وراء البحار » ..

وهذه الأطروحات تحتويها مجلداته وهى عن « السوسيولوجيا والاشتراكية الدولية » وأصول « الماركسية » ومجلداته الخمسة فى المراهنة الصناعية وأزمة الحضارة بالاشتراك مع أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من دول الكتلة الشرقية ، ومعجمه الموسوعى العالمى فى مجلدين من أربعة أجزاء عن علم الاجتماع وعلم النفس والانتروبولوجيا الاجتماعية وغيرها ، حتى انتهى مؤخراً من تأليف موسوعته الضخمة فى علم الإنسان التى تتكون من أربعة أجزاء حاول فيها أن يعيد النظر فى مضامين « علم الإنسان » على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة يعتبرها الدكتور رشدى فكار قمة بحوثه العلمية وقد أفادت الجامعات الأوروبية ومراكز البحوث الاجتماعية من تخصص الدكتور رشدى فكار .. كعالم اجتماعى موسوعى ، وكمحاضر ومحاور وباحث ..

كما أفادت دول أوروبية أخرى من أبحاثه الاجتماعية الميدانية ، مثل سويسرا ، التى ساهم مع فريق بحث عالمى اجتماعى فى علاج مشكلتها

وهى مشكلة الثراء والترف التى تواجهها وكادت تشق تركيبتها الاجتماعية وثقافتها الذاتية ..

* * *

ومن خــلال حواراتى المتواصــلة من الدكتور رشــدى فــكار والتى امتدت عبر سنوات عشر ثمة معطيات فكرية ظلت تســتقر وتتبــلور على لسانه ، فهو يؤكد ـــ وهو الذى سبر أغوار علوم الغرب الأوروبى الفلسفية والاجتماعية ـــ أن الإسلام ما يزال قادراً على المواجهة والتحدى ، حتى فى هذا الهزيع الأخير من القرن العشرين الذى يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة .. ليشرق فى عصر العملقة الذهنية وولوج الكواكب فى عصر الكومبيوتر ، وثورة المعلومات والتكنولوجيــا .. ذلك العصر الذى فاق بمعطيــاته كل خيال ..

وحينــما أدور مع شريط حواراتى الســابقة والمتواصــلة مع الدكتور رشدى فكار .. أقف عند هذه المقولات التى نشرت بعضاً منها فى صحف ومجلات متناثرة ، هذه المقولات التى تصطبغ كمعظم عباراته بصبغة الأقوال المأثورة أو جوامع الكلم :

.. حقيقة الأمر .. حينما ننظر إلى الإســلام فى عصره الأول ، ثم إلى الإسلام عبر القرون ، سنجد أن الإســلام بخير .. قادر بمبــادئه ، وقادر بعطائه أن يعطى للمسلم ما يريد أن يناله منه ..

.. الإسلام مسيرة طبعت مسيرة الأمة الإسلامية ، بل ومسيرة البشرية ..

.. وحينما ننظر إلى الإسلام حاليا ومستقبلا سوف نكتشف حتى مع صرامة المنهج وقدرة التفكير والرؤية الموضوعية الهادئة النزيهــة أنه ليس للإسلام قضية ..

فالإسلام بالنسبة لعقل القــرن العشرين ، ومهــما كانت المجــازفات المطروحة حالياً فى ساحات المدارس الوضعية ، من المستحيل أن تســجل اصابة واحدة على مشروعيته باسم العقل .

فها هو الإســلام ـــ وبعد أربعــة عشر قــرناً ـــ ما يزال يتحــدى ،

ومن الصعب على عالم نزيه أن يزعم غير ذلك .. من أجل هذا نرى العديد من كبار مفكرى الدنيا يشهرون إسلامهم على الملأ والبعض الآخر هم الآن فى صالة الانتظار ..

.. إن الإسلام بخير وأعطى من الحيثيات فى عصر النبوة ما يلزم ابن القرن العشرين بأن ينحنى إجلالا وإعزازاً أمامها لأن معجزة النبوة ماضياً وحاضراً ومستقبلا تبقى معجزة خالدة ، وعلى علوم الإنسان أن تتواجد معها من منطلق تفهمى بعيد عن المضاربة والافتعال ..

.. إن الإسلام يتميز ، بل ويتفرد دون سائر الديانات ، بل والإيديولوجيات قاطبة بأنه ليس له قضية تؤخذ عليه فى التراث (وهذا هو موضوع كتابنا الثانى فى حوارنا المتواصل) ..

فالإسلام اقتناع ويقين .. الإسلام وحيا وأحاديثاً صحيحة وقدسية ، وقدوة وأسوة حسنة بسيرة نبى الإسلام محمداً عليه أزكى الصلاة وأتم السلام .. هذا التراث من الأولى ألا يطرح فى جو من الافتراضات المغشوشة ، وإنما يوضع فى مكانه الحق ، وهو دين سماوى وحدانى شامل لمسيرة هذه الوحدانية مصداقاً لكل ما سبقه من رسل وأنبياء ، يهدف إلى أن ينقذ هذا الإنسان ، صاحب الرسالة التى حملها ، وعلى ذلك فإن افتعال قضية للإسلام يوجب علينا أن نبحث عن تعليلها فى عقول واضعيها وصانعيها لأن المسلم فى القرن العشرين ، كما هو الحال بالنسبة للمسلم فى كل القرون هو مؤمن بالله ، مصدق لذلك بعمله ومطبق لشريعته وشعائره .. وهو وإن كان له أن يكمل ويضيف فإن عليه أن يبدأ من حيث انتهى من سبقوه فى الإيمان واليقين من السلف ، فهو مرتل للقرآن ، خاشع فى ترتيله ، متدبر ومتفهم لمضامينه ومعانيه ، متقبل لها ، وهو مستوعب لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقتد بسلوكه ، وعليه وقد ارتقى بعقله

وفكره وبصيرته أن يضيف إلى اجتهاد من اجتهدوا ، لا ليعتم ما أضيء ، وإنما ليلقى البصيص من الإشعاع المعرفى على ما بقى من موضع تساؤل .. ليجتهد ولكن لا على المستوى الفردى ، وإنما من خلال عمل جماعى لعلماء الإسلام وفقهائه تتبناه منظمات .. لا لتطرح التحفظ والتساؤل ، وإنما لتسد الطريق أمام هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ويبحثون لحاجة فى نفس يعقوب عن ثقوب تفتعل بهدف بث الضوضاء .. لا أكثر ولا أقل ..

شعبان ١٤٠٧ هـ
ابريل ١٩٨٧ م

خميس البكرى

* * *

(١)

المسلمون .. لماذا تخلفوا
وكيف السبيل لتقدمهم ؟

- **المسلم فى قطيعته مع الاسلام .. غاب عنه النص .. واحتفظ بمجرد العنوان ! ..**
- **الاسلام لماذا يظل « شـــادية الحى » .. التى لا تطرب ؟ ..**

النظرة العابرة الى عالمنا الاسلامى الممتد عرضاً من شواطىء الأطلسى حتى تخـوم الصـين .. وطولا من سـهول اواسط آسـيا وحتى عمق الغـابات الاستوائية الآسيوية والافريقية .. تكفى للحكم عليه بالتخلف ..

الانسان المسلم فى معظم الأقطار الاسلامية يحيا تحت خط الفقر ، بل ويتهدده شبح المجاعة ..

والســؤال الذى نطرحه اليوم هو لماذا تخلف المسـلمون ، بعد أن كانوا سادة الحضارة ، وكيف السبيل لرفع ربقة التخلف عن اعناقهم ، واســتعادة قوتهم وتقدمهم على الأمم ؟ ..

فى حوار مع الدكتور رشدى فـكار حول هـذه القضـية قال : إن هذا سؤال منطقى ، يقبل المناقشة والحوار ، على عكس سؤال مفعم بالمغالطة كثيراً ما أواجه به خارج الحدود وهو : لماذا تخلف الإسلام ؟ ..

وطارحو مثل هذا السؤال هدفهم مفضوح ، فهم يحاولون أن يلبسوا الإسلام قميص عثمان ليتحمل الإدانة عن هذا التخلف ، برغم أنهم يعلمون فى قرارة فكرهم أن الإسلام ذاته هو الذى يعانى من تخلف المسلمين ..

بعد هذه المقدمة الموجزة التى ترسم خطوطاً اولية لصـورة القضـية ، يبدأ الدكتور رشدى فكار حديثه لالقاء الضوء على كل الحقائق :

.. نعم التخلف واضح ، من الصعب أن ينكره من يرى الأمور بموضوعية .. فالمسلم متخلف فى إنتاجه ومتخلف فى استهلاكه أيضاً .. متخلف فى عطائه الذهنى ، وتخلف معه بالتالى عطاء الأرض وعطاء التكنولوجيا .. تخلف يجعله يعيش فى هذا القرن خارج عصره ، فكانت النتيجة أنه يعيش فى زمن تراجع عن زمانه الذى أسميه عصر من له القدرة على المكر والدهاء ، عصر التدافع والمواجهة الذى يفتقد ما يسمى بالإحسان والبر والقلب الطيب .. عصر الطاقة النووية التى تختزن فى قنابلها ، بل وحتى فى مفاعلاتها السلمية فناء البشرية ، ولقد قالها أبو الذرة « أوبنهايمر » : إننى أبكى وأتحسر وألوم نفسى بشدة لأن انطلاق الذرة من عقالها يتطلب الذكاء الكامل للسيطرة عليه ، وهذا الذكاء الكامل لا يوجد على الأرض ! .

وأنا بدورى أتساءل : بدون الإسلام أكان من الممكن أن تظل للمسلمين حياة وسط بؤر النزاعات والصراعات وموجات الشر العالمية التى لا تبقى ولا تذر ؟ .

لولا الإسلام لاندثروا وتفتتت ممالكهم ودولهم ولأصبحوا أثرا بعد عين !

وحقيقة الأمر أن سر تخلف المسلم أنه فى قطيعة مع الإسلام .. غاب عنه النص ، واحتفظ بمجرد العنوان ، غاب عنه جوهر أكمل الرسالات ، وأصبح يردد الشعارات ويزعم أنه خير من يمثل الإسلام بهذه الشعائر برغم أن ممارسات حياته وسلوكه كثيراً ما تتعارض مع تعاليم الإسلام والله تعالى يقول : **« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون »** (1) .. ولم يقل يا أيها الذين كفروا ! .

فينبغى على المسلم أن يكون عمله مطابقاً لعقيدته .. أن يكون واضحاً ونزيهاً .. بعيداً عن الزيف والغش .. فالإسلام يطلب من المسلم أن يكون واضحاً حتى فى خطئه ، ويعلن التوبة ، ويطلب المغفرة والرحمة ، نوع من المحاكمة العلنية الرائعة ..

---

(1) الصف : 2

والمسلم فى قطيعته مع الإسلام ، وتمسكه بمجرد العنوان ، يمارس الغش مع خالقه ، وبالتالى يغش نفسه .. وبذلك فهو ليس بمستغرب عليه أن يمارس الغش مع الآخرين ، وهو بابتعاده عن المضمون وتمسكه بالشعائر يغش دين الإسلام الذى ما جاء إلا ليحارب الطقوس والرهبنة ، وينبذ شكلية الشعائر ..

فى البداية هنالك جانب معنوى لتخلف المسلمين فى هذا العصر ، وأعتقد أن البناء الذهنى والبناء الأخلاقى غالباً ما يشكل أرضية البناء الاقتصادى والاجتماعى ، والسياسى ، ولا أعتقد كثيراً فى جدية أن العامل المادى هو الذى يملى على الإنسان السلوك العملاق .

العامل المادى قد يملى على الإنسان سلوكا اجتماعياً يجعله أكثر ترويضاً وأكثر استئناسا حينما تحاول أن تشبع له غرائزه ونزعاته الاستهلاكية فتصبح له طبيعة الانقياد .. وهذا ربما الذى طبع هذا العصر بطابع التبعية .. بينما العصور السابقة كانت عصور عمالقة ، ومواجهات بطولية ..

عصور خلت من استراتيجيات الأكاذيب والغش والنفاق .. كان الإنسان آنذاك له مبادئه التى يضحى من أجلها .. إنسان هذا العصر مستعد فى سبيل إرواء شهواته أن يفتعل الأكاذيب ، ويتقبل كل الإهانات ، ويسلك سبل الرشوة لمجرد الرغبة فى أن يمتلك أشياء مادية تافهة .. سيارة ، ڤيديو ، ثلاجة ، جهاز تكييف ، وهكذا حتى أصبحت سعادته فى إشباع بطنه وكل جسده ولكن جاعت النفس .. يشعر الإنسان أنه فى قمة الرفاهية المادية والجسدية ولكن شخصيته مهانة .. يكذب ويغش وينافق ، ومهما وصل إلى قمة المجد المادى ، يشعر فى قرارة نفسه أنه ضئيل ويقع فريسة لأزمة الضمير ..

أما الإسلام فقد منح الإنسان كل ما تسعى الدراسات السيكلوجية إليه ، بل وتقف عاجزة أمام تحقيقه ، وهو بناء السعادة الكاملة المتجاوزة للسرور واللذة ، بأن يشعر الآن أنه حقق ذاته ، وأنه راض عن نفسه ، وأنه فعلا يمارس إنسانيته وبالتالى ينعكس عليه رضاء الآخرين ..

الإنسان المسلم رأسماله الحقيقى يكمن فى شعوره بإنسانيته أمام نفسه وأمام خالقه وأمام الناس .

وحضارة الإسلام تكمن فى توظيف المثل العليا لا لمجرد نفع الذات الفردية ، وإنما لما ينفع الآخرين ، ويدفع الضرر عنهم «**وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض**» (٢) .. و « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » .. وفى خارج الديار يقولون إن المجتمعات الإسلامية أكثر المجتمعات دفاعا عن الشرف والكرامة ويصورون ذلك على أنه من سمات التخلف ، وعكس ذلك صحيح لو يعلمون ، ولكن بشرط البعد عن المغالاة والتطرف ، وبشرط ألا يكون ذلك على حساب الآخرين ، بمعنى أن يشعر أن شرفه من شرف الآخرين ، وكرامته من كرامتهم واعتزازه بنفسه من اعتزازه بنفسية الآخرين ..

هذا هو سلوك الإسلام المتقدم ، وليس منه مطلقاً أن يسعى الإنسان إلى الاحتفاظ بكرامته غير عابىء بأن يدمر ويحول كل من حوله إلى شظايا وضحايا ! .

ثم يبرر ذلك كما تفعل القوى العظمى الغاشمة الآن بأن هذا التعبير فى حد ذاته دفاعا عن الذات .. لا .. مطلقاً ، إن هذا النوع من الحالة المرضية .. أمور ركز عليها الإسلام ، ركز على سلوك الإنسان كفرد ، وسلوكه داخل دائرة الأسرة وفى نطاق الجماعة والأمة ، ولكننا وللأسف نردد هذه المبادىء .. نقرأها ونرتلها وقد نحفظها عن ظهر قلب أو حتى نتغنى بها ولكننا لا نمارسها .. فنقع فى بئر المقت الأكبر أن نقول ما لا نفعل «**كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**» (٣) ..

وكل هذه انعكاسات تخلف المسلمين نتيجة للقطيعة مع الإسلام ، انعكاسات لإنسان غير قادر على أن يعيش فى عصره ، يعانى من التردى الاقتصادى ، من الأمية ، من الفقر ، من الأمراض المتوطنة ، حتى أصبح ضحية فى محاولة للنفاذ من دائرة التخلف ، ضحية لعقول الآخرين كل يأخذ منه ما يريد ، ثم يحوله فى النهاية إلى بقايا ونفايات ..

---

(٢) الرعد : ١٧   (٣) الصف : ٣

وأمة الإسلام لم تخلق لهذا ، فهى أمة معيارية ، أمة وسط ، يعنى تقاس عليها الأمم« لتكونوا شـــهداء على الناس » (٤) . وهذا هو العطاء الإلهى لهذه الأمة ولكن الإنسان المسلم المعاصر الذى أصابه الوهن ، أصبح يتهرب من هذا العطاء ، لقد تخلى عن مبـادىء المعيـارية التى منحهـا الله له لكى يتبنى معيارية ضياعه وتخلفه .. الإنسان المسلم الحق غير قابل لأن تعلق به أدران التخلف ولا ينبغى له أن يكون كائنا هامشيا كل هدفه أن يستهلك وإنمـا هو له رسالة .. بل هو شهيد على الكون يوم العرض العظيم .

وإن تخلف المسلمين فى الواقع قضـية كبرى آن الأوان لأن تطـرح بموضوعية ، وبمقاييس تختلف عن مقاييس عالم اليـوم المادى ، بمعنى ألا نوزن كمسلمين بميزان كم ربحنا ، وكم بدلة لدى المسلم ، وكم إناء ، وكم غرفة مفروشة ؟ فإذا قسنا المسلمين بهذا المقياس بين الأمم ، فالقضية خاسرة منذ البداية ، لأن هذه قضايا الآخرين الذين صنعوا أثاث المنازل ومكائن المعامل ، وعبروا الفضاء .. والمسلم ليست هذه بصـناعته ، وهم يدفعونه دفعاً نحو هذا الميزان حتى يظل دوأماً فى إطار النفايات ، وبقايا الموائد .

وأعتقد أنه قد آن الأوان للمسلم أن يطرح معياريته انطلاقاً من المثـل العليا التى أعطاها له الإسلام ، أعطى له المثل فى كيفيـة تربية طفـله ، فى علاقاته بالآخرين ، فى سلوكه مع ذاته ، فى كيفية تعامله مع شهواته وغرائزه ، ومع النفس الأمارة بالسـوء وبالخير « **فألهمها فجورها وتقواها** » (٥) .. ما أروع أن يتجاوز المرء فجور النفس إلى تقواها .. من خلال سلوك خلقى ملتزم . كل هذه أمور تطرح عادة ولكنها تحتاج فى الواقع إلى وســائل توضيح .. كيف نخرج المسلم من تخلفه ؟ .

هل يتم ذلك عندما يبنى ناطحة سحاب ؟ لا ليس هـذا صحيحاً ، لأنه سوف يبنيها بإمكانات الآخرين ، ولا يكون له من البنـاء إلا الاسـم .. وأعتقد أنه يمكن أن يحترم ذاته إذا ما بنى بيتاً ولو من طابق واحد بإمكاناته الذاتية .. نعم اقتربنا الآن من طـرح قضـية تخلف المسـلمين فى إطارها

---

(٤) البقرة : ١٤٣ (٥) الشمس : ٨

الموضوعى .. وهو الإنسان المسلم الذى يعانى من قطيعة مع إسلامه ، فدخل فى شبكة علاقات لا موضوعية مع ذاته وما يحيط به ومع مجتمعه الإسلامى ومع مجتمع الآخرين وأصبح فعلا فى مهب الريح .. كل يحاول أن يكيف له لماذا تخلف ؟ ، هو يستمع لكل شادية ، أما شادية الحى الذى يسكن فيه فلا تطرب .. نقصد بذلك الإسلام الذى لا يستمع إليه فى داره ، لأنه بالنسبة له مجرد مواعظ وارشادات وطقوس ، مكانها سرادقات المآتم ، أو الاحتفالات التى تأتى مع العام مرة أو مرات ، وهكذا أصبح الإسلام موسمى النزعة ، وبالتالى تحول المسلم إلى مسلم المناسبات .. وهذا المسلم الذى تداعت عليه الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها .. لقطيعته مع إسلامه ، وهو إذا تأمل فى تاريخه ، بل إلى التجارب العالمية المعاصرة سيصل إلى قضية القناعات الكبرى ..

إن العقيدة هى الطاقة اللامتناهية للقوة ، وهو يرى رأى العين ، كيف أن ثمة عصابات مغتصبة تحاول أن تحول أساطيرها الوهمية إلى حقائق تاريخية تفرضها على العالمين ..

أما المسلم صاحب الحقائق التاريخية فحينما يتغاضى عنها تتحول إلى أساطير فهو فعلا الآن مسلم الأساطير ، بينما هؤلاء الذين كانوا يحلقون فى الأساطير أصبحوا هم أصحاب الحقائق التاريخية .

هذا نموذج محزن ومأساوى نعيشه فى القرن العشرين .. هذا هو جوهر تخلف المسلمين ..

إن البناء الذاتى للمسلم إذا كان قائماً على تفهمه لإسلامه فإن أغلب مشكلات التخلف التى نعجز عن حلها سوف تطرح بأقل قدر ممكن من الضوضاء ..

أما الآن وقد غابت عنه القاعدة ،وغابت عنه أرضية الإقناع ، راح يبحث فى مشكلته الاقتصادية ويلهث وراء حلول الآخرين ، فإذا به يجد نفسه مكتفا فى المديونيات ، ثم تتداعى أمامه ما تسمى بالمشكلة الديمغرافية (السكانية) ويصطدم بمشكلات الإيديولوجيات السياسية ، فيبدأ يقلب

فى النظم ، وإزاء فشله يخرج بالرشاشات معتقداً أن خلاصه من مشـكلته السياسية يكمن فى أن يتخلص من أكبر قدر ممكن من النظم ..

ومشكلته الأساسية أنه إنسان نسى اسـمه ، ويطلب من الآخرين أن يسموه .. وهؤلاء كل منهم يسميه حسب هواه .. يقول له : أنت جوكوف ، أنت چورچ ، أنت چان ، أنت كوهين ! .

وكما قلت فى البداية : الإسلام ليس هو المدان ، إن المسلم وقد تخلف فى إسلامه يريد أن يسقط على الإسلام ذلك فيجعله يتخلف ، ويحاول أن يطرح بديلا للإسلام الشامل الكامل ، القادر المنقذ للكون ، المعيارى الوسطى ، مذاهب أخرى يمليها عليه خصومه ، ثم يقولون له : انظر أين أنت بين الأمم ؟ .. لا شىء .. إذن فأنت الإسلام المتخلف ..

هم يعلمون يقينا أنه غير متخلف بذاته ، ولكنهم يحاولون أن يقنعوه بأن يعمم تخلفه هذا على إسلامه ، حتى يضيعوا على الأجيال القادمة فرصـــة الانقاذ باسم الإسلام ، بمعنى أنهم لا يكتفون بدفنه بذاته وإنما يتطلعون عبثاً إلى دفن الإسلام معه فى قبره ! .

ولهذا أعتقد أنه آن الأوان لأن نجعل الإسلام على الأقل الملجأ للأجيال القادمة إذا كنا مكتوفى الأيدى عن الانتفاع به حالياً .. وربما يأتى جيـــل يصبح قادراً على أن يتفهم الإســلام .. لا ينبغى أن نوصـــد البـــاب على الإسلام ، فلندع الباب مفتوحاً أمام الإسلام فقد يدخل فيه من يبحث عن كمال الحلول ، وسيجد الإسلام مستقبلا له برحابة الصدر يضمه بالرحمـــة الكبرى .. بالشمول الكونى المتعادل .. بالعطاء المتكافل ، وسيمنحه الإجابة عن كل الأسئلة المحيرة ..

لنكف أيدينا عن أن نورث مأساتنا للأجيال القادمة حتى لا نفسدها كما أفسدنا أنفسنا وبأيدينا .

... وفى محاولة متأنية لتشخيص الداء بحثا عن الدواء واجابة على نصف السؤال المطروح .. ما هو السبيل الى الخلاص من هذا التخلف واستعادة الأمجاد يقول الدكتور رشدى فكار :

.. واقع الأمر أن المسلمين انقسموا فى تعاملهم مع الإسلام إلى مجموعات ..

مجموعة تعلن الإسراف والمغالاة فى القطيعة واللامبالاة ، وتحاول دائماً أن تعكس مشكلاتها النفسية وهمومها على الإسلام .

ومجموعة أخرى تتعامل مع الإسلام تعاملا موسميا لحاجة فى نفس يعقوب ، ومجموعات تتجمد على قشور النصوص ولا تسبر أغوار الجوهر المضىء ، وغيرها تنفلت عنه تماماً بالقطيعة وتتصور بأنها هى الانقاذ من التخلف .. وهذه المجموعات لا أعتقد مطلقاً أنها هى المجموعات المستنيرة التى يمكنها أن تقود المسيرة .. مسيرة الإسلام الخالد القادر على أن يحتوى الإنسان .. ليس فقط فى تطلعاته الإيجابية ، بل وحتى فى سلبياته ، وفى شروره ، وحتى فى فجوره ..

ولا داعى لأن نصور لأنفسنا إسلاما حسب المقاس فالإسلام بكل بساطة هو الدين المتفهم ، والقابل لأن يفهم ، وكثيراً ما أتساءل من أين جاءت مواقف كل هذه الفرق الضالة التى نلاحظها الآن .. ربما هى أيضاً تدخل بدورها فى حلبة تخلف المسلمين ..

المسلم متخلف أمام الإسلام ، نعم هو متخلف فى إسلامه ، ثم انعكس هذا التخلف بدوره على بقية الأبعاد .

وقد يقول البعض وهو يبدى أسارير الامتعاض والدهشة .. كيف هذا .. أين القرن العشرون ؟ .. أين العقلنة وأين التكنولوجيا والتقدم الصناعى ، وأين الجدلية وأين ثورة المعلومات والذكاء الالكترونى ؟ إنه متخلف فى فهم بعض الأمور التى تمت منذ أربعة عشر قرناً فى إطار لاهوتى ميثولوجى وأسطورى ! .

وأقول : هؤلاء هم بداية المأساة لأنهم فعلا يبيعون بضاعة ليست بضاعتهم ، وقد يكون ذلك مستساغا من أناس تبنوا منذ البداية القطيعة والإلحاد واللائية ، واتخذوا منها قاعدة لوجودهم ، وأعلنوا مبدأ الحيوانية ، وحاولوا طرح الإنسانية من خلال تدافع جسدى .

وهذا ما نلاحظه الآن من القوى العظمى ، التى تتدافع بالصواريخ والدبابات وعبور القارات ، وتلويث الكون ، ثم تغرهم قوتهم ويستمرئون جبروتهم فيقولون هذا الذى يقولون ..

أما أن يأتى إنسان هو أساسا عاجز عن أن يتسلق هذا الإطار الرهيب ، إطار اللائية والإلحاد ، ثم يعتز به ويتبناه ويعتقد أنه وسيلة الإنقاذ ، ويسبح مع هذه الموجات الغريبة ، موجات التدمير والحيوانية الباطشة ، فهذا أمر مستغرب تماماً ويصعب تفسيره .. إنه يقول إن هذا الماضى أسطورة ، إذن فأنت أسطورة فى عصرك وأسطورة فى ماضيك ، فلا أنت بقادر على أن تعيش فى عصرك بلغة الماديات والمواجهات ولغة هذا التدافع المهول لعصور الذئاب ، ولا أنت بقادر على أن تبحث عن البديل .

* * *

(٢)

السـيرة النبـوية
تتحدى كل محاولات النيل منها
و ((دنونتها)) باسم المنهج العلمي !

بعد رحلتـه المضـنية الراصـدة عبر سراديب الاسـتشراق المظلمة .. يؤكد الدكتور رشدى فكار من خلال هذا الحوار معه .. أن معظم أسلحة المستشرقين المعادين للاسلام ـ الملحدون منهم أو اللاهوتيون ـ قد سقطت وأن أبحاثهم السوداء قد عدل عنهـا تماماً أو لأجل غير مسمى ، وأن ملفاتهم قد أغلقت منذ ربع قرن .. لا بالانتصار وانما بالهزيمة ، كما يؤكد الدكتور فكار أن ثمة دراسات علمية جادة تنشر فى الغرب منذ الستينات تعلن صراحة أن مؤلفات الموظفين الاستعماريين من أسـاتذة الاسـتشراق التى وضعت فى معمعة فترة المد الاستعمارى لتشـكيك المسـلمين فى عقيدتهم .. والتى هى مصدر وحدتهم وجهادهم وموطن قوتهـم .. لم تكن تتمتع بالموضوعية الكاملة وأن مخططاتهم الخبيثة للنفاذ من باب السيرة النبوية ، وطرح علامات استفهام حولها بهـدف (دنونتها) أى التعامل معها بميزان الدنيا لا الدين .. الأرض .. لا السماء ، بمعنى التعامل معهـا كتراث بشرى دنيوى لا كمعبر لوحى السماء .. قد باءت بالخسران المبين .. كما باءت من قبل محاولاتهم اليائسة للنيل من القرآن العظيم الذى تعهده الله تعالى بحفظه ، يقول الدكتور رشدى فكار :

نعم هناك مخطط خبيث من فئة من المستشرقين يحاول أن يستغل ويوظف القدرات المعاصرة فى المنهج العلمى وفى علوم الإنسان وباسـم مصـداقية التاريخ ، وتصحيح الوقائع ، وإعادة النظـر فى التراث لإخضـاع العصر النبوى للإطار التراثى وجره إليه ليعيد النظر فى السيرة النبوية المشرفة .. لا بقلب المؤمن ، وإنما بقلب الباحث المحترف .. حتى يصبح الشىء المقدس

ليس مقدساً ، اخضاع السيرة النبوية لعلمنة الفكر وقدراته الذهنية باسم الفضول العلمى لا باسم التعاطف مع حضارة الآخرين .. هذه الفئة تفجرت بالحقد ضد الإسلام من خلال مؤلفات توالت فى الظهور منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين .

وهذه الفئة ظاهرها العلم والتحضر والانتماء إلى حضارة سائدة غربية ، وباطنها التخريب والتشكيك .. والقطاع العلمانى الملحد من هذه الفئة بذل محاولاته للتشكيك فى الأنبياء والرسل .. وهم بعد مواجهاتهم مع الكنيسة من خلال الصراع بين الفكر الوضعى واللاهوتى حاولوا أن يوسعوا من نطاق معركتهم لمواجهة أكثر ضراوة مع الإسلام ..

وسعى هذا التيار الإلحادى المستشرق تحت رايات علوم ومعطيات الإنسان الغربى أن يقحم الإسلام ليكمل فصلا من فصول الدراما المأساوية التى أحاطت بالكنيسة الغربية منذ العصور الوسطى ، التى أعقبها عصر التمرد ، وعصر الأنوار ، وعصر العقل المحتج ، والبدائل الوضعية ، والمدارس المادية ، وشجع هؤلاء الانتصارات التى حققها التجريب العلمى فى الغرب والسيطرة على الظواهر ، واكتشاف القوانين للعديد من مكونات الطبيعة ، وفتح ذلك شهيتهم فبدأوا يقدمون الإنسان كبديل للإله ، واستبدلوا حوار السماء والأنبياء بحوار الأرض والإنسان .

حاول هؤلاء القوم أن يسقطوا كل هذا الفكر المادى على العصر النبوى وإدخاله فى إطار وضعى فراحوا يبحثون فى تأثير العوامل الاقتصادية والسياسية والبيئية فى جزيرة العرب .. وهم أساساً متنكرين للعقيدة فى غربهم ..

وحاول هذا الاستشراق الإلحادى أن يعكس ظلماته على الأمة الإسلامية ، والهدف هو تعميم موجة الشك لديهم إلينا بنوع من التقىء للدهاء وللحقد الدفين .. هم ضائعون فى بلادهم ، ويريدون أن يضيعوا الآخرين فى ديارهم .

ومن المحزن حقاً أننا وجدنا بعض النفايات من المثقفين العرب

والمسلمين ، ممن لا يحملوا من الانتماء إلى هذه الأمة إلا مجرد الاســم ، ثم يستبيحون لأنفسهم أن يضعوا أنفسهم فى خدمة الشيطان ، فى خـــدمة هؤلاء المستشرقين لقاء حفنة من مال .. وأن يبسطوا لهم بعض القضـايا ، ويعاونونهم فى دراساتهم المقنعة السوداء ، باعتبارهم من أبناء اللغة العربية السابرين لأغوارها .. تلك اللغة الصعبة التى تستغلق على عقول المستشرقين مهما خبروها .. لقد تنكر هؤلاء المثقفين العمــلاء لأمتهم ، وعقيدتهــم ، ووظفوا قدراتهم لصالح أصحاب المآرب ، وأصحاب القلوب المريضــة من المارقين المضللين المزيفين .

ويتساءل المرء إزاءهم — كيف يمكن أن يصل الجحود بهؤلاء إلى هذا القاع السحيق المتردى ..

وثمة فريق آخر يقف فى نفس الخندق المعادى للإسلام يتألف من هؤلاء المستشرقين اللاهوتيين الذين تمثل دراساتهم صليبية الفكر ..

وقد حاول من هؤلاء من أمثال القس لاماس وغيره أن يطرحوا القضايا الخاصة بالعصر النبوى بهدف (دنوته) لتدنيس المقدسات ، والتشكيك فى أنها دنيوية ولا صلة لها بوحى السماء ، وأنها مجرد تراث بشرى قابل للأخذ والرد ..

حاولوا فى البداية طرح المقولات الشهيرة حول تعدد الزوجات ، وقهر المرأة ولكن لم تلبث هذه القضــايا التى أشبعوها بالتكرار أن توارت ، واختفت بعد أن استشرت فى الغرب المتحضر ..

ظواهر الخلل فى البنيات الأسرية والمجتمعية ، والتفسخ فى القيــم .. ولقد خفت هذه الموجة وتراجعت خجلا أمام تماسك الأسرة المسلمة وأمام السلوك الذى مازال يتمتع برصانة التقاليد والعادات الصــارمة والحيــاء العام والحشمة والوقار والاحترام المتبادل ، وصدق فيهم القــول المأثور : « لا يمكن لعار أن يصف اللباس لمن لا لباس له » ..

لقد حاول هؤلاء أيضاً أن يخترقوا السيرة النبوية ، ويخضعوا حيــاة

نبى الإسلام لعلوم التربية والسيكولوجيا ، فضاربوا على فروع القضية وهوامشها ، ولم يصلوا إلى جوهرها وأساسها واختلت كل موازينهم ..

فالطفل محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى حرم من نعمة الأمومة والأبوة وافتقد الحنان منح الدنيا بأسرها عاطفة وحنانا ورحمة ، مع أن القاعدة المعروفة أن فاقد الشىء لا يعطيه .. وهنا يبرز حديث النبى محمد صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .. وقول الله عز وجل : **« وانك لعلى خلق عظيم »** (١) .. و **« ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فاغنى »** (٢) وصدق الله العظيم ، فقد كان من الممكن لهذا الطفل اليتيم الفقير أن يضل دون رعاية الأب وحنان الأم ، لولا تعهد الله له برعايته وفضله حتى اصطفاه وصدق فيه قوله تعالى : **« ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى »** (٣) ..

وهكذا — يقول الدكتور رشدى فكار — أعتقد أن قضية المضاربة على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاولة النيل منها باءت بالفشل ، وأن قدرات الذهنية الاستشراقية الغربية المتمردة الخبيثة وأبحاثها المكثفة لم تكن تحسب علينا وإنما حسبت فى النهاية لنا ، وأصبحت قضية طرح العصر النبوى كمقولات تراثية متجاوزة باسم قدرة العلم نفسه الذى بدأ يفيق ويعترف أن الإسلام هو رمز الكمال وأنه وصف العلاج لأمراض آخر الزمان .

وجدير بالذكر — كما يتحفظ الدكتور رشدى فكار ويقول — إن هناك فئة من المستشرقين انصب عملها على مجرد تحقيق المخطوطات والتعريف بتراث المسلمين فى التفسير ، والأدب ، والشعر والفقه ، والتأريخ ، هذه الفئة من المستشرقين تخصصت فى إحياء التراث والتقليب فى المخطوطات وتحقيقها باسم الفضول العلمى لا أكثر ولا أقل لا باسم التعاطف مع حضارة الآخرين .. وكثيراً ما انتهى الأمر ببعض هؤلاء المستشرقين النزيهين إلى الاقتراب من الإسلام والتعاطف معه ، ثم التلاطف ، ثم المحبة ثم الاندماج ،

---

(١) القلم : ٤
(٢) الضحى : ٦ — ٨
(٣) النجم : ٤ ، ٥

واعتناق الإسلام بعد أن وصلوا إلى روعة جوهره المتـألق وأدركوا انه ليس من صنع عقول البشر .. هذه الفئة حقيقة مشرفة ، ولا نملك إلا أن نعتز بها ، ولا يمكن أن تنكر ما قامت به من فضل وخدمات لإحياء التراث العربى والإسلامى ، لقد قاموا بإحياء لمخطوطات كادت تنـدثر ، وأزاحوا التراب عن مخطوطات نادرة ، وحاولوا أن يستغلوا تقنيات البحث والنشر ليقدموه فى شكل كتب قابلة للقراءة بعد أن حققوها وأزالوا عنها الصـدأ التاريخى وغبار الأتربة ، وهذه الفئة لم تغـامر مطلقاً فى أن تحشر أنفهـا فيما لا يعنيها ، ولم تقم كغيرها بالمضـاربة على عقيـدة مليـار من البشر المسلمين لكى تقول : لا ، هـذا ليس من السـماء ، وإنمـا كان هـؤلاء المستشرقين المنصفين العلميين محترفى أبحاث ، ومنهم من تخصص فى اللغـة .. باحثو لغويات ، أو من كانت لهم اهتمامات أدبية فى الأدب العربى نثراً وشعراً .. هذه فئة تستحق منا الشكر والعرفان بالجميل . **« وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »** (٤) ..

* * *

---

(٤) الرعد : ١٧

الكعبة المشرفة وقبر الرسول ﷺ
ثوابت تاريخية راسخة فى عصر العقل المتمرد

وفى اطار الحديث مع الدكتور رشدى فكار عن العصر النبوى وكيف حاول المستشرقون المغرضون عبثا ان ينالوا من قدسيته يطرح من خلال رحلته الأخيرة للأراضى المقدسة لأداء شعائر العمرة انطباعاته عن الكعبة والروضة الشريفة وكيف أنهما سيكونان ثوابت تاريخيـة راسـخة أمام عقـل الانسـان المتمـرد فى القـرن الحادى والعشرين .. ففى الوقت الذى ينبش فيه غيرنا فى أعماق الصخور والتراب للعثور على حجر يبرهن فيه على مقدساته على بقعة من الأرض .. هذا هو بيت الله الحرام شامخاً مهابا جليـلا وهذا هو مقام محمد بن عبد الله رسول الله ونبى الاسـلام صلى الله عليه وسلم ، كائنا متألقا تحفه الأنوار .. التى تضىء قلوب المؤمنين المحبين ، وتعشى أبصار الملحدين الذين اتبعوا شياطينهم .. يقول الدكتور رشدى فكار :

فى رحلتى للعمرة .. التقت عيناى لأول مـرة بالكعبة المشرفة وبضريح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى هـذه الأثناء كان عقلى مهتـما برصد محاولات المستشرقين الفاشـلة لتلويث تاريخنا الإسـلامى ودنونة السيرة النبوية .. وكنت قد حشدت كل طاقاتى الإيمانية وبراهينى العقلية لصد كل هذه المحاولات وتكسير أسلحتها المفلولة ، ولكنى ما كنت أحسب أبداً أن زيارة العمرة ستفتح أمامى أبواباً جديدة لمجادلة هؤلاء المستشرقين .. ببراهين لا تقبل المجادلة ..

ومع شريط انطباعات الدكتور رشدى فكار فى الأراضى المقدسة اسـتمع الى عباراته التى أضعها كما هى دون مقاطعة أو حتى تزويق .. لأنها تنبعث من القلب :

كما أكرر دائماً ، هناك زائر وزائر .. هناك المتجه إلى الحرم النبوى بقلب ثابت الإيمان ومصدقه العمل ، بمعنى أن قوله وفعله متكاملين ، وهنـــاك

الزائر إلى خاتم الأنبياء لأداء التحية ، وهنــاك من يذهب لأنه رأى والده يذهب ورأى الآخرين من المسلمين فهو يذهب بدوره كما ذهبوا لاستكمال الشعائر وأداء الفريضة .

وهناك فئة — وأتمنى أن تكون محدودة — تزور هذه البقاع المقدسة بهدف السياحة .. وهذا السائح أقول إنه من الأولى ألا يضيع وقته وينتظر حتى يشعر بانتمائه الإسلامى ..

والذى يعنينا هو ذلك المؤمن الزائر الذى لا يذهب إلى ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الكعبة المشرفة بقدميه فقط ، وإنما بكل مشاعره وروحه وجسده ، ويتمنى أن يلتحم مع هذه الأرض التى تضـم الجسـد الطاهر .. فى إطار من الهدى والنور ..

أما عن انطباعى ، بمجرد أن عبرت باب السلام بالمسجد النبوى الشريف .. فلله الحمد ، كان انطباع المؤمن الذاهب لتحية هذه الأسوة الحسنة ، القدوة الخالدة وسارت قدماى لعبور الروضة الشريفة ، وعقلى يدور بأفكار تتشــابك مع أعماقى الإيمانيــة وأمام الضريح الشريف ، كان يقينى بأنه سيكون بمشيئة الله معلما من معالم التحدى فى القرن الحادى والعشرين ، حيث العقل المتمرد والإنسان المادى .. لإثبات العــودة إلى إعلاء كلمــة الإسلام ..

وابن القرن الحادى والعشرين حسب تصورى والله أعلم — فهذا من باب الاحتــمالات المبنيــة على التقنين الذهنى الواعى إلى حــد ما — ســوف يندرج تحت ثلاث فئات :

فئة التقت تحت راية الله ، وفئة مزقت هذه الراية نهائيــا وتكاملت مع شيطانها ، وبينهما فئة ثالثة مذبذبة بين هذه وتلك ، والفئة الملحدة والمذبذبة سوف تبحثان فى عصر العقل المتبجح المتمرد عن مرجع إحالة بصفة نهائية .. وفى عصر الكومبيوتر لن يسمح إنسان القرن الحادى والعشرين بالتخدير والتغميض والمجازفات وهو يرى ببصيرة حــذرة ناقدة رهيبــة .. والذين تكاملوا مع إيمانهم فى هذا العصر ســوف يحاولون ما أمكن أن يرتكزوا على معطيات يتقبلها العقل ..

أما الذين التحموا مع شياطينهم .. فهؤلاء يمكن أن نسميهم فئة الاستهلاكيين ، فئة بلا علم حقيقى ولا هدى ولا كتاب منير « **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** » (١) ..

الإنسان من هؤلاء من بطنه وإلى بطنه ، هو ولد ليشبع ويتلذذ ويموت ، وفى انتظار الموت يمر عبر ماسورة استهلاكية تمر فيها المواد الغذائية لتتحول إلى نفايات لا أكثر ولا أقل .. ويوم يذهب ، ويوم يأتى ، ثم فجأة يتزحلق فيجد أقدامه إلى القبر وإلى الحساب الأخروى الذى لم يكن يخطر بباله : هؤلاء هم فئة الضلال والتكبر والاستكبار فئة عباد الشيطان ، هم دعاة الإلحاد .. وهم بعجزهم عن أن يهزموا الإله سيهزمون أنفسهم ، وسيحل شيطان النفس فى قلوبهم محل هدى الله وصدق الله تعالى : « **كتب عليه انه من تولاه فانه يضله** » (٢) ..

وما أروع الآية القرآنية الأخرى التى تعطى لنا بعض الإرهاصات لهذا النوع من الضلال الشيطانى لدى المتكبرين باسم العلم الضال حينما يقول الحق سبحانه وتعالى : « **ما اشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً** » (٣) ..

هم الآن يحلمون بخلق الإنسان وهم لم يشاهدوا أصلا خلق أنفسهم . إن العالم الملحد يحاول الآن أن يقوم بعملية الخلق ، فيستأجر رحم ، ويستأجر بويضة ، ويستأجر خصية .. عملية رهيبة ، وهم يقينا سوف ينكبون على أنفسهم وسيرد سهمهم إليهم ..

إن الله سبحانه وتعالى فصل فى آياته الكريمة بين العلم وبين الشيطان .. فالذى يجادل بغير علم ، يمشى وراء الشيطان ، وطريق الشيطان هو طريق الجهل لا العلم ، حتى لو صور له شيطانه أنه على علم فهو يغرق فى جهالاته .. لأنه لو علم ما تبع الشيطان .. وهناك فئة المتسائلين ، أو المذبذبين وقد أنبأنا عنهم القرآن العظيم « **ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين** » (٤) ..

---

(١) الحج : ٨
(٢) الحج : ٤
(٣) الكهف : ٥١
(٤) الحج : ١١

ونلمس هذه الفئة وللأسف بوضوح مع بعض الجوقات ، أو من يسموا بمروجى المواسم أو مفكرى المناسبات ، بمعنى يعطوا لكل موسم رداءه ولكل مناسبة ما يليق بها وأعتقد أن هذه الفئة حرفية أبدع القرآن الكريم فى وصف أتباعها .

عودة إلى خواطرى أمام الضريح الشريف ، إن هـذا الضريح كما قلت سيكون قمة الثوابت المتحدية فى القرن القادم .. لأن هناك فئة سوف تجادل فى الله بالعلم إلى جانب الفئة التى تقبلت الإيمان بالهدى والنور .

هذه الفئة ستقول نعم .. العلم أوصلنا إلى أن هناك مبدع للكون وخالق .. وهذه الحقيقة أدركها آينشتاين حينما قال : « إن الكون بقوانينه المبدعة لا يمكن إلا أن تكون من ورائه قوة مبدعة خالدة ورائعة تقـوم بتنظيمه وتنسيقه » لاحظ آينشتاين ذلك فى ضوء مشاهدته للإيقـاع المتناغم هائل الدقة بين جاذبية الكواكب والنجوم ..

وبعد نصف قرن من آينشتاين يأتى عالم عملاق آخر هو ألفريد هويل الذى قال : إن الحياة على هذه الأرض لا يمكن أن يكون سببها قانون الصدفة والضرورة ، كما يعتقد البعض ، لأن الذى يحـرك الأرض وما عليهـا هو « ما أسماه » بالذكاء الكونى .. وهكذا نرى ان ثمة علماء بدأوا يؤهلوا الذهن البشرى إلى إشراقة النور باسم العلم ..

وعلماء القرن الحادى والعشرين من قمم العقـول والذهنيات القادرة سيطرحون قضية .. نعم هناك إله ونعم هناك أنبياء ، ولكن من يؤكد لنـا أن ما أوحى به إلى الأنبياء هو الذى وصل إلينا بعد مسيرة تلوث التـاريخ الرهيبة وافتعالات الإنسان فى مسيرة منافعه الذاتية ؟ سيقول إنسان ذلك العصر : نريد نبيا له ثبات تاريخى .. هنا يشخص القبر الشريف لرسـولنا صلى الله عليه وسلم .. بأنه هو الثبات التاريخى ، وكذلك الكعبة المشرفة .

إن من أراد راية الله ، فهذا هو نبى الله وهذا ضريحه .. لن يبحث فى الأتربة ولا فى الهيـاكل ولا فى المعابد .. إن أمامه ضريح ثابت ، يمر أمامه أحبابه لتحيته والسلام عليه .

أما عن انطباعى أمام الكعبة بيت الله الحرام فقد نظـرت على الطائفين حولها وراودنى شعور بأننى أرى مجموعة صحابة رسول الله عليه الصلاة وأزكى السلام يطوفون .. ارتباط فى الرؤية ، أما من بين بين يطوف اليوم ، وطاف بالأمس لم أستطع أن أفصل بينه وكأن القرون الأربع عشرة لم تكن .

هل هناك أروع من ذلك ؟ .. نعـم .. اتجهت إلى الـكعبة المشرفة ، وصليت ركعتين فى مقام إبراهيم عليه السلام ووقفت وقفة العارف بكمـال الدين ، بالدين الكامل الذى هو المؤشر للكون بأسره .. إن من أراد النجاة .. فهذه هى الثوابت والدليل على أن التحدى قائم ودائم .. إنها الكعبة التى طاف حولها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وابنه إسـماعيل عليـه السلام .. وهى الكعبة التى طاف حولها حفيدهما محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم نبى الإسلام وخاتم الأنبياء ، رمز الوحدانية الكاملة .. الكعبـة ثابتة وباقية ، بينما نلاحظ عمارات ناطحة شيدت فى أوروبا وهدمت بعـد ربع قرن من إنشائها بفعل الحروب ..

* * *

(٣)

أثر الفكر الاسلامى على الحضارة الأوروبية

.. بين العرفان والجحود !

فى حوار مع الدكتور رشدى فكار حول أثر الفكر الاسلامى فى أوروبا بين العرفان والجحود .. يؤكد أن الاسلام سوف يقوم بدور المصحح للسلوك للانسان الغربى بعد أن وصل مع تطوره التكنولوجى اللاهث الى حالة من الخبل الجماعى ، كما وصفه بذلك « هايدجر » عميد فلاسفة القرن العشرين ..

الاسلام سوف يعيد له التعادل والموازنة بعد أن أصبح يعانى من حالات الاهتزاز التى يهرب منها فى عيادات الطب النفسى أو جلسات المخدرات .

وبذلك تتحقق نبوءة رائد المدرسة الوضعية « أوجست كونت » الذى قال : « ان كان لابد من دين فى مستقبل القرون فلن يكون الا الاسلام » .. يقول الدكتور رشدى فكار :

حينما نقول الحضارة الغربية ، فإننا نقصد شقيها الرأسمالى والماركسى على حد سواء فالأم واحدة ..

والحضارة الغربية ترتكز على قدرات ثلاث هى : الأسس العلمية ، والتطبيق الصناعى .. والمعرفة التكنولوجية .. هذه هى حضارة الغرب التى تسود بشقيها ، ولكن بطرق متباينة على الأقل من حيث المظهر ، أما الهدف فواحد ونعنى به الهيمنة على الإنسان الآخر ، إما بمصادرته كلية كما فى الكتلة الماركسية ، أو بمصادرته جزئياً كما فى الكتلة الليبرالية (الرأسمالية) .

هناك فعلا هيمنة لإنسان سائد يسمى إنسان الغرب بوسائله الثلاث لا بمثله الإنسانية وقيمه الروحية ، وقدراته الخلاقة لإنقاذ البشرية ، بقدرات القهر والتحكم التكنولوجي ومحاولة توظيف العلم والتطبيق الصناعي للتدمير .. وهذه الحضارة مرت بعدة مراحل :

مرحلة جاءت مباشرة فى نهاية العصر الوسيط ، وهى مرحلة التحفظ المتردد أو الخجل على الميتافيزيقا والفكر التجريدى والاتجاه المدرسى فى العصور الوسطى لتتحول إلى مدارس نقدية فلسفية ..

ومرحلة حاولت فيها أيضاً أن تستأنف قدرة التجريب فى الظواهر الطبيعية ، وقدرة المنهج ووسائله وتقنياته فى علوم الإنسان لتتحول إلى دورة علمية ، بمعنى أنها انتقلت من دورة فلسفية إلى دورة علمية ..

وحالياً فى القرن العشرين ، الحضارة الغربية أصدق اسم لها — كما أطلقنا عليها هذا الاسم فى نظريتنا عن المراهنة الصناعية وأزمة الحضارة — فى مجلدات خمسة — هى حضارة تكنولوجية ..

ومن الخطأ أن يطلق عليها حضارة علمية أو فلسفية .. لأن الثالوث المتحرك .. الأسس العلمية ، والمعرفة التكنولوجية ، وتطبيقات الصناعة ، أستطاع فى مرحلة أن يصدر العلوم ، ثم فى مرحلة ثانية ، وهى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أن يصدر الصناعة ، ثم الآن بدأ يصدر التكنولوجيا .. الحضارة الغربية تخصصية لا ترقى إلى مستوى التنظير العقلانى ، وإنما ترتكز على خصائص توزيع العمل إلى آخره من الحصائص المعروفة بالنسبة لهذه الحضارة السائدة التى تحاول — كما أكرر دائماً — أن تستغل الانتصار الذى حققته فعلا وموضوعيا فى حقل التجريب العلمى ، أى الظواهر الطبيعية لتحوله إلى انتصار فى علوم الإنسان وبالتالى على الإنسان الآخر ، إنساننا وإنسان العالم الثالث بصفة عامة أن يحاكى ويقلد الإنسان الغربى السائد ..

يعنى بقدر ما استطاعت هذه الحضارة أن تنجح فى السيطرة نسبيا على الظواهر الطبيعية وتحقق ما نراه الآن من هول ومخاضات كبرى بالنسبة

حتى للفضاء وللصواريخ ، ولكنها فشلت فى أن تحقق شيئاً يستحق الذكر للإنسان ، وهذه الحقيقة يعترف بها حاليا كبار فلاسفة الغرب بتوقيعات مختلفة .. هايدجر ، ماركيز ، كامى ، جاسبرز . الجميع متفقون أن المأزق والطريق المسدود يواجهان هذه الحضارة .. إن إنسان الغرب شغل بما حوله بأكثر مما انشغل بذاته .. لذلك فنحن نسميها أيضاً بحضارة الأشياء .. إن الأشياء هى التى تحضرت .. التليفزيون والفريجيدير والطائرة والسيارة .. كلها تحضرت أما الإنسان فلا .. الإنسان هذا قضية أخرى والآن ننتقل إلى تأثير الحضارة الإسلامية فى الغرب الأوروبى .

إذا كان عمر الحضارة الغربية كله لا يزيد على ٢٥٠ أو ٣٠٠ عاماً فإن الحضارة الإسلامية ظلت زهاء ٩٠٠ عاماً أو تزيد هى الحضارة السائدة كونيا تقلد (بفتح اللام) ولا تقلد (بكسر اللام) تعطى ولا تأخذ .. هذه الحضارة الإسلامية ، تعتز وتفتخر أنها لم تسهر فقط على أن تربط الإنسان بإنسانيته السامية لا بحيوانيته الاستهلاكية ، وإنما برهنت على أنها لم تكن حضارة (القيتو) ، يعنى لم يكن لدينا فى حضارتنا الإسلامية تلك الممنوعات والمناطق الفكرية المحظور الاقتراب منها ، كانت حضارة تعتز دائماً بالإنسان فى كل مكان ، وتعطى ، وتحاول أن ترتفع بهذا الإنسان ، شريطة أن يكون واعياً بإنسانيته ، أى يعلم جيداً أنه مخلوق وليس بخالق وأنه عليه أن يعى أنه فى خدمة الآخرين بالبر والإحسان والتقوى ، وكل المثل المعنوية والمبادىء الأخلاقية العليا إلى جانب القيم الروحية .. هذه الحضارة الإسلامية ، عند محاولة تقنينها — كانت كريمة ومعطاءة .. ، بل وكريمة بلا حدود ، وهى ربما تدفع الآن ثمن هذا الكرم والعطاء بلا حدود وعدم رقابة للآخرين ، لأن هدفها لم يكن فرديا أو جهويا أو إقليميا ، كانت حضارة الإنسان لإنقاذ الإنسان ، حضارة الأمة الإسلامية الوسط ، الأمة الخيرة ، القدوة بين الأمم .. ومن يراجع الفترة التى تعنينا وهى فترة تراجع الإنسان العربى — محور هذه الحضارة الإسلامية — أمام أسباب متعددة وعوامل مختلفة ، وفى فترات دفاعه عن معقله ، ويقظة الحضارة الغربية ، تتأمل دورات تطور الحضارات الثلاثية فهى دورات سلالية ، تصبح دورات ثقافية ثم تصبح دورات حضارية .. ومن الممكن للدورة الحضارية أن

تتراجع لتتحول إلى دورة ثقافية والدورة الثقافية يمكن أن تتفتت لتصبح دورات سلالية .

والدورات السلالية دائما ما تأخذ شكل دورات متعددة ، فهى ليست دورة واحدة ، بمعنى أن كل جماعة تدافع عن سلالتها وعن عشيرتها وعن قبيلتها ، وعن منطقتها وعن هويتها وهذه هى الدورة التى عاشتها حضارتنا قبل الإسلام ..

والمعروف أن الإسلام جاء ليعطى هذا الإنسان العربى الدورة الثقافية .. ماذا نعنى بالدورة الثقافية ؟ ..

نعنى أن مثل تشمله هذه الدورة لا يتمركز بانتمائه نحو مركزية محددة سلالية أو عرقية ، وإنما يلتقى مع الآخرين فى نطاق قيم ومثل مشتركة تفرز الثقافة المشتركة هذه هى الدورة الثقافية من الزاوية الدنيوية ، أما من زاوية الجانب الدينى ، فهى تمثل الفترة الخالدة بالنسبة لنا وهى التى أعقبت فترة الجمود المتمثلة فى حروب الردة والتى أعتبرها هى نقطة التحول بين دورة ثقافية ودورة حضارية ..

إن الردة كانت محاولة للانتكاس بالدورة الثقافية للعودة بها من جديد إلى دورات سلالية ونعرات .. الخ .

وحينما تجاوزت الأمة بحمد الله فترة الردة انطلقت الدورة الثقافية إلى دورة حضارية وانتشرت عن طريق الفتوحات الإسلامية ، ولنتساءل أيضاً .. ما معنى الدورة الحضارية ؟ إن الدورة الثقافية حينما تتبناها شعوب خارج معقلها وتتجاوز الحدود التى كانت تتحرك فيها تصبح دورة حضارية .. فلا يمكن تصور دورة حضارية بدون دورة ثقافية فى داخلها ، باعتبار أن الدورة الحضارية دورة أمم ، أما الدورة الثقافية فدورة شعوب ، إن الثقافة تنتسب إلى الشعوب ولا تنتسب إلى الأمم ..

أيضاً وبالتالى الدورة الحضارية توصف بالعظمة ، أو بالتراجع ، فنقول حضارة مندفعة ، أو حضارة متراجعة ، أما الثقافة فإن لها الصفة الاستمرارية

لأنه تعبير تلقائى عن وجدان الشعوب ــ هذه نقطة مهمة ينبغى أن نأخذها فى الاعتبار من حيث التقنين الموضوعى ..

الدورة الحضارية الإسلامية إذن دورة أقلعت بعد حروب الردة ، واستمرت ولله الحمد ٩٠٠ عاماً .. وللأسف لا نستطيع أن نقول إنها استمرت حتى اليوم .. لماذا ؟ لأن من خصائص الدورة الحضارية أن تكون سائدة ، فالحضارة تجذب إليها ولا تنجذب هى نحو أخرى .. وتكون لها قدرة السيادة وقدرة تبنى الآخرين لها .. ولذلك فهى تحولت فى فترة الأزمة بالنسبة للمد الإسلامى إلى دورة ثقافية ، لها خصائص حضارية ، ولكن فى معقلها ، أما إذا بحثنا هل من امتداد آخر للحضارة الإسلامية ، فهذه قضية لابد وأن ننتظر بإذن الله القرن الحادى والعشرين لنشهد تصدر الإسلام بفضل الأجيال الصاعدة المسلمة من أجل أن يستعيد دورته الحضارية ليحقق من جديد التعادل والموازنة ويعدل موازين الكون التى اختلت تحت ثقل حضارة الأشياء ، حضارة المادة الغاشمة ، حضارة التكنولوجيا ، وحضارة الإسلام فى القرن القادم لن تتحول إلى دورة حضارية بأسلحة أكثر فتكاً وصواريخ أدق تصويبا وتدميرا ، وقنابل أقوى من الهيدروجينية ولكنه سيكون دورة حضارية لهذا الإنسان الذى غالى فى الاستهلاك وغالى فى وسائل التدمير ، وبدأ يبحث عن ذاته ، وسوف يجد إنسان الغرب وكل البشر هذه الموازنة الرائعة لهذا العقل القادر ، والذى هو فى نفس الوقت متقبل لأوامر السماء وتوجيهاتها ولا يتنكر لها لأن إنسان الغرب بدأ يشعر ــ وهذه حقيقة لا مبالغة فيها ــ أن حضارته وصلت إلى مأزق .. ولنرجع إلى دورتنا الحضارية فى فترة الدفاع عن معاقلها ، ولا نقول فترة تراجعها وانتكاسها .. إن هناك اتجاه لدى المتخصصين فى الحضارة الغربية للبحث عن أصول الحضارة الغربية عن المصادر الحقيقية لهذه الحضارة ، بعد أن انتهت موجة الفروسية والشخصانية لهذه الحضارة ، وأصبح الغرب الآن واثقاً فى نفسه .. ففى الماضى كانت تطرح المصادر اللاتينية والإغريقية فقط كمرجعية للحضارة الغربية ، وطالما قلبوا فى أشتات أساطيرها .. وغاب عنهم أن هناك ألف عام من القطيعة ، واكتشفوا أنهم كمن يبحث فى الأساطير والأتربة عن حقائقه التاريخية .. وهم بذلك كانت قضيتهم تطرح بمقياس أن كل شىء

صنع فى الغرب ، وهم حتى لم يسلموا بمقولة أن الحضارة الإغريقية أساساً هى انعكاس للمدارس والحضارات الشرقية القديمة — لأن أرسطو لم ينزل هكذا بمعجزة ، وإنما هو امتداد لمؤثرات سابقة له ..

والذى يعنينا أنه حاليا بدأت علامات الاستفهام تطرح أمام وضـوح الحيثيات والبراهين ..

ولنتناول بعض الأمثلة :

حاليا .. دول الشمال الأوروبى الاسكندنافية والاتحـاد السـوفييتى الدولة العظمى ، حينما تقلب عن مصادر تروى لهم حالهم منذ ألف عام فلن يجدوا إلا مصدر إسلامى لتوثيقها هى كتابات « يحيى غزال » وهو سـفير عربى أندلسى ذهب إلى بلاد الشمال وسجل حيـاة الفايكنج ، لم يسـجلها بطريقة بدائية ، كقوله إن هؤلاء القوم مجوس وعبدة نار ، وعليهم اللعنة ، أبدا لقد أعطى هذا السـفير العربى صفات لهـذه الشـعوب وكيف تعيش حياتها اليومية ..

وتاريخ روسيا .. الاتحاد السوفييتى .. مصدره الأساسى رحلة الرحالة العربى ابن فضلان .. وقد طبعت رحلته بالروسية وترجمت للعربية .. مما يدل على أن الإنسان المسلم كان مهتماً بغيره ، كما هو مهتم بنفسه .. لم يتكلم ابن فضلان عن تخلف الشعب الروسى كلام المتشفى ، أو المحتقر ، وإنمـا وصف أجناس الصقالبة والبلغار والأوكرانيين والروس فى كل المناطق التى تسمى الآن بأوروبا الشرقية ..

بل وهنالك دليـل ، المفروض أن ننتفع منـه فى مواجهـات معينة مع بعض الكيـانات المصـطنعة فى هـذه الأرض العربيـة المسـلمة .. فإن محـاولات اليهـود للبحث عن آثار لهم فى فلسـطين تبرر وجـودهم لم يكتب لها إلا الفشـل ، أما إذا بحثنـا فى شرق أوروبا سنجدها واضـحة تماماً من خلال كتابات ابن فضلان فى رحلاته الأوروبية ، فقـد حكى كيف أنه كانت فى شرق أوروبا إمارة تسمى إمارة الخزر ، وهى كما ذكرها آخر

إمارة يهودية قبل أن تنتهى نهائيا ويبدأ شتات اليهود التاريخى ، وكانت هذه الإمارة بالتحديد فى تشيكوسلوفاكيا .. وكان يحميها المسلمون .. هذه الحقيقة التاريخية كثيراً ما أواجه بها كبار المفكرين اليهود .. قلتها لترافسكى وهو من أكبر فلاسفة التاريخ فى القرن العشرين وهو يهودى :

فى الوقت الذى كانت دول أوروبا تحرق اليهودى فى الميادين العامة فى يوم الأحد حتى تستمر لعنة المسيح .. كان اليهودى فى الأندلس يتبوأ منصب الوزارة فى بعض الإمارات الأندلسية .. مثل ابن ميمون الذى كان وزيراً وكان يكتب بالعربية كتاب دلائل الحيران ليدافع عن سيرته وهو محاولة لإقناع الحائر لأن يضع حداً لحيرته .. وفى نفس الوقت كانت هناك إمارة الخزر التى لم تتمكن من البقاء فى شرق أوروبا إلا بحماية جيوش المسلمين ..

وقلت لترافسكى : وفى أحضاننا انطلقت موجة الانتعاش بما لنا من كرم وسخاء ، وقلت : إن الحضارة كانت كريمة أكثر مما يجب ، كانت حسنة النية لدرجة أنها عانت طويلا من هذه الأريحية والحاتمية المتزايدة ..

إن كتاب ابن ميمون كان يحكى عن أول رحلة لليهود فى الأراضى المقدسة ، أو القدس وفلسطين التى كانت تحت راية الإسلام .. رحلة ١٥٠٠ عائلة يهودية أندلسية ، إلى هناك فى ظل سماحة الإسلام .. فى حين أن الامبراطورية الرومانية المسيحية كانت تحرم دخول اليهودى إلى القدس ..

ومع كرم الإسلام بدأ تسلل اليهود إلى فلسطين والأراضى العربية عبر دروب المروءة العربية والبر والإحسان العربى ..

وقلت لليهودى العالم ترافسكى : إذا كان لليهود عودة فليعودوا إذن إلى إمارة الخزر التى كان لها وجود فى تشيكوسلوفاكيا ، فليعودوا إلى أرض خاقانهم الأكبر أو صاحب الـ ٢٥ قبراً المعلقة فى براغ .. والتى تمثل آخر تراث لليهود على وجه الأرض وذلك بدلا من أن يعودوا إلى أساطير وأباطيل وبدلا من أن يبحثوا فى الأتربة .

هذه هى الحضارة الإسلامية التى عانت طويلا من روح التنكر والجحود

.. برغم أنها أعطت الكثير للنهضة الأوروبية طيلة ٥٠٠ سـنة من القـرن الثـانى عشر إلى القـرن السـابع عشر الميـلادى ، وهى الفـترة التى يسمونها الآن فترة تصيد المخطوطات العربية .

ولكنى أستطيع أن أؤكد أن موجة النكران والجحود لفكرنا الإسلامى وعدم الاعتراف بأنه يمثل جوهر الصحوة العقلية الأوروبية سـوف تنكسر تماماً مع مطلع القرن الحادى والعشرين ، بعد أن تفتحت الدراسات العلمية المنصفة ، وأدرك العلماء فضل الحضارة الإسلامية من خـلال الحيثيـات والأدلة الموضوعية ، وأن النكـران والجحود من صـنع المنتفخين الذين لا يكتفون بأن يجردوا الشـعوب من حاضرها وإنما يعمـدون إلى سلب ماضيها ! .

إن المخطوطات العربية التى ترجمها رواد عصر النهضة الأوروبية باقيـة فى متاحف ومكتبات العواصم الأوروبية ، وقد شهدت القرون الخمسة من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر فترات الانتحال الفكرى الكبرى ، لقد أطاروا رؤوس المخطوطات العربية وحذفوا عناوينها ، ثم ترجموها إلى اللاتينية واكتفوا بنقش توقيعاتهم عليها .

إن « روجر بيكون » رائد التجريب العـلمى و « فرانسيس بيكون » و « ديكارت » ، نقلوا فلسفة التجريب من الحضارة الإسلامية وانتحلوها لأنفسـهم ، فى غيبتهـا ، سرقوها من ابن الهيثـم وابن حيـان والبيرونى والخوارزمى ، بعد أن استولوا على مخطوطاتهم ..

وكما شاهدنا فقد عرفت حضارة الإسلام الغربى بأرضـه وتاريخه ، ولعبت رحلات ابن بطوطة والإدريسى والتيجانى دوراً فى فتـح المسـالك أمام الكشوف الجغرافية البرتغالية والإسبانية والإيطالية بعد عصر النهضة .

إن الحضارة الإسلامية العربية كانت كريمة ومعطاءة ، ولقد أنقـذت الإنسان الغربى الذى صادرته الكنيسـة طيـلة ألف عام ، كان إذا أراد أن يبتسم لزوجته يستأذن من القس يوم الأحد ..

هل أبتسم لزوجتى ؟

فيقول له القس : لا ليس هذا يوم الرضا ! .

فيطيع هذا الإنسان المستعبد ! .

كان الأوروبى مجرد رأس فى قطيع من الأغنام ! ..

وهذا يفسر لنا هذا الحقد الرهيب فى حضارة الغرب على الميتافيزيقا وعلى اللاهوتية وعلى كل ما هو تجريدى ، وذلك لتصفية حسابات ذاتية .

أما الحضارة الإسلامية العربية ، فهى أول من لفتت نظر الغربى الرافض المحنط الذى استسلم للأباطيل والأساطير فاكتشف وهو فى ذهول أن الإنسان يمكن أن يكون مؤمنا ويفكر ، وجد الأوروبيون بشرا مؤمنين ويفكرون فى العمران وشتى العلوم ، يرتكز فكرهم على الوحى وفى نفس الوقت لا يصادروا العقل ..

وهنا بدأت صحوتهم العقلية ، وحمل ذلك مفكريهم على التمرد على العصور الوسيطة والاختصام مع الكنيسة ورجالها والتطلع إلى الاحتكام العقلى ..

ومن هنا صاح « أوجست كونت » رائد المدرسة الوضعية الذى يمثل قمة التمرد :

« إن كان لابد من دين فى مستقبل القرون فلن يكون إلا الإسلام »

لماذا ؟ لأنه الدين الذى سمح للعقل أن يشرق وبسط له الشعائر وأعطى له الطريق الذى يجعله إنسانا لا مجرد حيوانا استهلاكيا ..

فحضارة الإسلام سوف تعيد الابتسامة الطبيعية للإنسان الغربى الذى أوصلته حضارة الأشياء المادية إلى جفاف العاطفة ، الإنسان الغربى ارتوى من الخارج ولكنه جف من الداخل ، جفت لديه العواطف ، ورغم أنه سيد الابتسامة المقننة ، فإنه فاق الابتسامة الطبيعية ، يعنى يمكن أن يبتسم لعدوه بالاستراتيجية والتكتيك ، ولكن حينما تطالبه أن يبتسم بطريقة طبيعية يقول لك كيف ؟ ..

لا يعرف .. كما أنه لا يعرف كيف يبكى ؟ . لقد سألت البعض فى بعض

المناسبات المحزنة حينما يتوفى صـــديق مشـــترك لى ولبعض الفرنسيين أو السويسريين .. فى لحظة الدفن كنت أنظر فى الوجوه .. وجوه أقرب الناس إليه فلم أجد إلا الجفاف الرهيب ، وكأنهم يدفنون كلبا ..

وفى لحظة من هذه اللحظات سألت أقرب الناس إلى الميت المدفون وكان أستاذاً كبيراً فى أوروبا وله ثقل علمى ضخم ..

قلت له : ألا تعتقد أن هذه الأرض تســتحق دمعة منك بعد صــداقة استمرت زهاء ربع قرن .

قال هذا الأستاذ الكبير : فعلا تستحق ولكن ليست هذه هى المشكلة ..

قلت له : ما هى هذه المشكلة إذن ..

قال : المشكلة هى كيف نجد هذه الدمعة ؟ ..

جفاف .. جفاف فى العواطف .. جفاف فى العلاقات فى ظل هذا الجبروت الجديد الذى فرضته الحضارة التكنولوجية .. حضارة الاختزال .. اختزال الأمكنة واختزال الأزمنة ، واختزال المســافات ، واختــزال العواطف ، واختزال الابتسامة .

وتســأل المفكر الأوروبى : لماذا كل هــذا الاختزال ؟ .. يقول لك : لا أدرى ! .

والحقيقة أنه جزء من مسلسل مندفع يقوم هو بعملية التنفيذ تلقائياً كأنه مجرد حلقة فيه ..

ومن هذه الزاوية ، وربما فى الوقت القريب . وهذا ما ألاحظه خــلال بعض التيارات الفكرية الكبرى فى الغرب .. سوف يطرح الإسلام لا أقول كبديل للحضارة الغربية ، ولكن وعلى الأقل ســيطرح كتســاؤل .. لماذا الإسلام ؟ .. حينما يلاحظ الغرب أن شعوب الأمة الإســلامية التى تعدادها مليار نسمة تعيش مع عواطفها وابتسامتها وأملها وتطلعاتهــا رغم المعــاناة الهائلة والتخلف .

والإنسان المسلم يريد رغم كل عوامل سحقه وإبادته وبعـد أن غطى بالأتربة .. بالاستعمار والقهر .. أن يكتشف ذاته وينطلق لاستعادة مجده ::

إن مفكرى الغرب فى دهشة من الإنسان المسـلم الذى مازال أسريا . يعمر قلبه بالعواطف لأبنائه وزوجته وأقاربه ، هو إنسـان مازال عملاقا فى إنسانيته رغم فقره وتخلفه ، والإنسان الأوروبى والغربى عمـوماً رغم كل عوامل قوته ورفاهيته تخلى عن إنسانيته وجفت شجرة عواطفه .

الإنسان الغربى ليس له مشاكل ويخشى من أى شىء ، أصبح فى قمـة الاهتزاز والتوتر ومفكرو الغرب يقولونها الآن وبصراحة : نحن نحتـاج لمن يقودنا إنسانيا لا حضاريا ، وهنا يأتى الإسلام ليصحح السلوك ويعـدل الموازين ويحقق التعادل ..

وهنا تعلو أمة محمد صلى الله عليه وسلم شـاهدة على الناس .. كل الناس ..

* * *

(٤)

قضايا تراث المسلمين
.. ليس للاسلام قضية

● **الاسلام ، ماذا نعنى بالاسلام ؟**

سؤال يبدو فى مظهره مدعاة للبساطة ، ولكن من حيث المضمون والجوهر يعنى الكثير ، الإسلام كأصول ، وكما هو معروف يتجسد أساساً فى القرآن كأساس أولا وقبل كل شىء ، إلى جانب الأحاديث القدسية ، والأحاديث الصحيحة باعتبار أن هذا الجانب له طابع إلهى ، أو طابع العصمة الإلهية ، أى لا ينطق عن الهوى ، هذا فيما يعنى المصادر . وتشكل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم نموذجا لقدوة المسلم فى حياته اليومية ، فى علاقاته الأسرية والاجتماعية ، فى التعامل مع الأقربين ومع الآخرين ، مع المريد ، ومواجهة الخصم العدو . وبالتالى لا يمكن تصور الإسلام دون هذا الجانب العلمى المجسد فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

عناصر ثلاثة تطرح كما طرحت من قبل باعتبار أن العصر النبوى وهو الذى يحتوى زمانيا هذه العناصر يرمز إلى الإسلام . فهل يمكن اعتبار هذا العصر قضية تراثية ؟ قابلة للاجتهاد ، أو التحفظ ؟ أو تصحيح بعض أحداثها ووقائعها ، أو محاولة الانشاء والافتعال حولها ؟ .

نعتقد وفى اطار هذا الحوار للإجابة على هذا السؤال أنه لابد وأن نتعامل موضوعيا مع هذه الإشكالية حتى نوضح ، ومنذ البداية ، لابد من أن نشير إلى أهم التيارات التى تضارب حاليا كما ضارب غيرها من قبل تحت شعار علامات الاستفهام حول العصر النبوى ، أى حول الإسلام ، هذه التيارات يمكن أن نجملها — فيما يلى — فى ثلاث :

التيار الأول : يحاول باسم مزيد من الغيرة ، ومزيد من الحماس أن يوسع ويضيق معتمدا على جانب من الإنشاء التاريخي ليدعم رأيه . وكثيراً ما يتقدم بحسن نية ليعلن أن كل هذا محبة فى الإسلام ، وفى رسول الإسلام .

التيار الثانى : يتبنى أطروحة الحياد ، مقدماً لنا ما قيل ويقال . هذا هو القرآن وهذا ما قيل فيه . وهذه هى الأحاديث القدسية وهذا ما يقال عنها ، وهذه السيرة وهذه هوامشها . وهو فى كل هذا يرفع راية الموضوعية ، بل وباسم هذه الراية كثيراً ما يدع جزئيات صفيت حساباتها . على أن الالتزام الموضوعى يتطلب أن يعاد النظر فيها مرة أخرى ، ويعرف بها . مجرد مثال : مسألة الغرانيق العلى وأن شفاعتها عند الله لترتجى . كذلك يحاول هذا التيار أن يعرض لنا ما قدم منذ ثلاثة عشر قرناً على نفس المستوى الذى تقدم فيه معطيات القرآن الكريم من اجتهادات ينقصها عنصر المشاهدة والمعاصرة . باعتبار هذا رأى وهذا رأى . وفى ذلك تجن على الموضوعية باسم الموضوعية ، حينما لا يأخذ فى الاعتبار الفارق الزمنى ، وفاعلية المشاهدة والمعاصرة . وإننا لنتساءل هل يمكن لباحث فى القرن العشرين ، أن يكون موضوعيا حينما يحاول أن يزعزع الثقة بشكل مقنع فيما وصل إلى مرتبة اليقين ، وفى عصره لا فى عصرنا . لذا وإن كنا قد تحفظنا على التيار الأول ، آخذين عليه المغالاة فى التحمس والإنشاء ، مع تقديرنا لما له من مشاعر وحب وتوادد مع العصر النبوى ، نأخذ على هذا التيار الثانى تجاوز الموضوعية باسم الموضوعية ، حينما يسوى ويعادل بين اليقين ومجرد الاجتهاد . وهو فى ذلك أقل — بلا شك — تطرفا فى احتمائه برداء الموضوعية من التيار الثالث والأخير ، الذى سوف نتعرض له .

التيار الثالث : ونعنى به التيار الذى جمع بين شتات ذوى النيات المغرضة ، وحاجات يعقوب الماكرة ، بهدف إفراز سموم التشكيك احتماء بما تزخر به ساحة الفكر المعاصر من تجديد فى المناهج والقراءات والخطاب ، وتخصيص للمعرفة وتعميق لها . شتات التقى فيه من له حسابات راسبة يريد أن يصفيها مع الإسلام ، أو من حاقد فاقد الطمأنينة وقناعة الإيمان ، فيريد أن يعمم حقده وقلقه عن طريق إقناع الآخرين به ، وبين عميل كلف

بمهمة محددة ينال بها من الإسلام وبين شتات اتخذ حاليا من الإسلام الذى يستعيد نوره ، لا لأنه انطفأ ، ولكن لأنه تظلل بضباب سلوك المسلمين وسحب تنكرهم لجوهره مع مغالاتهم فى التمسك بمظهره .

هذا التيار ينطلق فى تحفظاته صريحة أو مقنعة من القرآن ، فمن المعروف أن الاستشراق ، ونعنى به الاستشراق المغرض لا الاستشراق البناء ، فهناك استشراق واستشراق ، عبأ كل طاقاته باحثا عن علة ولو باسم الافتعال التاريخى ، كى يبحث من خلالها التحفظ على حفظ القرآن .

فهذه فئة من الاستشراق تتكلم عن آيات قرآنية حذفت ، وهذه فئة تتحدث عن آيات أضيفت . وقت طويل ، وجهد كبير من الضوضاء وبث السموم . انتهت فى النهاية إلى الإلغاء . ومن نفس الاستشراق .

فكم من جهد لإثبات « الغرانيق » التى أشرنا إليها من قبل ، وكم بذل من جهد للافتراء ومحاولة الباس القرآن ما ألبس للأناجيل . ولكن الآية الكريمة مرة أخرى برهنت لنا على مصداقيتها : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »** (١) وبقى القرآن كما هو ، ورد كيد الكائدين لنحورهم من عصاباتهم ممن تصدوا باسم البحث العلمى لكى يفندوا هؤلاء الماكرين مرتكزين على نص القرآن فى النسخ : **« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »** (٢) وأن القرآن الكريم الذى حفظ ، بعد أن جمع وأعيد جمعه من حفصة رضى الله عنها وزيد إلى مصحف عثمان ، بقى القرآن وبفضل من دفعتهم الغيرة وعمق الإيمان ، بقى القرآن كما كان ، توالت القرون والعصور وتعددت الأزمنة والأمكنة ، وبقى القرآن صامداً يعبر التاريخ مرتلا بألسنة المؤمنين ومحفوظاً فى قلوبهم . وها نحن اليوم ، وقد انقشع غبار وضباب هذا الافتعال حول القرآن ، نشاهد أن فئة الحاقدين ومجموعة الشتات غيرت الموقع ، ونوعت المنهج ، وعدلت من اختياراتها وأهدافها . فاتجهت بعد أن خسرت معركة القرآن إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ملهمة القدسية أو صحيحة فى محاولة لافتعال إشكالية القرآن .

---

(١) الحجر : ٩.　　(٢) البقرة : ١٠٦

الحديث القدسى ، والحديث الشريف الصحيح ، عرف من البداية القلوب المحبة الساهرة على متنــه وســنده . ومازالت الروائح العطرة تعم ســماء الجزيرة بعد رفع روح الرسول إلى الرفيق الأعلى . وهكذا حملت إلينــا علوم الحديث ومدارسه ومصطلحاته أصداء هذا الجهد العملاق الذى بذل من المحدثين ومن رواه الحديث . وكيف أن من غاروا وأحبوا الرسول أفنى البعض منهم سنوات طوال ليتأكد من جملة واحدة وردت فى متن حديث ، أو ليؤكد سنداً من الأسانيد ، ما عرف البحث والتدقيق مثلما عــرف لدى أصحاب الصحاح والسنن . ومن ثم لم تمض قرون ثلاثة حتى كانت المعايير النهائية لما هو صحيح ، وما داخله الوهم ، أو الوضع ، وتخصص المحدثون وصاغوا مصطلحات التقنين والتقويم . وما حاولوا أن يتقولوا مهــما كانت الأسباب بكلمة لم يتأكد صدق قائلها من الرسول .

أين نحن من هؤلاء ؟ هذه الأجيال التى جمعت بين عمق الحب والغيرة وقدرة الصبر والإصرار . كل هذا من أجل رسول الله عليه السلام . لصيانة ما قال وهو النبى المعصوم .

من أين لنا أن نساوى بين هذا المحدث القريب مكانيا وزمانيا من عصر الرسول . والقريب عاطفياً وإيمانياً من ذاته الطاهرة ، ولا يضــن بوقتــه وزمانه ، وبين هذا البعيد بزمانه ومكانه ، بعواطفه ومشــاعره ، البخيــل والمختزل لوقته ؟ .

ولهذا إن كان للحديث قضــية فهى قضــية المفتعلين لهــا ، قضــية الحديث ، الأحاديث الثابتة الصحيحة من الأولى أن ننطلق منها وعلى ضوء ما وضع من أسس ومعايير لدى المحدثين ، لنكمل فيما تبقى للأحاديث التى داخلها الوضع أو الوهن . وبالتالى تصبح قضيتنا بيننا وبين من حاولوا أن يطرحوا أحاديث لم تأخذ بمعيار الصــحة من رواد المدرسة الحديثيــة فى المشرق والمغرب : من البخارى وأصحاب السنن والموطأ والقاضى عياض وابن عبد البر ، وعبد الحق الشبيلى والقائمة طويلة . أحاديث الرســول الصحيحة والقدسية أمنت ليس فقط فى التحقق من سندها ، وإنما بالغيرة والحب لصيانة متنها لما فيه من طهارة وإجلال وإكبار .

بقى علينا ، السيرة العطرة ، وهل لها من قضية ؟ حتى يضارب البعض عليها الآن بأسماء متعددة ، مرة باسم المصادر ، وأخرى باسم اليوحنات الأربع ووثائقهم وما حولهم ، وثالثة فى محاولة لاستغلال بعض مراحلها . فى أغراض وتأويلات ، كلها تهدف إلى غاية واحدة . وهى بعد أن تأكد الإفلاس والفشل فى خلق أو افتعال قضية للقرآن ، سعت إلى تصنع وافتعال قضية للحديث الصحيح وباءت أيضاً بالفشل . فجاء دور السيرة للرسول صلى الله عليه وسلم الذى أكد بشريته القرآن لتصيد واقعة من هنا أو من هناك ، لنفخها وتضخيمها وغاب عنهم أن هذه الواقعة أو هذا الحدث إنما هو لرسول بشر ، يؤكد وقوعها موقفا أو سلوكا يقتدى به لبقية البشر . ولا يمكن لرسول الإسلام أن تجسد فيه الألوهية كما جسدها غلاة المغمضين لعيسى فى المسيحية .

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عبر مراحلها المختلفة واضحة المعالم فى كل مرحلة عبرة ، وفى كل موقف عظة ، ولكل سلوك معنى وهدف . طفولة الرسول كشبابه ، بعثه وجهاده وتبليغ رسالته ، سيرة لا يطعن فيها إلا الباحث عن الطعن بعد أن طعن ليصدره للآخرين .

سيرة الرسول بدورها وجدت من السلف الصالح انطلاقا من أصحاب رسول الله وأتباعه وأتباع أتباعهم ، ما يسهر على كل صغيرة ، وعلى كل جزئية تتعلق بالذات الطاهرة . ومن هنا كان الثراء والوفرة فى المعلومات التى حملت إلينا عن سيرته عليه السلام ، وحرص هؤلاء على أن يقدموا لنا ما هو قابل لأكثر من رؤيا ورأى ، كما هو ، دون تفريط أو افراط . وجاء الخلف بدورهم ليكملوا مسيرة السلف فى سيرة الرسول وأفرد له العديد من مؤلفات ومؤلفات طابعها الرزانة والاتزان والحرص والأمانة . حتى جاء عصرنا يغص بقضاياه ، وحاول أن يصدر كما هو شأنه بالعصور الأخرى ما فاض من هذه القضايا وما طغى ، وهكذا رأينا فى وقتنا هذا باسم إعادة النظر ، وإعادة القراءة ورؤية الهوامش وهوامش الهوامش ، قضايا بدورها ، من الأولى أن تنعت بأنها قضايا عصرها ، بدلا من أن يلقى بها فى عصور الآخرين ، وتوسع مفتعلو القضايا بعد أن أعيتهم الحيل ، بعد شهادة ابن الدار

المعاصر لها ، الاستشهاد بالخصم والعدو . وهكذا كانت قضية اليوحنات وما حولهم .

فقد حاول البعض تحت مسميات القراءة الجديدة ، أو الرؤية العلمية لإعادة صياغة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستشهد بمصادر بررها بقدرة المعاصرة ، وهى فى جملتها مصادر من الخصم ، وذلك لأن ما قدم عن السيرة — تحت راية الإسلام كأنه لم يأخذ بعين الملاحظة ما أخذته هذه المصادر ونعنى بذلك مصادر ركز عليها خاصة الاستشراق الألمانى والإيطالى من أمثال « كيتانى » وغيره . ونعنى بها وثائق كتبت عن العصر الأول . منها وثائق « اليوحنات » كمثال : يوحنا النيكى ، ويوحنا « الكلدونى » ويوحنا الدمشقى ، ويوحنا بنكاية (بن كاية) وغيرهم ... وذلك باسم الزعم أن الوثائق الإسلامية جاءت متأخرة كتدوين عباسى بينما هذه المصادر تتمتع بالمعاصرة المباشرة . وكأن اليوحنات كانوا من حوالى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته فمن المعروف أن لكل منهم خلفية تضمر للإسلام ما تضمر ، ولا يمكن أن يأخذ الخصم بمعيار الحكم . ومع هذا يلاحظ أن حتى هذه الوثائق ، احتوت فيما احتوت على اعتراف وتأكيد لوجود الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وفتوحات الإسلام ، بل وانتصاراته . أما ما تحمل — أو بعضها على الأقل — من فضلات التقىء ونفايات الحقد . فهذه لا يمكن أن تؤخذ بمعيار الجدية على أى حال .

إن غيبة العلمية لا تعادلها إلا المغالاة والإفراط باسمها للاحتماء بصفاتها لتقديم افرازات الضغينة والكراهية . العلم والدين قضية كبرى علينا أن نراها بموضوعية : هل يمكن للعلم أن يتحول إلى سيف مسلط يستغل بمناسبة وبغير مناسبة ليحمله أى غادر أو حاقد ويطعن به من يشاء معتبراً أنه لا سيف يعلو على سيف العلمية .

قد تكون مناسبة أن نطرح حدود وإمكانات العلم بالنسبة لمثل هذه الأمور الهامة ، ومثلها الدين وبصفة خاصة الإسلام كأصول قرآنية . تتمتع بالوحى الإلهى والأحاديث الصحيحة يتمتع قائلها بطهارة العصمة ، لا ينطق عن الهوى وسيرة مكرمة يعتز بها كل مسلم .

من البداية وكما نكرر دائما نستبعد أن يحل العلم محل الدين والعكس أن يحل الدين بدل العلم . كما نتحاشى بالضرورة أن نبرر صحة وصلاحية الدين بالعلم ، وإن كان من الممكن أن يتدخل الدين بالعكس ليحتكم إليـه فى مدى صلاحية ومسيرة العلم بالنسبة للإنسان .

ونميل إلى طرح العلاقة بين الدين والعلم على مستوى مدى التوافق أو التنافى بينهما . أما إننا نستبعد أن يحل العلم محل الدين ، فهذا وإن كنا نعيشه آنيا ، إلا أنه أكد مدى استيلاب الإنسان بالاستهلاك ، حينـما تتقلص وتتقوقع رؤياه منه وإليه ، حتى ولو ارتضى هذا المصير الاستهلاكى فسيظل فى أعماقه شاعراً بأنه اختزال البراهين . وأن ما اعتمد عليه فى إلغاء الدين لا يتجاوز موقع أقدامه . ويكفيه أنه فى كونه الصـغير الذى قاس عليه الكون الأكبر ، لا يتجاوز مخلوقا هامشيا يعيش فوق ضاحية بدورها مهمشة فى نظام شمسى يتحرك فى مسار ومدار مهمش ، وما تبقى من الكون يتحداه بمجراته ونظمه ، وما خفى كان أعظم . هذا التبجح إن كان يستجيب مع مشاعر بعض المرضى ممن يتعاملون مع الخالق الأعظـم على مسـتوى المقاصة والثأر . فهو بالنسبة للمفكر بعمـق يدفع إلى التروى ومزيـد من التأمل .

ولذا فحتى يحل هذا العلم محل الدين ، والذى أوحى به ، على هذا العلم أن يؤكد لصاحبه أنه قد تمكن من أن يجول فى هـذا الكون شرقا وغرباً ، جنوباً وشمالا ، وعبر كل المجرات والكوثرات . ومن لم يعثر للإله على أثر . فعاد وانكب على الأرض ليعلن أنه البديل .

ولكن قد يتساءل بعض الخبثاء ، من بائعى الكلم ، إننا نطلب المستحيل للبرهنة على غيبة الدليل . نقول لهؤلاء :دعونا من الكون الأعظم ولتكتشفوا لنا الكون الأصغر . اكتشفوا لنا إذن سر الإنسان لا سر الكون ! .

الإنسان كجسد ، كجسم ، لم يعطه حوار السماء من الأهمية أكثـر مما يستحق فهو مجرد وعاء . ولذا نجد فى القرآن ندرة التحدث عن الجسم أو الجسـد (مرتين أو ثلاث) ودائمـاً فى إطار التهـكم المتواضـع

« **تعجبك اجسامهم** »(٣) ، « **عجلا جسداً له خوار** »(٤) .. بينما الإنسان كسر ، بمعنى نفس واصل به الاستشهاد فى القرآن إلى المئات ، وكان دائماً موضع التحدى والتقنين .

« **وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون** »(٥) .. وحدد لنا النفس المطمئنة والراضية والأمارة بالسوء وهى التى تسوى « **ونفس وما سواها** »(٦) .. وهى التى تفلح وتخيب إلى غير ذلك من الاستشهادات الخالدة .

سيظل هذا الإنسان ما لم يكتشف سره الأعظم ــ وهو النفس ــ سراً من أسرار الله وإلا فلماذا لم يستطع هذا العلم العملاق ، وقد تعرف على قوانين الجسد أن يتحكم فيه فيقصر فيه ويطيل . فالعكس هو الصحيح . لقد لوحظ أن الذين انكبوا على التعميق فى دراسة أسرار النفس راحوا ضحية لهذا السر : فمن المعروف أن المعالجين للنفس هم أكثر الناس مرضى بها (مثال : مأساة « مولينو » وانتحاره والقائمة طويلة) ..

لهذا نستبعد قدرات العلم المنتفخ ، ونتقبل معطيات العلم المتواضع الذى هو تكريم من الله للإنسان « **اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم** »(٧) .. وهكذا نستبعد إحلال العلم محل الوحى الإلهى . فيما يعنى هذا الوحى ، فعلى العلم كما كرر أحد رواده « هربرت سبنسر » ــ فيلسوف النظرية التطورية ــ أن يبقى حيث هو فى اختصاصاته ، ويترك للأديان الفتوى فى الغيبيات على أن يتم العكس أن تترك الأديان للعلم أن يتحرك فى نظريته دون مضاربة على الغيبيات ، ومن ثم فمن نفس المنطلق لا نسيل أن يحل الدين محل العلم ، وتتحول المبادىء الخالدة والقيم العليا لإنقاذ الإنسان إلى مجرد أسس لتجارب مخبرية ، ومجرد فرضيات يحتكم عليها فى المعامل قابلا للتصويب والتخطىء . إن الدين أسمى من أن يتحول إلى فرضية لمخبر أو معمل فهو لم يأت لإجراء تجربة مخبرية ، وإنما جاء لإنقاذ التجربة الإنسانية بأكملها .

---

(٣) المنافقون : ٤
(٤) طه : ٨٨
(٥) الذاريات : ٢١
(٦) الشمس : ٧
(٧) العلق : ٣ ــ ٥

يبقى تساؤل إذن ، وهو ما يتبناه البعض باسم الهدف والغاية من الحياة . ونعنى بذلك ما يردده البعض من أن الغاية من الحياة والخلق عبادة الله . « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » (٨) .. لا شك أن هذه هى الغاية المثلى . أن اتفق عليها الجميع فى هذه الأرض . ولكن كيف يمكن لمتعبد فى صومعته أن يعيش بين الذئاب الكاسرة فى غابة الكون حالياً ؟ هل يتركونه لعبادته وخشوعه ؟ أم ينقضون عليه فى صومعته ، وقد عجز عن الدفاع عن نفسه بعلم العصر — أى بسلاح العصر — فيحولونه إلى مجرد مسخر أو رقيق ؟ وإننا لنبرأ بعباد الله أن يكونوا عبيداً لمن خلق ، ويستعبدوا فى الأرض وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » فلا مجال إذن ، للتنكر للعلم باسم رهبنة لا موضوع لها . الدين — والإسلام بالذات — نصح ووجه وشجع الدعوة للعلم ، وقدر العلماء وأعلى شأنهم فإحلال الدين محل العلم مردود ، لا باسم عدم الصلاحية ، وإنما باسم ضرورات العصر ومتطلبات الدفاع عن الذات .

تبقى بعد هذا قضية التبرير ، من يبرر من ؟

يحاول البعض بحسن نية ، والبعض الآخر ، والله أعلم بالسرائر بنية سيئة أن يحتكموا إلى العلم ، بمناسبة ، وبدون مناسبة ليدافعوا عن دين استساغوا له الهزيمة ، وأنه فى حاجة لمن يحميه ، ومن يثبت له صلاحيته . وحتى يقبل مبدأ من مبادئه لابد من أن يسمح العلم بتمريره . هذا ادعاء مغشوش ، فلا يمكن لعملاق أن يحتكم للتأكد من قدرته بحيثيات قزم ، الوحى الإلهى بما له من صلاحية لكل زمان ومكان أسمى من أن يحتمى فى علم يخطىء ويصيب ، بل كثيراً ما يخطىء ذاته فى مرحلة تالية . لو أننا قبلنا مبدأ « البرهنة العلمية » ثم تأكد فى قرن تال خطأ هذا العلم من أساسه ، كيف يكون مصير ما برهنا عليه ، بعد أن تجاوزته الأحداث . هل علينا أن نحذف الآية موضع البرهنة ؟ أم نحرفها ؟ أم ننسخها ؟ ، وقد ولى زمن النسخ ، ثم ماذا ؟ ..

---

(٨) الذاريات : ٥٦

لذا قضية تبرير الدين باسم العلم ، بالنسبة لمن يضاربون عليها بحسن نية نقول لهم : رفقا ، فالقرآن ليس ملك لعصرنا وإنما وحى لكل العصور .. ليتمهلوا ، ولا يصلوا بالتبرير والبراهين لحد القطع والتحكيم النهائى ، حتى يتركوا للأجيال القادمة حق الاجتهاد بمعطيات عصرها ، ولم لا بعلم عصرها ؟ .

أما تبرير العلم باسم الدين فهذا بلا شك قد يطرح بالفعل حاليا حيث تحاول بعض العقول الماكرة أن تستغل قدرات العلم باسم الإنسان لتدمير الإنسان (علوم الحروب البيولوجية + علوم الصواريخ + علوم الحروب الهيدروجينية) كل هذه التخصصات التى تكثف تلوث الإنسان لا إشراقه وإشعاعه ، وتعمم طغيانه بدلا من عدالته وبره ، يمكن للدين أن يتدخل ليدلى برأيه فى مدى صلاحيتها وأحقيتها فى المشروعية والبقاء .

ونلاحظ فى السنوات الأخيرة من هنا وهناك ، صيحات صاح بها حتى « بابا الفاتيكان » فى خطاب له منذ سنوات حين حذر من خطر العلوم المدمرة « وشهد شاهد من أهلها » ..

ومن ثم فالدين يمكن أن يتدخل ليحتكم إليه لتبرير أو عدم تبرير مسيرة علم بمقدار عطاءه الإيجابى للإنسانية .

وبعد هذه المواقف الأربع بين الدين والعلم والعلم والدين إحلالا أو تبريراً ، نرى فى النهاية أنه يمكن للدين والعلم أن يتواجها موضوعيا للتعرف على مدى التوافق أو التنافى ، وذلك دائماً لما فيه إسعاد الإنسان والمجتمع . فالدين لازم كما يرى « سان سيمون » ضرورة للإنسان وتأصيله بقدر لزوم العلم فيما يعنى مستقبله وانجازاته . أما كيف يلتقيا أو يتنافيا ، فهذه مطروحة فعلا ، على أن يكون الحكم فى النهاية للواقع الملموس دون خلفية أو غرضية ــ الواقع الملموس آنيا ، وبعد أربعة عشر قرنا من وحى الإسلام كشمول ، وكمال لكل الأديان ، يمكن أن يملى علينا موضوعياً التطلع للإجابة على تساؤلات يطرحها ابن القرن العشرين بعد أن نسلم بقدراته العلمية حول القرآن والأحاديث الصحيحة والسيرة لنكتشف مدى توافق أو تنافى منظور الإسلام مع منظور القرن العشرين . هل اكتشف

ابن القرن العشرين ثقوباً أو شروخا فى هذه الأصـول الخـالدة بعد هـذه المسيرة التاريخية أم العكس فى كل يوم تزداد القناعة بمصداقية القرآن والحديث ومصداقية سيرة الرسول كسلوك وقدوة . ولم يستطع العـلم ، ونعنى به علم الإنسان أن يسجل أى هدف أو ينال من أصول الإسـلام . اللهم إلا ما افتعل من قضايا لحاجة فى نفس يعقوب ، حاولنـا أن نصـفى حساباتها تحت شعار « ليس للإسلام قضية » .

ويبقى التوثيق فيما يعنى سيرة الرسول عليه السـلام .

لقد غاب عن أدعياء هذه المقولة المغشوشة أن سيرة الرسـول عليـه السلام وأحاديثه لو أنها حفظت فى حينها كما حفظ القرآن ودونت لكانت فعلا الآن قضية كبرى من قضايا الإسلام حينما يدون كل صاحب هـوى على حسب هواه ، ويكتب كل صاحب انتماء انتمائه على أنه انتماء للإسلام . لهذا نعتقد أن وراء صيانة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته فى القلوب بدلا من تسطيرها فى الكتب معجزة تضاف إلى سلسلة المعجزات .

لقد صانت القلوب بغيرتها وحبها كل دقيقة من دقائق حيـاة الرسـول صلى الله عليه وسلم وكل كلمة من كلماته . ومن ثم ، فيقين القلب وطمأنينته وحبه أكثر رصانة من سجلات يفتعل فيها التاريخ باسم التاريخ . ولهـذا لبس لسيرة الرسول وأحاديثـه « أناجيـل » ، كل يكتب انجيـله حسب ما يتراءى له ثم تتطاحن الأناجيـل فيـما بينهـا ، أما القلوب فقد تلاقت بما صانت ، وسهرت على السند والمتن كما سهرت على صيانة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كقدوة لكل مسلم .

التوثيق هنا لا يطرح لأن ما وفقته القلوب وصانته الأفئدة لم يتبـادر إليه الإنشاء والتصنع . وإنما ظل بصحيحه وسننه ، وبتكامل مصادره صورة صادقة على مدى وفاء علماء الإسلام للإسلام من محدثين ومفسرين وفقهاء .

وهكذا لم تتوقف مسيرة الإعجاز من الإعجاز البيانى بصفاء القـرآن وقدرته ولسانه والإعجاز الفلسفى حين التجاوز مع الفلسـفات المتداخلة والغازية من حسن توظيف لها وتجاوز قادر ليصل بنا موكب الإعجاز إلى

مرحلة العلم والمنهج فى النهضة الحديثة المعاصرة ، وفى كل مرة لا يتهـرب الإسلام من المواجهة وإنما يتصدى لها بكل عطاء وتفتح وتظـل ، ويظـل الاحتكام إلى الصلاحية هو المعيار للإعجاز .

الإسلام أكد إعجازه بمواجهته البيانيـة ، وكانت له الصـلاحية وفى الإعجاز الفلسفى كانت له الصلاحية ، والآن الإعجاز العلمى والمنهجى يطرح نفسه محاولا أن يتزيا بزى قضية للإسلام ، وسوف نجمل ، وبنفس الإصرار كيف أن الإسلام يمكنه أن يواجه تحت راية الصلاحية العلم بقدرات العلم والمنهج بقدرات المنهج ليثبت ما يتحلى به من خلود وفاعلية ماضياً وحاضراً ومستقبلا ، وأنه ثابت يتجاوز ولا يتجاوز .

ولنبدأ بالماضى ، ومعجزة النبوة لنواجه العلم باسم العلم ، والمنهـج باسم المنهج ، ومعجزة النبوة ، حينما تتواجه مع العلم وباسم المنهج وتواجه نستبعد من الأساس المواجهة باسم العلوم التجريبية ومناهجها . وذلك لأن النبوة لم تأت لمناصرة تجربة كيميائية أو فيزيائية ، واكتشاف قانونها ، أو إعطاء دروس فى علم وظائف الأعضاء ، وإنما جاءت لتحقيق هدف أسـمى وأنبل ألا وهو إنقاذ الإنسان من الورطة بعد أن ترسم له الطريق السـوى فى دنياه ليحسن مآله . ومن ثم فإن كان لها ما تواجهه كما نكرر دائمـاً ، فلتواجه علوم الإنسان ، (لا العـلوم التجريبية) التى تزعم أنهـا جاءت لدراسة سلوك الإنسان والتعرف على نفسـيته ، وصـياغة تراثه ونتاجه بهدف أن تعطى له الحركة التاريخية الواعية التى تدفعـه من حسـن إلى أحسن ، وترتقى به .

ومع هذا لا نتساءل ، قبل أن نطرح المواجهة مع علوم الإنسان ، هل استطاعت العلوم التجريبية أن تكتشف عورة فى علوم الإنسان ؟ فى قرآنه ؟ وفى أحاديثه القدسية والصحيحة ؟ هل هناك نص خطأته الاكتشافات التى استجدت فى العلوم الفيزيائية والبيولوجية والفزيولوجية والكيميائية بصفة عامة بعد أربعة عشر قرناً من التطور ؟ أم مازالت المبادىء المبسـطة التى طرح القرآن من خلالها نشوء الإنسان حتى يومنا هذا ، وحتى إشعار آخر

تتميز بصلاحيتها : النطفة ، العلقة ، والمضغة .. ثم سويناها ، كما هو معروف فى الآية الكريمة ؟

لم تستطع ـ باختصار ـ العلوم التجريبية أن تسجل إصابة تؤخذ على القرآن أو الحديث الصحيح والقدسى . ولذا فلا نكتفى فقط بأن المواجهه معها مغلوطة ، وإنما حتى لو وجهت لأصوله ، ليس للإسلام ما يخشاه . بقيت علوم الإنسان ، وكيف تتم المواجهة ، فيما يعنى معجزة النبوة فى الماضى والحاضر والمستقبل . ولنبدأ بالماضى ! .

* * *

لقد جدت تخصصات هامة فى الدراسات الإنسانية ، ونضجت تخصصات أخرى ، مما يؤكد لنا إشراق الذهنية المعاصرة ، وتعدد عطائها . فإلى جانب العلوم الإنسانية التى عبرت مسيرة الحضارات المختلفة : كالتاريخ بشتى فروعه ، وما يعرف الآن بالجغرافيا ، وما حولها من أوصاف البلدان . هناك تخصصات تبلورت فى الفترة الحديثة والمعاصرة ، وأخذت طابع القدرات الأصيلة فيما يعنى تفهم الإنسان وفهمه ، كاستمرار تراثى ثقافى واجتماعى كالانثروبولوجيا . بما فى ذلك التاريخ الطبيعى وأعرافه وتقاليده وعاداته . أو تفهم الإنسان وفهمه فى أغواره النفسية : سيكولوجيا ، أو تفهمه فى علاقاته وبيئته وبنياته المختلفة كالسوسيولوجيا أو دراسته ككم وحجم : الديموغرافيا .. إلى آخره من التخصصات التى تتعدد حاليا وتتنوع ، تحت شعار علم الإنسان وعلوم المجتمع . هل فى استطاعة هذه العلوم المستجدة ، وبما لها من قدرات وصفية وتعليلية وتخريجية . وما لها من منهج وطرق بحث أن تضيف أو تأتى بما يؤثر فى مصداقية معجزة النبوة أولا فى الماضى . وحينما نذكر الماضى تتصدر الدراسات التاريخية والأثرية والانثروبولوجية بصفة عامة . هل فى استطاعة المتخصص فى علوم الإنسان ، أن يتجاوز معجزة النبوة وينفيها . بحيثيات موضوعية دون مزايدات كلامية ، أو تضاربات عفوية ؟ أم أن هذه العلوم ، لو احتكم إليها فى مدى مصداقية معجزة النبوة ماضيا لأكدت لنا ، وبكل تواضع أنها تؤيد معجزة النبوة ولا تنفيها ؟ ، وسنوضح لماذا ؟ لأن المعجزة تمت تاريخيا ومرت عليها

قرون ، وبالتالى من الصعب على ابن القـرن العشرين ، وبعد ثلاثة عشر قرنا وأكثر فيما يعنى الإسلام أن يزعم الاستدلال أو البرهنـة انطلاقا من التجريب والمشاهدة فالمنكر والمؤيد كلاهما أصـبح أثرا تاريخيـا ، ومن المستحيل استنطاقه بشكل مباشر أو اسـتجوابه . ولـكن تبقى حيثيـات المشاهدة لمن عاصروا النبوة ، وواجهوها منكرين لها فى البداية ، ثم متعاطفين ومؤيدين ، بل ومستشهدين فى سبيلها . فكيف تهون الحياة على إنسـان ، ليس له قناعات بما يضـحى من أجله ؟ أيهما نصـدق ؟ هـذا الذى عاصر وشاهد معجزة النبوة ؟ أم هذا المزايد والمضارب الذى لم يشاهد شيئاً ، وإنما يتشدق فى داخل جدران مكتب أو قاعة مكيفة بأن معجزة النبـوة لا وجود لها ؟ .

إن البحث العلمى دائماً يستنطق ويسـتجوب من شاهد ولاحظ ، ولا يستنطق الغائب والمجهول ، وإلا فيسـتحول العلم إلى غيبيـة معتمـة ، لا ترى حتى ما تحت أقدامها . أيهما نصدق ؟ من أنكروا فى عصر النبوة ، فى البداية ، ثم أشرق النور فى قلوبهم بعد أن كرروا ما يكرره جهلاء القـرن العشرين ، من أدعياء التحدى بقولهم « **ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر** » (٩) .. ومن ثم ، فإن كان لابد من اختيار بين اللائيين فى هذا القرن أى القائلين لا للنبوة . واللائيين فى عصر النبوة . فمن الأولى أن نطلب شهادة من شهد من أهله« **وشهد شاهد من اهلها** » (١٠) **إن شهادة** المعاصرين للنبوة وقد حملت إلينا بكل أبعادها . لا تدع مجالا لمحترف زيف وبهتان أن يزعم انطلاقا من عفوياته . إنه اكتشف غيبة معجزة النبوة . علوم الإنسان إذن ــ وتتصدر فيها الدراسات التاريخية ــ تقدم حيثيات ودلائل لإعجاز النبوة لا نفيها . وعلوم الإنسان فى الحاضر هل فى إمكانها أن تتحفظ على ما فى النبـوة من إعجـاز . وتعطى بديلا قادراً على الإحـلال باسـم الإنسان . لقد حاولوا فعلا من خلال حضارة الغرب ، حضارة البدائل أن يتجاوزوا إعجاز الأنبياء بإعجاز الإنسان ، منه وإليه . ومهدوا لذلك بمسيرة كبرى من التحفظ على الميتافيزيقيا والفكر التجريدى ، إلى استيعاب المعارف

---

(٩) الجاثية : ٢٤ (١٠) يوسف : ٢٦

فى عصور الأنوار بعد موجة من التمرد والاحتجاج ، فى محاولة بديلة باسم فلسفة الأرض بفلسفة السماء . وكان دعاة الوضعية والتطورية والداروينية والماركسية ، والوجودية اللائيـة اللاروحانية . هـذه المحـاولات قدمت للإنسان المعاصر فلسفة ، بل فلسفات ، ومذهبا بل مذاهب ونظرت له وحددت له هدفا وغاية وهى الإشباع الاستهلاكى ، ومزيداً من الإشباع وارتكزت على الأسس العلمية والتجريبية والمعرفة التكنولوجية لتروج بضاعتها ، ولم تنس الإطار الجذاب الذى تضعه حول كل هذه المعطيات لتقبل وتستساغ ونعنى بذلك الإنسانية . باسم الإنسانية والدعوة إليها باسم الإنسان الذى تحرر وتمرد ، واعتمد على ذاته . متخليـا عن كل ما هو غيبى ومجهـول . ها نحن اليوم ، وفى نهاية القرن العشرين يحق لنا أن نتساءل : هل فعلا هذه البدائل وهذه الغـاية التى خطت للإنسـان المسـتهلك ، هـل أشـبعت الإنسان أم أفقرته ؟ وهل أسعدته ، أم أشقته ؟ لنواجه بينها وبين معجـزة الأنبياء . والإسلام هو الذى يعنينا . الإسلام نظر للإنسان . نعم منذ أكثر من ألف عام . الإنسان فى كل زمان ومكان . نظر له ككيان متعدد الإشباع غرائزيا ونفسيا وعقليا وروحيا . وأعطى أولوية لإشـباعه الروحى والنفسى والعقلى دون أن يغفل إشباع الغرائز ، دون مغالاة أو إفراط . نظر له كفرد وكأسرة وكجماعة وكطبقة وكأمة فى بساطة ومباشرة فيما يعنى مرجعية الإحالة أو الشعائر والتطبيق وأعطى تعليلا موضوعيا لمسيرة الحياة بأنها بلاء دون أن يتهم بالوجودية . فهى بلاء واختبار ، ولكن بهدف ، وهى كد وكدح ، ولكن دون عبث أو غثيان . أعطى للإنسان صورة واضحة عن وجوده حتى لا يتزيف ويزيف بمتاع الدنيا وزخرفها . وكان دائماً يذكره أن هذه الدنيا هامة ولكنها مدخل لما هو أهم . الإسلام نظر للحاضر وعلينا أن نقارن بين تنظيره وبين ما قدمته بدائل وعلوم الإنسان فى حضارة الغرب . لن نطيـل فى الإجابة . بل سنكتفى بمثال :

بقدر ما أشبعت حضارة الغرب مظهرية الإنسـان ، ورخاء ورفاهيـة جسده بقدر ما سلبت منه روحه ومشاعره ، بل ومثـله العليـا . فما عرفت البشرية غشا منضبطا وزيفا مخططا وأكاذيب منمقة كمـا تعرف الآن باسـم التكتيك والاستراتيجية فى عالم تحول إلى غابة كبرى ، لا يفترس فيهـا

القوى الضعيف بوحشية كما هو الحال فى كل الغابات . وإنما يتلذذ بافتراسه رويداً رويدا . ويتشفى فى آلامه ، مذرفا دموع الغش كبحيرات من الأكاذيب . أين المشاعر الصادقة ؟ وأين الوفاء ؟ وأين التضحية ؟ وأين البر ؟ وأين الإحسان ؟ وأين الإخاء ؟ وأين ؟ وأين ؟ .. كما قال الشاعر العربى :

نعيب زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان إذن هجانا
يعاف الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضا عيانا

بعد دمعة كاذبة فى مسرحية فيما يسمى لعبة الأمم ، أو هيئة الأمم أو غار أنبياء الأكاذيب ، وحواريى التضليل . إن الإسلام يفخر فى هذا العصر ، فى الحاضر أنه يقدم بديل البديل فها نحن اليوم نستمع وفى كل مكان إلى صيحة المعاناة النفسية التى أصبحت وبائية فى الكون . كون الملذات والاستهلاك والتلوث وسماسرة الحروب وأدعياء الفتن ومروجيها . صيحة هذا الإنسان الذى تحول إلى إنسان آلى ، لا مشاعر ولا عواطف ولا قيم بل ولا دين . إنسان الحبوب المنومة والمهدئة والمقوية والمنهية — أى بها ينهى الحياة — تسهيلا للخروج من مأزق وجود افتعله حسب هواه ، وغاب عنه مصداقية الآية الكريمة : **« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون »** (١١) ..

معجزة النبوة بلا شك تطرح نفسها من جديد كثورة لاستعادة الإنسان الذى ضل بسلوك خلاق يصحح له تطوراً يدفعه إلى المأزق والطريق المسدود ، الإسلام كمعجزة نبوية يتحدى فى الحاضر بقيمه الخالدة التى تؤمن للحائر والضال كيف يتعادل دون تفريط أو إفراط ؟ فى مأكله ومشربه ، فى نومه ويقظته ، فى لباسه ومعاشه ، فى حبه وكراهيته ، فى التوفيق بين غرائزه ومشاعره ومصالحه ؟ .

نعم معجزة النبوة حاضرة فى الحاضر كما كانت ثابتة فى الماضى . ويبقى المستقبل . الإسلام معجزة النبوة فى المستقبل هل يمكن لعلوم الإنسان أو حتى العلوم التجريبية أن تزعم أنها تجاوزت معجزة النبوة فيما يعنى

---

(١١) المؤمنون : ١١٥

الكشف عن أسرار المستقبل وأسرار الكون . ومن باب أولى خالقه . دون إطالة حتى هذه اللحظة وحتى إشعار آخر . المستقبل فى علم الله . وإلا ليأتونا بهذا العالم أو هذا العبقرى أو ذلك الفيلسوف الذى استطاع بعد أن فارق الحياة كما فارقها هذا الإنسان البسيط العادى أنه عاد إليها ، ليحدثنا كما كان ينتظره فى المستقبل أو ما حدث له بعد الرحيل . المستقبل رغم كل ما تقدم فى إطار علوم الفضاء يظل دائماً نقطة الاستفهام . وهذا العالم الغيبى الذى لا يمكن أن يقرأ إلا باسم الذى خلق .

بل وسر الكون الذى نعيش فيه هو : هذا الإنسان ، سر شامل لو أننا نظرنا إليه من خلال قدرة الإيقاع والانتظام ، لا من خلال المجازفات التى تتم على بعض الجزئيات ، وصف جسد الإنسان وشرح . كما وصف الكون بمجراته وممراته ونجومه وكواكبه ، ومع هذا تظل الطاقة التى تحرك الإنسان وتنطفىء بموته ، والطاقة التى تسير الكون بعلم خالقه السر الذى يتحدى ، وما علينا وحتى إشعار آخر إلا أن نتواضع ونتفهم لما أوحى به للأنبياء والرسل وما وضع من ضوابط لما يجوز وما لا يجوز . ضوابط للممكن والمستحيل .

وهكذا ، معجزة النبوة ماضياً وحاضراً ومستقبلا تبقى معجزة خالدة وعلى علوم الإنسان أن تتواجه معها من منطلق تفهمى بعيد عن المضاربة والافتعال . وهذا ما حاولنا أن نطرحه عبر هذا التدخل من الحوار .

وعلينا فى النهاية أن نتساءل قبل أن نجمل ما انطلقنا منه وهو أن ليس للإسلام قضية فى التراث ، فالإسلام قناعة ويقين ، الإسلام كوحى وكأحاديث صحيحة وقدسية وكقدوة بسيرة الرسول عليه السلام ، من الأولى ألا يطرح فى جو من الافتراضات المغشوشة ، وإنما يوضع فى مكانه الحق وهو دين سماوى وحدانى شامل لمسيرة هذه الوحدانية ، مصداقا لكل ما سبقه من رسل وأنبياء ، يهدف إلى أن ينقذ هذا الإنسان صاحب الرسالة الذى حملها . وعليه فافتعال قضية للإسلام علينا أن نبحث عن تعليلها فى عقول واضعيها وصانعيها . لأن المسلم فى القرن العشرين كما هو الحال بالنسبة للمسلم فى كل القرون هو مؤمن بالله ، مصدق لذلك بعمله ومطبق لشريعته

وشـعائره ، إن كان لابد من أن يكمل ويضيف ، فعليه أن يبـدأ من حيث انتهى من سبقوه فى الإيمان واليقين من السلف . فهو مرتل للقرآن ، خاشع فى ترتيله متدبر ومتفهم لمضامينه ومعانيه ، متقبل لها . وهو مردد لأحاديث رسول الإسلام ، مقتد بسلوكه ، وعليه ــ وقد مكن بعقله وفكره وبصره وبصيرته ــ أن يضيف إلى اجتهاد من اجتهدوا فى أحاديث رسول الله . وفى سيرته ، لا ليعتم ما أضيء ، وإنما ليلقى البصيص من الإشعاع المعرفى على ما بقى موضع تساؤل بالنسبة للأحاديث التى لحقها الوضع أو الوهم ولم تتأكد صحتها . ولاحقها الضعف فى المتن أو السند . كما أن عليه أن يتأمل فى سيرة رسول الإسلام . ولم لا يجتهد ؟ ولكن الاجتهـاد فيما تبقى من أحاديث لحقها الوضع والوهم . أو الاجتهاد فى مراحل من سيرة الرسـول الأولى ، وحياته العطرة ، من الخطأ أن يتم على مستوى فردى أو شخصى . وإنما هو عمل جماعى لعلماء الإسلام وفقهائه تتبنـاه منظمـات ، لا لتطرح التحفظ والتساؤل وإنما لتسد الطريق أمام من فى قلوبهم مرض ومن يبحث لحاجة فى نفس يعقوب عن ثقوب تفتعل بهدف بث الضوضاء لا أكثر ولا أقل ، أما كيف ؟ فنجمل ذلك فى أنه قـد آن الأوان فيـما يعنى ما تبقى من أحاديث نسبت إلى الرسول . ولم تثبت صحتها أو ما ذكر عن سيرة الرسول من قبل أصحاب الأغراض الذاتية أن تقوم أمة الإسلام ممثلة فى علمائهـا الأوفياء بـ :

أولا : فيما يعنى القرآن الكريم ، وما ورد حوله من تفسير وتأويل عبر مختلف العصور . تسهر على صيانة هذه الذخيرة الهامة . وإن كان ولابد من اجتهاد فمن حيث انتهت هذه التفاسير والتأويلات ، لا أن نبدأ بوضع تفاسير وتأويلات للقرآن . لا تلتزم بما وضع من أسس لدى التفسيريين من السلف والخلف الصالح . ومن ثم تسود الاجتهادات الشخصية ، ويتغلب موكب الأهواء والميول ليدلى كل بدلوه . حسب ما يريد هو من القـرآن لا ما يريد القرآن منه .

ونلاحظ حاليا ، هذه الموجة من الموجات المحدثة التى تسعى ربما بحسن نية أو بسوئها إلى تحويل القرآن إلى مجرد مطول أو وسيط ، أو مدخـل

للمبادىء الكيميائية أو الفيزيائية ، بينما القـرآن أسـمى من أن ينزل إلى مستوى التجريب المخبرى لأنه ليس رسالة من أجل الأشياء ، وإنما رسالة من أجل الإنسان ، وحتى الإنسان لم يره القرآن بمعيار الهدف فى حد ذاته لتشريح جسده ، ومعرفة دخائله الفيزيولوجية ، والبيولوجية ، وإنما غاية ، لتحقيق قيم ومثل عليا من خلاله ، عبر بلاءه فى هذه الدنيا ، وكده وكدحه . وهكذا نرى أن أى تفسير للقرآن أو تأويل ، عليه أن يراعى هذا التسامى ، وينأى بالقرآن عن كل هذه المضاربات .

ثانيـا : فيما يعنى الأحاديث الصحيحة والقدسية . علينـا أن نبـدأ أيضاً من حيث انتهى اجتهاد المحدثين ، لا أن نكرره فى غيبة من عصرهم . فمن المفروض أن الأحاديث الشريفة صحيحة وقدسية سهر عليها الساهرون من محبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والغيورين على سنته العطرة . وكان لديهم من الوقت ومن الرغبة ، بل ومن التعلق والتفانى . ما يؤمن لنا مصداقية هذه المسيرة الحديثية الطويلة ، ليس فيما يعنى فقط صحة السند ، وإنما صحة المتن . فضـلا عن الإطار الزمنى القريب ، والذى لا يتجـاوز ثلاثة قرون . بعد وفاة الرسول عليه السلام .

كل هذه العوامل تجعلنا نأخذ بمعيار الجدية والرزانة والاتزان فيـما جاء حول أحاديث رسول الله عليه السلام . وشـكل علوما وتخصصات . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لا يمكن إلا أن ننحنى بخشـوع وإعجـاب وإجلال أمام ذكرى هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليـه . من صاحب الموطأ إلى صاحب الصحيح ، إلى كل أصحاب السنن فى المشرق وفى المغرب من القاضى عياض إلى ابن عبد البر ، إلى الشـبيلى حتى القطـان الفاسى والقائمة طويلة ومع هذا تبقى الأحاديث التى لحقها الوضع والوهن مجالا لكى نكمل هذه المسيرة وبنفس روح الجدية والتفانى والإخلاص . مستغلين معطيات العصر منهجياً وعلمياً لا لندخل الشك على ما ثبت صحته ، ولكن لنتأكد من صحة ما لحقه من وهن أو وضع واعترف بذلك من أئمة الحديث ورواته .

ثالثـا : السـيرة العطرة لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ، تشـكل

بالنسبة لتاريخ هذه الأمة منارة للاجتهاد والبحث ، فما أكثر ما جمع مـن مادة حول سيرة الرسول . وما كتب فيها وعلى كل المسـتويات وعبر كل العصور . والآن : ماذا علينا أن نفعل ؟ وقد بدأ يحلو للبعض أن يبحث عن ثقوب ينفذ منها إلى ما استحال أن ينفـذ إليه ، أو يفتعل متنـكراً فى رداء العلمية أو المنهجية لقضايا منه وإليه ، مستغلا فى ذلك تعدد التيارات التى اهتمت بحياة الرسول عليه السلام ، عبر فتراتها المختلفة . محاولا أن يفضى من خلال تساؤلات على حدث أو واقعة ، طابعا يكسوه التهويل أو التقليل أو الاعتراض الضمنى والمقنع . لأمور شخصية وردت فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام البشر ، ولكنه المعصوم ، لا ينطق عن الهوى بنص القرآن .. لهذا وإغلاقا لباب الفضوليين ، بل والوصوليين . ومرتزقة الكلم ، علينا وهذا ربما آن آوانه وباسم كل علماء الإسلام أن نضع سيرة متكاملة فى عشرات المجلدات لرسول الله لا من خلال إنشاء وخلق وتصنع ، وإنـما استنطاقا واستجوابا لكل المصادر والمراجع ومواجهتها موضوعيا لنقـدم تخريجا متكاملا يغطى فترات حياة الرسول عليه الصلاة والسلام . خصوصا فترة ما قبل البعث والوحى ، الطفولة والشباب ، وبذلك نحد من المضاربات التى تتحرك فى الظلام متزيية بزى العلمية والرصـانة ، لنعرفها من مآربها ، وأغراضها الدفينة ، وذلك بتقديم سيرة رسول الإسـلام ، لا كمـا يراها أعداءه وخصومه وإنما علماء الإسلام ودعاته .

وكخلاصة لهذا الحوار حول الإسلام تحت شعار : ليس للإسلام قضية يمكننا أن نميز بين المضاربات التى تحاول أن تتخذ من هموم المسـلمين ، مدخلا لافتعال هموم للإسلام وبين التطلعات الموضوعية التى تبدأ من حيث انتهى الغيورون على الإسلام ، كقناعة إيمانية أولا وقبل كل شىء باعتبار أنه فى النهاية يمكن تصور البشر على مستوى فئتين ، فئة القانعين بالإسلام انطلاقا من التسليم لخالق الكون ومدبره ، أمام أسرار هذا الكون الذى تتحدى انطلاقا مما وضع فى الإنسان من أمانة حتى هذه المجرات والمجموعات الشمسية والكونية التى تتحدانا بوجودها وانضباطها كدليـل على حكمة وتدبير المدبر « **وما قدروا الله حق قدره** » (١٢) ..

---

(١٢) الأنعام : ٩١

أمام كل هذا سوف يجسد الإسلام القاسم المشترك بين فئة المؤمنين بالخالق وبرسله وأنبيائه على أساس أن الإسلام يغطى برسالته الدين الكامل الشامل الذى تمثل فترات الرسل والأنبياء مراحل منه . فما من رسول أو نبى إلا وصف فى القرآن بأنه مسلماً أو نعت بإسلاميته لذا الإسلام هو راية المؤمنين القانعين بإيمانهم وعليه أن يتحمل طبيعة هذه المسئولية الكبرى فى مواجهة الفئة الأخرى التى تضم منكرين لائيين ومنكرين ومتشككين بل متسائلين . وهذا قدر الإسلام وغايته .

أما افتعال قضايا تراثية وصبغ الإسلام بصباغة متخفية ، وطرح تساؤلات متصنعة ، بهدف النيل عن طريق الدس والتقنيع باستغلال مسميات وشعارات إن كان مظهرها يحمل صفة العلمية أو المنهجية فجوهرها يعنى تقىء السموم ، وبث الحقد المضمر والمبيت .

نقول لهؤلاء مرة أخرى وفى النهاية ليس للإسلام قضية تراثية ، وإنما للإسلام مواجهة مع المتنكرين واللائيين الذين عبدوا أنفسهم بدلا من عبادة الله ، وهذه مواجهة من الأولى أن تكون صريحة ونزيهة حتى نرى بوضوح أين تكون الصلاحية والمصداقية ، وفاعلية الحيثيات ؟ وتبقى التطلعات بالنسبة للباحثين القانعين براية الإسلام والمعتزين بها كى يسهموا انطلاقا من مبدأ الغيرة والحرص باجتهاداتهم فى التعريف بعطاء الإسلام عقيدة وشعائر وحددوا كمعيار يضمن للإنسان التوازن والتعادل بين متطلباته الروحية والمعنوية والمادية والجسدية . دون تفريط أو إفراط ، دون مغالاة أو تزمت . هذا هو الإسلام الذى علينا أن نميزه من تراث المسلمين على مختلف مستوياتهم ، ومراحلهم ، وانتماءاتهم ، سلفا أو خلفا ، فقهاء أو أئمة ، ومتكلمين ، وفلاسفة ، علماء ومذكرين وبحاثة . تراث عملاق ، لأمة عملاقة ، أقلع من الإسلام واستمر تحت رايته رغم تعدد المشارب والأماكن والأزمنة والأغراض والأهداف . تراث آن الأوان أن ننظر إليه . بمنظار موضوعى بعيد عن الانفعال والمجازفة بعيداً عن الركود والجمود . تراث المسلمين ، لا الإسلام كتراث فليس للإسلام قضية وإنما القضية ، بل القضايا هى قضايا

تراث المسلمين منذ وفاة الرسول عليه السلام ، بل انطلاقا من واقعة السقيفة .

وابتداء من أين يثوى جسده الطاهر ، أفى المدينة ؟ أم فى مكة ؟ أم فى القدس ؟ بمعنى منذ اللحظة الأولى التى كان على هذه الأمة الوسطية التى هى خير أمة أخرجت للناس أن تشق طريقها بعد أن أكمل رسولها الأكرم عليه السلام رسالته . بإكمال الدين الأوحد للإله الواحد لما فيه انقاذ الإنسان فى دنياه وآخرته .

من هنا يبدأ إذن تراث المسلمين ، ومن هنا تطرح قضايا هذا التراث وتعبر التاريخ من عصر إلى عصر . تعبره مع المؤرخين ، وهذا ما سوف نجعله موضوعا لحوارنا القادم فى الحلقة التالية تحت شعار « قضايا تراث المسلمين وتاريخ المؤرخين » . توطئة لاستنطاقه واستجوابه فى حلقة بعد ذلك على ضوء علمية التاريخ وفلسفته ولم لا ؟ أيضاً على ضوء التعامل مع ما جد فى علوم الإنسان ولنبدأ بحلقة قضايا تراث المسلمين وتاريخ المؤرخين .

* * *

(٥)

قضايا تراث المسلمين من خلال تاريخ المؤرخين

حاليـاً ، وفى اطار حوارنا كثيراً ما تطرح قضيـة التاريخ ، والمؤرخين ، بل وكما هو معروف هناك منظمات عربية واسلامية تنعت بجمعيات تاريخية فى العديد من الأقطار ، وهناك تجمعات للمؤرخين فضلا عن جمعياتهم ومؤتمرات ، وهناك من يتكلم عن الثقل الخانق للتاريخ فى حضارة الاسلام الى حد عدم السـماح بالتنفس فى هذا العصر فلا يرى المسلمون الا من خلال تاريخهم ، أما الحاضر والمستقبل فقضيته فيها نظر ..

وهناك من يرى أن التاريخ ليس بهذا الثقل ولا هذا الاختناق ، بل يكاد أن يكون هو هذا التاريخ ، لا نقول الضائع فى مجمله ولكن فى العديد من منحنياته أو من مناحيه ، فهناك ما افتقد من التاريخ وهناك ما صودر منه ومنع من العبور عبر الأزمنة وهناك ما شوه وزيف وصنع فى عقول المؤرخين وفى لحظات انسجامهم ورضائهم عن العطاء أو فى لحظات تأزمهم نتيجة لبخل من مدحوه وكرموه ، فهو تاريخ مقاس حسب المقاس وباسـم المردودية وما يجنى من ورائها ، وهناك قضية تاريخ المؤرخين .. قضية كبرى تستحق منا أن نتساءل مع محاورنا الدكتور رشدى فكار ، ان لم نقـل عن أعماقها وتفاصيلها ، فعلى الأقل نعطى للقارىء بعض المعـالم التى تضىء له الطريق وفى اطار هـذا الحـوار عن قضـايا تراث المسـلمين .. فماذا اذن عن قضايا تراث المسـلمين من خـلال المؤرخين ؟ ..

* * *

من أين نبدأ ؟ ، من أين نبدأ التعامل مع تراث المسلمين ؟

أشرنا فى حوارنا السابق أن ليس للإسلام قضية تراثية . فالإسلام واقع حى ، نشيط ، ملموس فى وجدان الملايين ، يلمس عبر الشعائر : صلاة وصوماً وحجاً وزكاة ، كما يلمس فى تعاملهم وسلوكهم اليومى . ومن ثم ، فحينما نطرح قضية التراث ، إنما نعنى بها هذه المسيرة التى أقلعت بالمسلمين حضاريا بعد عصر النبوة ، عصر النبوة هو الإسلام ، وما أقلع المسلمون به حفاظا على وحى النبوة ، صيانة ، واجتهاداً ، ومواءمة للعصور التالية مع هذا الوحى الخالد . بفضل قدرات العقل المستنير ، يمكن أن يطرح كتراث للمسلمين .

تعطى كملامح أولى لمنطلقه بداية تصرف المسلمين ، فيما جاءت به النبوة بعد وفاة رسولها الأكرم عليه الصلاة والسلام ، ولحاق روحه الطاهرة بالرفيق الأعلى ، من كيف يثوى جسده الطاهر فى التراب ؟ ومن يخلفه فى رعاية أمور المسلمين ؟ إذ أننا نلاحظ أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كانت لهم اجتهادات متعددة بالنسبة للمكان الذى يثوى فيه جسده الطاهر ، أفى المدينة ؟ أم فى مكة ؟ أم فى القدس ؟ .. كما كانت لهم اجتهادات فى قضية الخلافة ، وما دار فى اجتماع السقيفة كما هو معروف .

من هنا تنطلق بتراث المسلمين الذى خضع لرؤى التاريخ ، وتعدد مطامحها وتباين انتماءاتها ، وتنوع مشاربها ، وهكذا تعتبر هذه الفترة الأولى من تراث المسلمين ، فترة مورست فيها ، ومن البداية ، نزعات المؤرخين ، وطبعت بانتماءاتهم ، وتلونت بنعراتهم ، فمنهم من حاول أن يملى على تاريخ الإقلاع الإسلامى الربط بمعطيات العرب قبل الإسلام ، ويكيفه بمتطلباتهم . ومن المؤرخين من حاول أن ينطلق بتاريخ المسلمين من الإسلام . وأن يجعله من البداية يتزيا بزى مغاير لما كان عليه حال العرب قبل الإسلام . وهناك من خط طريقاً وسطاً ، يوفق بين ثقل الانتماء العربى ، ودفع الإسلام المقلع ، وعليه فالتساؤل الذى يطرح على تاريخ مؤرخى تراث

المسلمين : هل يمكن لهذا التاريخ أن يرى بمعزل عما يدور فى أعماقهم من أهواء وانتماءات ؟ .

سنحاول أن نمارس الاجابة من خلال الواقعة الأولى لإقلاع تراث المسلمين ونعنى بها اختيار المكان ليثوى فيه جسد رسول الإسلام ، واختيار الخليفة وكيف أن تاريخ المؤرخين حاول أن يعطى لنا صورة لهذا التنوع السائد بين فئات المسلمين ممثلة فى الفئة الأولى والأكثر وفاء ونقاء وعطاء . ونعنى بها فئة الصحابة .

فالصحابى ابن المدينة تحمس لها ، لتكون مأوى لجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابى المهاجر ابن مكة تحمس لموطنه ، وثالث تحمس للقدس أولى القبلتين وهذا الذى تحمس للمدينة مال لأن تكون الخلافة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى عشيرته وأهله . وابن مكة أراد أن تكون الخلافة لها . وكان ما كان فى لقاء السقيفة وحفظ الإسلام كما حفظ القرآن باختيار أبى بكر خليفة لرسول الله كما اختيرت المدينة لتكون مأوى لجسده الطاهر . وهكذا كان الارتضاء بين مكة والمدينة . واستقر الوفاء ، واستقر التلاحم ولكن لم يقدم لنا تاريخ المؤرخين ما يتمشى وطبيعة هذا الإيقاع الإسلامى الخالد ، وإنما ركز البعض فى محاولة يائسة لإحياء نعرات الجاهلية وحماساتها بمناسبة اختيار الخليفة أو اختيار المكان ليثوى الجسد الطاهر .

ونحا جانب من المؤرخين ليفاضل ويمايز ، وكأنهم بعد أن يئسوا من إثارة الفتن فى حينها ، أن يفتعلوها فتنا بصيغة المبنى للمجهول ليحملها إلينا التاريخ فيسهم فى إذكاء نارها ، حينما تتاح الظروف أو تهيأ المناسبات .. إن كان العصر النبوى قد حفظ من التلوث التاريخى ، وفاء لحضور أكرم الأنبياء والرسل وغيرة على دينه وحبا فيه . وسهر القرآن المحفوظ مكملا بالأحاديث القدسية والصحيحة على أن يقدم العصر النبوى فى صورة تتمشى وما له من قداسة وخلود ، وبالتالى لم يجد المتلاعبون منفذاً ليشوهوا من خلاله هذا العصر المنير والمستنير بهدى النبوة رغم آكيدة فى إحياء ما انقضى ووصل ما انقطع . فكان التركيز على حروب الردة ، كما كان

التركيز قبل ذلك على ما تم فى مسجد رسول الله حينما انتشر خبر رفعه إلى الرفيق الأعلى . وركز أيضاً على ما دار فى السقيفة . وما تم من مناقشات حول تثوية جسد الرسول الطاهر فى التراب وكأن الصحابة وحولهم من خلص وأبرار ليس لهم إلا ما يفرقهم فور رحيل خاتم الأنبياء والمرسلين . إننا نتساءل لو كان الأمر كذلك ، كيف أتيح للإسلام مع هذه الفئة القليلة من الصحابة أن تتجاوز كل هذه الهموم . وتنتصر فى كل هذه المواقع . إن لم تكن هناك قناعات عميقة تجعل الإيمان يجب ما عداه . وأن اختلاف الرأى لا يضيع للإسلام هدفا ولا يحيد به عن غاية . فكل هم مهما صعب حينما يكون الاختيار بينه وبين بقاء الإسلام . فالهم يذوب وصيحة التكبير لا تعلوها صيحة .

ثوى جسد رسول الله فى المدينة برضاء الجميع ، وأضحى أبو بكر خليفة للمسلمين وحوله الجميع . وتبقى للمؤرخين أن يفتعلوا أساطير الخلافات وخرافات الشقاق لتصبح موقعا للمحاكاة والتقليد وكان طبيعياً أن مد الإسلام وامتداد تراث المسلمين صاحبهما فى نفس الوقت مد وامتداد لأهواء المؤرخين وتنوع تذوقاتهم . وتقيء نعراتهم الدفينة . وهكذا صوروا لنا تاريخ الراشدين من البداية حتى وصلوا به إلى نهاية المواجهة بين الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وما صاحب الفترة من أحداث على أنه تاريخ لنزعات دموية لا تنتهى ، كادوا أن يصلوا بها فى نفخهم لافتراء الأقاصيص على أن الإسلام لن يعمر طويلا ، ولن يخرج من دائرة مكة والمدينة ، ويتكوف فى أحداث الكوفة ، وينتهى بنهايتها .

ولكن الإسلام مرة أخرى يؤكد قدرة التجاوز للمتصور بفضل ممراسة الواقع والإصرار على الاستمرارية وتهميش من حاولوا أن يهمشوا .

لن نفصل كثيراً فيما حمل لنا تاريخ المؤرخين من أقاصيص ، وسنكتفى بنماذج على سبيل المثال لا الحصر ، فيما يعنى عصر الراشدين ، كمرحلة أولى من قضايا تراث المسلمين .

نذكر أسماء تعاقبت عبر أجيال متعددة مؤرخين ونسابين من ابن إسحاق والوفيدى ، وابن الحكم ، والمسعودى ، والبغدادى ، والطبرى ،

وابن هشام ، وابن الأثير ، والأزدى والجرهمى اليمنى ، وابن مزاح ، كل يدافع عن خليفته وانتماءه بطريقة صريحة أو مقنعة ، إلى جانب كتاب السير والمغازى . ويمكن أن نضيف الكلبى والمثنى التميمى وغيرهم ، وغيرهم الكثير تتداخل وقائع وأحداث التاريخ مع أقاصيص وإنشاءه بين التعطيل والاختزال والتعاطف والتحفظ والتعصب والتشيع بين من يريد أن يحيى جاهلية بنعاراتها وحماساتها ، وبين متشيع لآل البيت ، ومحب ومتوادد ، وبين طموح ، وهجاء ومداح ، ومنافق ومزيف لذاته قبل أن يزيف ذات الآخرين ، ومذبذب يبيع فى كل الأسواق دون أن يعنيه مما يبيع أكثر من الثمن . وهكذا من الصعب أن نعطى رؤية أحادية لتاريخ حافل بالتزوقات والاختيارات والنزعات .

يمكننا أن نستخلص فيما يعنى فترة الراشدين تياراً صاغ الأحداث ملتزما ما أمكن بتقاليد الرواية التاريخية ، أكثر من التزامه بصحتها . مفضلا الإرضاء على التمحيص والتحقيق . فهو مجامل فى بعض الأحيان مهادن ، وفى بعض الأحيان الأخرى مداهن ، ومع هذا اقتصر فى صياغته على السرد التاريخى موجها له الوجهة التى لا تفرز له المشاكل وتملى عليه الهموم . فالخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، هو الخليفة الذى تجاوز بالمسلمين أزمة الردة منتصرا ومدعما لنشر الدعوة وملتزما بالمبادىء الخالدة التى أوحت بها السماء وفيا ، مصداقا وصديقا لرسول الله فى حياته ، وبعد وفاته عليه السلام .

وعمر بن الخطاب بدوره خليفة راشد آل إليه الأمر فركز على الانضباط والعدل والمساواة ولا خشية فى الحق ولا لومة لائم ، ولو أدى هذا فى النهاية إلى استشهاده بيد آثمة فهو الخليفة الذى حكم ، وأمن « حكمت فعدلت فأمنت » لكن يد الغدر لا أمان لها مهما تعالى العدل وارتفعت رايته .

وعثمان بن عفان خليفة ثالث راشد . بدوره مد صفاء الإسلام كما مد أرض وإن كانت اليد الآثمة بدورها نالت منه ، فما ذلك إلا لتوغل الإثم فى قلوب البشر الذى لم يغتسل بماء الإيمان ونقاءه .

وجاء دور الخليفة الرابع لتستكمل معه حلقة الاستشهاد ، باستثناء أبو بكر رمزاً لقمة التضحية فى سبيل إعلاء كلمة الله . فهذا ضرب من البلاء والاختبار ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يزكى به ، وأن يمن بنعمة الاستشهاد أحباب رسول الله .

هذا التيار الذى قدم لنا فترة الراشدين فى إيقاع واسترسال محاولا تجفيف الدماء وتجاوز نزعات البشر وخلفياته ، وأن هذا الذى كان ، قدر فكان . إن كان قد اشتمل على جانب من المؤرخين اكتفوا بالحفاظ على الإيقاع التاريخى دون تساؤلات قد تدفع بدورها إلى مزيد من التساؤلات . فهناك جانب من المؤرخين من أصحاب هذه النزعة اتجهوا بحيادهم ليرتقوا به نحو تعميم مفهوم العصمة ، على الخلفاء الراشدين ، حبا وتعاطفا مع أصحاب رسول الله ، مع أن القرآن الكريم ، جعل الرسول عليه السلام هو الذى ينفرد من بين بنى البشر بأنه لا ينطق عن الهوى . مع تمتعه بكل خصائص البشرية وميولها .

إن كنا نرى فى هذا التيار اختياراً وسطا ، حاول أن يوقف جسامة الأحداث فيسردها . ولصحابة رسول الله من مكانة وتفضيل فيتعامل معها بحسبان — فهناك تيارات أخرى من المؤرخين الذين تصدوا لهذه الفترة فى عهد لاحق وجل التدوين للتاريخ ، كما هو معروف ، كان فى عهد لاحق حتى العصر الأموى لم ينج من غيبة التدوين . استغلوا هذه الغيبة ليضعوا تاريخا يتمشى وما لهم من ميول ونعرات ونزعات عصبية أم شعوبية . فمنهم من رأى عصر الراشدين من منظور جاهلى . ومنهم من رأى عصر الراشدين من منظور شعوبى وبين هذين التيارين تأرجحت أحداث ووقائع التاريخ . فبينما أبرز المنظور الجاهلى أحداث ووقائع عهد عثمان بن عفان وما أهل كردود فعل انتهت بقيام الأموية . نرى أصحاب المنظور الشعوبى المتشيع ركز على عهد على رضى الله عنه ليقرأ من خلاله تاريخ الراشدين ، بل وما وقع بعد ذلك حتى قيام العباسية .

نفصل القول دون إطالة ، من حاولوا تجهيل العصر الراشدى ركزوا على خلافة المهاجرين ، فالخليفة الأول والثانى من قريش . والثالثة بن عفان

الأموى وكأن حسب مضمراتهم وخلفياتهم استمرار هداية النبوة قضية قرشية وليست إنسانية ولا كونية .

العروبة والإسلام ، من يتقدم من ؟ تقدمت العروبة ليكون الإسلام فى خدمتها . إحياء العروبة ضاربت على النعرة والعصبية مع أن العروبة الحقة تكليف لا تشريف . لتصبح هى الأكرم بتقواها . لا القهر بسيفها وجبروتها . وكان طبيعيا أن يتصيد هؤلاء المؤرخون من هنا وهناك ما يزكى انتماءهم وخلفياتهم . ويجعلون من الإسلام عنوانا وشكلا فى محاولة لصبغه بمضمون عربى لا يكتفى بعروبة اللسان والبيان وإنما عروبة المضمون والانتماء والغاية .

وكان طبيعيا أن يجدوا فى الأحداث الأليمة التى أحاطت باستشهاد عثمان بن عفان لإذكاء حماسات جاهلية مضمرة ، وإخراجها إلى ساحة المواجهة تحت راية قميص عثمان رضى الله عنه . بل كما هو معروف ، انتفع هؤلاء المفتعلون لتاريخ صاغوه عبر انتماءاتهم من تطفل بعض العناصر المشبوهة إلى مراكز قيادية فى عصر عثمان وكان منها المبعد فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليجعلوا من مأساة خلافة عثمان مأساة للعروبة ، يستوجب الردع والقصاص . وهكذا كان التأهيل لخلافة على رضى الله عنه التى اتخذ منها الجانب الآخر من المؤرخين من أصحاب النزعات الشعوبية ودعاة التشيع فرصة لإحياء رواسب قابعة فى شعوبيتهم ليتفيؤوها تحت راية مشروعة وهى راية التشيع لأهل بيت رسول الله ، بعد أن تأخر الاعتراف بحقهم فى وراثة الإسلام . وكأن الإسلام جاء ليتبادل بين القرشى والهاشمى، بين الجاهلى والشعوبى . ولو قدر له هذا المصير ، وحددت له هذه الغاية ما خرج أبداً من معاقله وانتشر فى ساحة الكون .

دون التوسع فى مصادر هذه الفترة تاريخيا ، وما يعتمد عليه ومالا يعتمد عليه وما يؤخذ بعين الموضوعية ، أو يحكم عليه بالمغالاة والتطرف ، يمكننا أن نشير على سبيل المثال لا الحصر أسماء تتوارد سرداً وذكراً حين التعرض لهذه الفترة التاريخية من أبو عبيدة معمر بن (المثنى) التميمى إلى الجرهمى اليمنى مروراً بابن وهب بن المنبه وأسماء أخرى منها ما تشم منه رائحة

الشعوبية والمغالاة فى التشيع ، أو تلمس فيه سيمات النعرة والعصبية الجاهلية ، أو تنعكس منه أبعاد التشويه والمغالطة نتيجة لأهوائه وخلفياته ، وهكذا يلاحظ أن تاريخ المؤرخين لهذه الفترة لا يمكن بحال من الأحوال أن يعزل عن إطاره العام ، الذى كانت تغطيه النزعات والأهواء شعوبية أو جاهلية أو تشويهية ، لحاجة فى نفس يعقوب ، ولكن ولحسن الحظ الجانب الأصولى لما يمثله من قداسة كمبادىء خالدة ممثلة فى حفظ القرآن وصيانة أحاديث رسول الله عليه السلام عبر هذه الفترة دون أن يتأثر بهذه التيارات التى اهتمت أساساً بجوانب الطموح السياسى وشخصنة الأغراض .. ومع هذا يظل التساؤل من أين نبدأ بتاريخ المؤرخين ؟ .

فبقدر ما خضع المصطلح لأكثر من اجتهاد فى أصله ، تاريخ من أرخ الشىء ، بمعنى انتهى إلى ذلك ، أو إثبات الشىء ، أو من ورخ بلغة تميم أو أرخ بلغة قيس . أو تأريخ ، بل غالى بعض المجتهدين حينما ذهب به ترويضه للمصطلح أو للتعبير إلى أنه استقى من العبرية أو عرب كمقابل للفظ فارسى إلى غير ذلك من الاجتهادات ، فتاريخنا كمضمون ببداية محددة كثيراً ما يعطى له كمنطلق إقلاع العام الرابع من خلافة عمر ، السابع عشر الهجرى حينما بدأ الاهتمام بالأحداث والوقائع بدلا من أن كان التاريخ يبحث عنه على مستوى وصفى لحدث كبير ، كعام الفيل ، أو عام وفاة ، أو عام حرب كما هو معروف .. قبل هذا الإقلاع . ولكن تظل قضية تحديد ما فى هذا المضمون حيث إن العرب انصب اهتمامهم حول محاور ثلاثة : السيرة ، المغازى ، الأنساب . وكانت هناك طبقات : أولى وثانية وثالثة ، مما يدخل تفصيلا فى إطار الدراسات التاريخية ولا يجد له مكانا فى هذا الحوار المقنن حول تاريخ المؤرخين . هذا إلى جانب طبيعة مراحل صياغة التاريخ عبر أجياله ، كمثال ما تم فى القرن الثالث الهجرى بعد الدينورى ، وللبعض عليه بعض التحفظات فى اتجاهاته ، وإغفاله لذكر سيرة الرسول عليه السلام . ثم اليعقوبى الذى وسع من مفهوم الحدث التاريخى ليدمج فيه الأصداء الثقافية ، والطبرى الذى بدوره وسع مركزاً على تاريخ الرسل والملوك ، وصاحب « مروج الذهب » المسعودى الذى جعل التاريخ يتداخل مع الجغرافية يتغذى بها ويغذيها . وهكذا توالت الاجتهادات كأمثلة :

أغابيوس ، وابن هارون المالطى ، وابن مسكويه ، وابن الجوزى ، وأبى الفدا وكمثال أيضاً لأصحاب الطبقات والأنساب : الكلبى ، وابن الأثير ، وابن الابار ، وابن خلكان ، وابن القفطى ، وأمثلة لأصحاب الاتجاه الجغرافى فى صياغة التاريخ : كابن خرداذبه ، والمروزى والخوارزمى وابن روشته والهمدانى وقدامة بن جعفر إلى جانب أصحاب الرحلات وما أكثرهم : من ابن فضلان ، المقديسى ، الادريسى ، البيرونى ، البكرى ، ابن جبير . إلى مؤرخى الخراج والحسبة : كابن حيان وابن محمد الرازى الأندلسى ... أسماء وأسماء من الصعب أن تعطى قائمة مفصلة لها . ولكن اكتفينا بمجرد أمثلة لنبرز إلى أى حد جاء تاريخ المؤرخين غنيا فى كمه ، متعدداً فى تصانيفه وأنواعه ، ولم يكتف بتغطية جانب محدد من جوانب التاريخ ، بل وسع من اهتمامه ليقدم لنا مادة غنية متشعبة ، وإن دلت على شىء فإنما تدل على مدى رغبة الساهرين على تراثنا من أن يصل وعلى وأسع صورة إلى الأجيال التالية .

أما مدى مصداقية هذا التاريخ وثباته ، فهذه قضية أخرى إن كانت من قبل تطرح على مستوى التساؤل ، فحاليا وبفضل علمية التاريخ وفلسفته تجسد اشكالة تتمتع فى طرحها بأولوية الأولويات ، ولكن قبل أن ننتقل إلى الاحتكام والتعامل مع علمية التاريخ وفلسفته كمعيارية لتقنين قضايا تراث المسلمين علينا أن نستكمل فيما تبقى من هذا الحوار الخاص بتاريخ المؤرخين جولتنا عبر المواجهات الكبرى التى تمت فى نهاية عصر الراشدين مع على رضى الله عنه وقيام الأمويين . ما يعرف بالفتنة الكبرى . وكيف أنها ساهمت بتاريخها ، وثقلها فى إبراز الاختيارات التى كان المفروض أن تتواجه إقراراً للحق ليصبح الحق فى النهاية مأساوياً مجسداً فى المواجهة كغاية . وهذا فى حد ذاته . وهنا ، نشير بوضوح إلى مدى الالتباس الذى وقع فيه البعض حين تقنينه للمواجهة الكبرى ، باسم الفتنة الكبرى ، ارتكازا على ما صاغه بعض المؤرخين ليجعلوا من هذه المواجهة ليس فقط فتنة فى عصرها مفتعلين ومتصنعين ، وإنما فتنة لكل العصور . الفتنة الكبرى إذن رداء لبس فوق قميص عثمان ليعكس من جديد ، وبعد غفوة لم تستطع أن تقاوم نور وإشراق الإسلام . إحياء النزعات والنعرات والعصبية من

ناحية ، كما يعكس رواسب الشعوبية ونفاياتها ، لقد صيغت الأحداث صياغة شبعت بهذه الخلفيات وانتفخت بها ، وأصبح كل يرى فى الاستشهاد أنه منه وإليه ، بينما فى الواقع إن كان بين المواجهين طمع فى الاستشهاد فليس بين المفتونين ومروجى الأحقاد إلا الاقتتال والتطاحن ، كل يبحث عن ضالته . فهذا يشفى نعرته الجاهلية بدماء الأبرياء وآخر يشفى شعوبيته بدماء من تبقى ، وثالث مرجئى يكتفى بالملاحظة ، والحياد . وكأن الأمور لا تعنيه . وكأن الإسلام لم يدع إلى التصالح بين الفئات والطوائف بنص القرآن « **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** » (١) ، وخارجى يرى فى الأحداث بدوره فرصة لينبذ الجميع ، ويحكم بأخطاء الجميع وخطأهم . متخذا من هذه الأحداث الأليمة فرصة لينقض ودائماً بحيثيات ، لا شك أن الفتنة الكبرى من الأولى أن ترى بمنظارين : منظار المواجهة على مستوى الأنقياء والأبرار من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفاء منهم لما عاهدوا الله عليه . ومنظار آخر لمروجى الفتنة ومشعلى نيرانها لحوائج فى قلوبهم ورواسب فى أعماقهم . ونعرات تسرى فى أجسادهم مجرى الدم . لأننا نربأ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتنوا بهذه البساطة . وأن يستبيح بعضهم دماء بعض . ولكن هى قناعات الإصرار على الوفاء بالعهد ، « **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا** » (٢) ..

فما بالنا إذا كان المعنى بالأمر فعل لا قول . يكون الإصرار . والصمود هو من باب الالتزام .

لقد استغل مروجو الفتن هذا الالتزام بين أصحاب رسول الله ليحولوه إلى ساحة يتقاتل فيها من يتقاتل ، وآخر من يقاتل أو يقتل ، وهو مروج الفتنة ومبتدعها . لأن رأس مال المروجين هو الكيد ، والقيل والقال وملء النفوس بالحزازات والأحقاد . والتحريض والتهويل . لقد استطاع الإسلام بنوره . وبهديه أن يطهر القلوب الصادقة من رجس الجاهلية ولكن القلوب المريضة اكتفت بظاهر الإسلام . واحتفظت لنفسها بجذورها مترقبة ومنتظرة لتقفز وتستغل الإسلام لحساب خلفياتها وانتماءاتها .

---

(١) الحجرات : ٩ (٢) الأنعام : ١٥٢

وهكذا أبرزت لنا طلائع حركات مقنعة ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب شغلت حيزاً واسعاً من تاريخ أمتنا . ومازالت تشغله رغم ضآلة حجمهـا كماً وكيفاً . ولكن الضوضاء التى صنعتها عبر التاريخ كادت بضـبابها أن تغطى فى بعض المراحل التاريخية سماء الإسلام الصافية . وإيقاعه المتجانس وانسجامه الوحدوى الرصين . حاولت أن تملأ صفحات تاريخنا بتوسـيع هوامشه وحواشيه على حساب نصه ولتقليص جوهره .

وفعلا طالعنا تاريخ المؤرخين ناقلا إلينا ما شوهد تحت قبـة الشـمس المشرقة وسماء الإسلام الصافية . كما شوهد عبر الضباب . وما شوه من خلال العتمة والتعتيم . ومع هذا سـنحاول أن نحـاور تاريخ المؤرخين ، وباختصار مشيرين إلى ما يحسب له ومتحفظين على ما يحسب عليه . لنشكل بذلك أرضية لحلقة حوار ثانى تخصص لقضايا تراث المسلمين على ضوء علم التاريخ وفلسفته وبقية علوم الإنسان المعاصرة بصفة عامة .

ولنبدأ بالتحاور مع ما يحسب لتاريخ المؤرخين ، وبموضوعية . حين نقله لقضايا تراث المسلمين .

من حيث الصياغة والشكل بمعنى مورنولوجية تاريخ المؤرخين جاء هذا التاريخ متراتبا متتاليا ، محاولا تغطية التنوع والتعدد فى إطار متـكامل ما أمكن كل جيل من المؤرخين يسلم للآخر الراية أو ما نقل مضيفاً ومستفيداً من عطاء غيره . بل ظلت بعض أسماء المؤرخين تتردد خارج عصرها وعـبر عصور الآخرين كمجرد مثال للحصر : الطبرى ، المسـعودى ، المقريزى ، المـبرد ، البـلاذرى ، ابن الجـوزى ، ابن حـزم ، حتى ابن خلدون ، والسخاوى ، والقائمة طويلة ، وغنية ومتنوعة لمن يريد التفصيل . بقـدر ما نوعت وعددت اهتماماتها . فلم تقف عند حد التاريخ الخاص ببنية الأمة كخلافة أو إمارة أو إمامة ، وإنما أرخت للجماعات من أصحاب الحـركات البارزة : مرجئة وخوارج وشيعة . بل تجـاوزت باهتماماتهـا بنية الأمـة والجماعات النشطة التى تركت بصـماتها فى التـاريخ لتغطى باهتماماتهـا الاتجاهات والمدارس الفكرية لبعض تيارات النخبة معتزلة كانوا أم إخوان الصفاء جنباً إلى جنب مع تيارات الأصوليين الرصينة من أهل السنة ماتريدية

وأشـاعرة ، بل سلطت الأضواء على بعض الذهنيات الفـذة . بعقلنتهـا واستيعابها كمجرد أمثلة : الكندى ، الفارابى ، ابن سينا ، وحتى بالأندلس والمغرب من : ابن طفيل ، لابن رشد ، إلى جانب ابن حزم ، وابن ماجه من العمالقة وعرفت بما قدمت هذه العقول من اجتهادات دفاعا عنها أو تحفظا عليها وفى مختلف مناحى الإسلاميات وما حولها . وهـكذا تصـدرت أولا التيارات التفسيرية والحديثية والفقهية ، وأبرزت ما لها من قدرات كمـا وصفت لنا البيئات والمناطق والبلدان . وما يهم الإنسان فى وضعه الدنيوى . وما يفيده فى حياته اليومية ، بضمان حياته واستغلال امكاناته ، وتسـهيل تعامله مع الطبيعة بما فى ذلك الطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات وعالم الحيوان والنباتات والكائنات الأخرى وحتى الفلك والكون .

وبالتالى جاءت صياغة تاريخ المؤرخين غنية بعطاءها ، معـرفة بمختلف مناحى حياة الأمة فى مسيرتها حاملة لنا منجما من المعلومات ، وبالرغم مما صودر فلم يعبر التاريخ ، لسبب أو لآخر . أو ما ضاع وغطته أتربة الأحداث أو النسيان والتجاهل ، أو محيا أساساً بأيدى عابثة ، اعتقدت أنها قادرة على أن تمحو الماضى ، وتوقف المستقبل من موقعها المتحكم فى حاضرها أو فى النهاية ما لحقه التلوث نتيجة للمضاربات والمجازفات فى تفسير الوقائع وتحميلها مالا تحتمل من مبالغة أو ربما افتراء ، وبهتانا ، ومع هذا بقيت لنا مادة جديرة بالتحليل والشرح والإخضاع للتقنين المعرفى الأصيل قلبـاً وقالبا ، شكلا وصياغة ، ومضمونا وجوهراً .

فإن كان الشكل والصياغة أو القالب كمـا أشرنا جاء ثريا بالعطـاء المتنوع ، المتعدد والمتوالى ، والمتراتب الشامل المتكامل فالقلب والمضـمون بمعنى جوهر التاريخ بدوره يجسد لنا تفاصيل هامة يمكن بفضلها الإسهام فى بناء الفعل التاريخى . (مادة التاريخ) الذى يمكن على ضوئه إعادة النظر فى فكر تاريخ المؤرخين ، وهـذا ما نعنى به الإيجابية الثانيـة والخاصـة بفزيولوجية التاريخ وتوظيفه لتحدد من خلاله المعالم النشطة ، الموضـحة لآفاقه وركائزه المفاهيمية .

لقد حمل لنا التاريخ العديد من المضامين منذ نشأتها ، وكيف مورست

ووظفت ؟ بل وكيف تطـورت ؟ ســواء فى ذلك ما يعنى بنيــة الأمــة ، والجماعات ، أو ما يعنى الاجتهادات ، والتيارات الفكرية . أى الأمة كبنية وكنتائج ، وسوف نكتفى بسرد بعض هذه المضامين كمثال :

الخلافة ، إمارة المؤمنين ، البيعة ، ولاية العهد ، الحركات الاجتماعيــة فكراً وفعلا ، إلى جانب بعض المضامين النشطة مثــل الحجــابة ، والكتابة والوزارة أو بعض الظواهر المسيرة للبنيات الاجتماعية ، كالقضاء والحسبة والخراج والولاية والشرطة والجيش والبريد وتدوين الدواوين .. كذلك ظواهر العمران والمدن والزراعة والرى فضلا عن مضامين الحياة الفكرية للإسلاميات انطلاقا من التفسير والحديث والفقه حتى الكلام والمتكلمين والفلاسفة ، وتيارات أخرى زخرت بها عصورنا المختلفة .

وهكذا حمل لنا التاريخ : الخلافة ، إمارة المؤمنين ، البيعــة ، ولاية العهد وكيف حددت ، وكيف مورست ، كما حمل إلينا الحركات الاجتماعية الكبرى والتى شغلت حيزاً كبيراً من تاريخنا كما أشرنا سلفا .

فمن المعروف أنه بعد وفاة الرسول عليه السلام ، وتولى أبو بكر أمر المسلمين لقب بخليفة رسول الله ، فكان أول خليفة فى الإسلام . ومع عمر وخلافته كان على أصحاب وأحباب رسول الله أن يحددوا مضمون الولاية ، ولاية عمر ، فكان هناك اتجاه يميل إلى أن يكون خليفة خليفة رسول الله ، ولكن كان التساؤل : ثم بعد ذلك ؟ بالنسبة للتالين . لهذا كانت تسمية أمير المؤمنين لعمر رضى الله عنه . واستمر الحال بالنسبة لهذا المضمون فيما يعنى عثمان وعلى ، لكن حينما انتقل الأمر للأمويين استجدت مضامين أخرى فيما يعنى بنية الدولة فكانت ولاية العهد والبيعة له (لولى العهد) ثم استمر الاجتهاد فيما يعنى شئون الأمة . فكانت الحجابة ، والكتابة ، وإن كانت الــكتابة عرفت فى عصر الراشدين ، بل حتى فى عصر رسول الإسلام عليه السلام : كتابة الوحى . والقضاء بدوره والشرطة والبريد والجيش والبحرية والولاة وكلها معالم يمكن التعامل معها كوقائع وظواهر ملموســة لبنــاء الفعــل التاريخى ، كذلك الوزارة . وقد اســتجدت فى العصر العبــاسى ، حيث إن الأمويين لم يتحمسوا لها لأن الوزارة من المؤازرة ، وهم ليسوا فى حاجة

إليها . وإنما لكتاب وخدام . ومن المعروف أن العصر العباسى شهد أهمية هذه المعلمة . ويميل المؤرخون إلى أن أول وزير هو حفص بن سليمان ، وقد استوزره السفاح . ولعل أشهر الوزراء هم البرامكة ، ثم استجد مضمون أمير الأمراء من القرن الرابع الهجرى لدى بنى حمدان ، وبنى بويه . ومما يلفت النظر فيما يعنى الحجابة كمثال أنها لم تمارس فى عهد الراشدين ، وإنما انطلاقا من الدولة الأموية . وبخاصة بعد استشهاد على على يد الخوارج ، ثم تصدرت الحجابة فى بنية الدولة ، بل تعدد الحجاب فى العصر العباسى إلى أن وصلوا إلى ثلاثة ، بمعنى يحجب راعى الأمة على مستوى حواجز ثلاثة . مغالاة فى تغليفه وتباعده . وقد مورس هذا أيضاً فى الأندلس كما هو معروف .

والكتابة بدورها عرفت تنوع لا تعدد . فهناك كتاب الشرطة . وكتاب الخراج وكاتب القاضى ... الخ . ولا شك أن التعرف على هذه المضامين وهذه الظواهر جدير بأن يأخذ مكانه حين محاولة بناء التاريخ انطلاقا من وقائع ، لا من انطباعات المؤرخين وإنشاءهم هذا فضلا عن ما لبعض هذه المضامين من حضور واستمرارية عبر مراحل التاريخ ، كمجرد مثال : تدوين الدواوين ، الحسبة ، القضاء ، الشرطة ، فالدواوين إن كانت هناك اتجاهات فى تحديد نشأتها ومرجعيتها ، هل هى أدخلت كمحاكاة للفارسيين ؟ ، أم هى عربية أساساً ؟ ولكن من المعروف أنه فى عصر عمر مع اتساع رقعة الأمة والكثافة والتكاثر البشرى كانت كتابة الدواوين . وقيل إن الذى أوحى بها أبو هريرة رضى الله عنه ، بعد أن أتى من البحرين . وكان كتاب الدواوين من أهل الذمة فى البداية . وقد عربت الداوين شيئاً فشيئاً وتعددت بتعدد الضروريات ، ونلاحظ هذا فيما يعنى القضاء وإن كان القضاء فى العصر العباسى تأثر بالسياسة ، وأصبح للقضاء قاضى القضاة كما أن هناك أيضاً قاضى المظالم .

والحسبة بدورها منذ عصر الرسول عليه السلام كان يتولاها بنفسه ثم وكل بها ، وكانت تعنى المراقبة وخاصة مراقبة الأسواق .

إن كنا قد أعطينا بعض الأمثلة من هذه الظواهر ، فلكى نعطى حيثيات

موضوعية لوجود مقومات أساسية يمكن الارتكاز عليها فى البناء التاريخى ، كما أشرنا ، هذا إلى جانب ما حمل إلينا التاريخ من وصف وتعريف بظواهر العمران مدنا مشعة ، كما حمل إلينا أنشطة أخرى لحياة المسلمين اليومية فيما يعنى الرى والصناعة والزراعة . وهنا لا يمكن بحال إغفال هذا الجانب الهام الذى تميزت به حضارتنا ، ونعنى به تصوير المجتمع الإسلامى وعدم الاكتفاء بتصوره وتمثله . ونعنى بذلك رحالة المسلمين ، وكيف قدموا لنا أرضية متعددة العطاء ، بما فيها من رصد اثنوغرافى للقبائل والعشائر من خلال المشاهدة ، أو وصف سوسيوغرافى للمدن الإسلامية المشعة بعمرانها وفنونها وثقافاتها . وتطعيم الوصف بالاستنطاق والاستجواب كما يجعله حافلا بالعطاء السوسيوغرافى . هذا الجانب يمكنه أن يسهم إسهاماً مباشراً وغنياً ، فيما يعنى إعادة صياغة تراث المسلمين على ضوء علمية التاريخ وفلسفته ، ومدى تعامله مع علوم الإنسان المعاصرة . وكيفية توظيفها . وهذا موضوع سنعود إليه فى حلقات حوارنا هذا فيما بعد .

ولنعد الآن إلى مسيرة تاريخ المؤرخين وكيف أنها أيضاً قدمت لنا حصيلة من المعلومات التى يمكن أن تقنن موضوعياً ، فيما يعنى الحركات الاجتماعية ، كما قدم لنا تاريخ المؤرخين منجماً لا ينضب خاص بالأنشطة المختلفة للحياة الفكرية التى عبرت تاريخ هذه الأمة ، متمحورة أساساً حول أصول الإسلام قرآنا وسنة ، تفسيراً وحديثاً ، ومتشعبة لتشبع وتغطى مختلف الرغبات العقلية والذهنية للمسلم . فلم تقف الحياة الفكرية عند الأصول وإنما غطت الاجتهادات العقلانية والفلسفية وتوزعت فى إطار أثرى تراث المسلمين ، شريطة أن يتفهموا موضوعياً لأبعاده . وهكذا فيما يعنى الحركات الاجتماعية دون أن تتصدى لها فى هذه الحلقة من الحوار ، على مستوى التقنين ، لأننا نحتفظ بذلك للحلقة الخاصة بقضايا تراث المسلمين ، على ضوء فلسفة التاريخ وعلميته ، وعلوم الإنسان بصفة عامة .

سنكتفى إذن فى هذه الحلقة من الحوار ، بتقديم معالم الحركات الاجتماعية وكيف أنها شغلت حيزاً عريضاً ، إن لم يكن رهيباً من تاريخ أمتنا فهى لم تكتف بالتأثير فى إطارها البنيوى ، وعلاقته ببنيات المجتمع الأخرى

وإنما أثرت على الفكر بل وعلى المخاضات الكبرى من الأحداث التى جسدت معالم الطريق لتاريخنا .

دون دخول فى التفصيلات ، من المعروف أن الحركات الاجتماعية عبرت التاريخ لأمتنا الإسلامية ومن البداية . وعلى سبيل المثال لا الحصر سوف نبرز الهام والمؤثر كحركة الخوارج وحركة المرجئة ، وحركات التشيع والشعوبية ، وكيف أن هذه المسارات أفرزت فى فترات تالية عبر منعطفات ومنحنيات متعددة الكثير من الحركات المتفرعة عنها . فلا يمكن عزل حركة المعتزلة عن بعض الأصول الإرجائية للمرجئة . ولا يمكن إنكار تنوع الخوارج ، كتنوع المعتزلة ، وتنوع الشيعة فى ملل ونحل ، ما علينا إلا أن نلقى نظرة عابرة على ما كتبه الشهرستانى ، أو ابن حزم عن الملل والنحل لنرى إلى أى حد هذه الحركات الاجتماعية نفذت إلى بنيات المجتمع ، وكانت وراء العديد من الأحداث والوقائع فى فترات التاريخ من القرامطة إلى الديلم إلى الزنج إلى .. إلى .. فى مشرق أمة الإسلام ومغربها . والذى يعنينا فى هذا الحوار ليس بالضرورة شرح وتحليل هذه الحركات وإنما كيف أنها تعكس بصورة تلقائية ومباشرة هموم التاريخ ، وأهواء وانتماءات المؤرخين ، وتعاطفهم كل يغنى على ليلاه مع هذه الحركة أو تلك .

وهكذا قدمت لنا الحركات الشيعية من قبل المؤرخين الشيعة ، والمتعاطفين معها فى شكل كثيراً ما يتجاوز الأبعاد الموضوعية لها عبر التاريخ ، باعتبار وحتى إشعار آخر أن التشيع فى جملته إلى يومنا هذا ما تجاوز العشرة فى المائة من جسد الأمة .

كذلك بالنسبة للخوارج إن كانت حركات الخوارج برزت ، فلأنها ارتبطت فى بدايتها بصراع كثيراً ما كان دمويا . وفيما يعنى أيضاً بقية الحركات الأخرى آن الأوان أن تحدد فى حجمها دون تفريط أو إفراط . وهنا يلاحظ أن بعض المستشرقين ، لا نقول كل المستشرقين أن يعطى لهذه الحركات من الأهمية ما يتجاوز عطاءها . وأن يسلط عليها الأضواء لحاجة فى نفس يعقوب ولذا كثرت فى السنوات الأخيرة المؤلفات والأبحاث التى إن تنوعت فى مسمياتها وعناوينها ولكن تلتقى فى قاسم مشترك وهو البحث

لغاية مضرة ، قلما تعبر صراحة عن مضمون التاريخ الذى تبادلته أهــواء المؤرخين ، ويتطلب وقفة هادئة قبل أن تؤخذ مواقف ينقصها الاستيعاب ، أو مواقف فى بعد واحد . وليس هذا بالضرورة يعنى أننا نقلل من أهميــة هذه الحركات الاجتماعية أو نسعى لتهميشها ، وإنما آن الأوان أن توضــع فى إطارها الموضوعى ، وفى حجمها كما كان ما أمكن ، لا كما يأمل البعض أن يكون ، أو يأمل البعض الآخر ألا يكون ، وأن تفهم هذه الحــركات على ضوء تناقضات متعددة وعدم الاكتفــاء بتقتيمها على أنها تعبــير للصراع الطبقى ، أو فئوى ، أو جهوى أو فكرى كما نلاحظ الآن ، كل يلبسها الثوب الذى يريد . ومن الأجدر أن تلبس ثوبها الذى كان . ولنا عودة إلى هذا الموضوع ــ كما أشرنا ــ فى حلقات تالية من هذا الحوار . ونستمر فيما قدم تاريخ المؤرخين من معلومات وافرة بل وفائضة فيما يعنى التعريف بالتيارات الفكرية ، لا للإسلام من حيث هو أصــول وقرآن وســنة ، وإنما فكر المسلمين ، بمعنى من الخطأ أن نضارب على الجانب الإلهى فى الإسلام والعطاء النبوى الخالد فهذه قضية إيمانية ، لا إكراه فى الدين . أما فكر المســلمين فهذه فعلا قضية تاريخ المؤرخين . وإن كنا كما قــررنا من قبــل نســتبعد المضاربة على أصول الإسلام المقدسة ، ونضعه فى إطاره الإيمــانى فذلك لأن القرآن محفوظ بنصــه بالنســبة للمؤمن « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**» (٢)، وسنة الرسول بدورها ، إن حاول البعض أن ينفذ من هــذه الطريق للأصول ، هناك معيارية علينا أن نلتزم بها تتجسد فى :

١ ــ أن الرسول عليه السلام لا ينطق عن الهوى .

٢ ــ فيما يعنى نقل الحديث إلينا ، هناك أحاديث تحدد لنا أساساً هذه المعيارية ونكتفى بما ورد فى حديث ما معناه أنه إذا سمع أحدكم الحديث فشعر أنى قريب منه فأنا أقرب الناس إليه . والعكس صحيح . بمعنى إن شعر ببعده فالرسول أبعد ما يكون عنه . إذن هذه قضية إيمانية .

٣ ــ أن الأحاديث وكل بها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فحفظوا

---

(٢) الحجر : ٩

لنا الحديث بصحيحه وسننه . ومن ثم فهذه القضية لا داعى للمضاربة عليها فى غيبة الالتزام بأسسها المعيارية التى أشرنا إليها سلفاً .

يبقى بعد هذا فكر المسلمين . بعد وفاة الرسول عليه السلام تفسيراً وتأويلا واجتهاداً ، بما فى ذلك الاجتهاد فى السند والمتن وتحقيقه . وفكر المسلمين فيما يعنى المتكلمون الفلاسفة ورجالات الأدب شعراً ونثراً ، ومبدعى الفنون ممن قدموا لنا مختلف العطاءات البناءة التى تفخر بها كحضارة أبرزت تسامى المبادىء الإلهية وأصالة القيم الإنسانية .

فيما يعنى أصل الأصول ، وهو القرآن الكريم ، وما حمله لنا التاريخ ، تاريخ المؤرخين من اجتهادات فى تفسيره وتأويله ، ويؤكد لنا أن الدراسات القرآنية هى التى كانت محور اهتمام العقل العربى المسلم . ووظفت الأنواع المختلفة والضروب المتعددة من المعرفة والتخصص لاستكمال هذا وكيفية فهم هذا الجوهر الخالد .

فسر القرآن بالرواية ، وبالدراية ، وبالإشارة ، وبالمأثور ، وبالرأى ويروى عن ابن عباس تاريخيا أن التفسير على أربع : حلال — حرام — لا يعذر أحد بجهالته — تفسير فسره العرب بألسنتها . وتفسير فسره العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

كذلك هناك محاولة إرجاع التفسير إلى السنة أو إلى التشيع ، أو إلى الاعتزال . كمجرد أمثلة : التفسير الإشارى للنيسابورى . وهناك أيضاً التأويل الإشارى للقرآن للصوفى . وتفسير الآلوسى ، والتسترى ، وابن عربى ، كما أن هناك أمثلة لتفسير لأهل الكلام ، وأهل السنة ، والمعتزلة . وهناك تفاسير الباطنية ، القرامطة والإسماعيلية والسبعية .. الخ .

ومثال أيضاً فى التفسير نذكره للطبرسى بن على بن الفضل . ولاشك أن قضية تفسير القرآن ، وتأويله من القضايا التى شغلت كما ذكرنا حيزاً واسعاً من تراث المسلمين ، كما حمله التاريخ .

والحديث الشريف بدوره ، شغل مكانا متصدراً يليق بما لصاحبه أكرم الأنبياء والمرسلين من مكانة فى القلوب ، ونبراساً وقدوة لا يمكن لمسلم أن

يغفله لاستكمال عطاءه . بل هو الأصل الذى يأتى إلى جانب القـرآن ، مكملا بل ومساعداً على استكمال العقيدة قولا وفعلا .

اهتم المؤرخون بكيفية نشأة تدوين الحديث ، ولم تأخر هذا التدوين ؟ والبعض يستشـهد بالإشـارة الصريحة لرسـول الله « لا تكتبوا عنى ، وحدثوا عنى ولا حرج » .

ويرى البعض أن عدم تدوين الحديث جاء لرفع الالتباس وعدم التداخل فيما يروى عن الرسول صلى الله عليه وسـلم وما كتب عن الوحى . ولذا كان على علوم الحديث أن تنطلق فى وقت لاحق القرن الثانى الهجـرى . ويحاول البعض أن يحدد ذلك فى عهد عمر بن عبد العزيز على رأس المـائة الهجرى . حيث كتب إلى أبى بكر ابن حزم « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سننه فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء » .

وأرخ أن أول من دونه ، هو ابن شـهاب الزهـرى بأمـر من عمـر ابن عبد العزيز . كانوا فى البداية يجمعون الأحاديث ، كل باب على حدة وجاء جماعة من كبار المحدثين .. فدونوا الأحكام ، كابن جريج بمـكة والأوزاعى بالشام والإمامان أبو حنيفة والثورى بالكوفة ، وخصوصاً مالك ابن أنس بالمدينة . يجمعون كل الأحاديث التى يرويها صحابى على حدة . وأطلق على المسند ، سند أبو بكر ، سند عمر ، سند ابن العباس . ثم جاء بعد ذلك الصحيحان : البخارى ومسلم وأيضاً أصحاب السنن : أبى داوود ، والترمذى ، وابن ماجه ، والنسائى . واستمرت قائمة المحدثين وعلمـاء الحديث ، مما شكل ذخيرة كبرى يعتز بها كل مسلم . وكان معيارها دائماً الغيرة الإيمانية على ما نطق به رسول الله ، وشعارها حب الرسول والتفانى فى جمع أحاديثه .

وإلى جانب ما حمل تاريخ المؤرخين بخصوص التفسير والحديث وما حولهما من تراث منجمى هائل ، يمكن أن يشبع كل باحث عن الأصـالة والعمق حمل إلينا أيضاً تاريخ المؤرخين ما قدم إلينا العقل العربى المسـلم المتطلع إلى الدراية والممارسة أو المتفتح على الآخر فى محاولة لمجادلته بقصر

تفهمه واستيعابه ، ثم تخريجه .. ووضعه فى إطاره الموضوعى ، فإن كان تعقل الدراية شق طريقه من بين المتكلمين عند أهل الرأى فى الكوفة ، فقد تكشف عطاء العقل المتفتح فى مدرسة البصرة وبغداد وخصوصاً حين التعامل مع الفكر الإغريقى ، فى محاولة للتدافع الذهنى بحثا عن مزيد من الإشراق لا للإيمان ، ولكن لعقل الإنسان ، حتى لا يحدث التباس .

فالإيمان نور وهدى ، وليس فى حاجة إلى القيل والقال ، وإنما هو تسليم وإسلام ، فى كل الأبعاد والمناحى ، بينما العقل يتفاعل وليس بالضرورة أن ينطلق من إشراق نورانى لأنه قد ينطلق من العتمة بهدف تعرية التغميض . وهذا أيضاً عرفته الفلسفة الإسلامية ، وتيارات المسلمين ، يجمع بين نور الإسلام كركيزة ، والعقل كبرهان ، ولاشك أن هذه المرحلة التى غطت مساحة لا يستهان بها من حيث الكيف ، وتشبعت بمواجهات صارمة ، لا نفصل القول فيها ، لكن من يطالع حركة المعتزلة وإخوان الصفا ، ويساير قدرات الفكر المعقلن . من الفارابى ، والرازى ، وابن سينا ، والاحتكام الغزالى ، والأشاعرة من حوله ، والماتوريدية ثم رد الاعتبار للفلسفة بعد التهافت مع ابن رشد فى المدرسة الأندلسية وما حول ذلك من أسماء لامعة عملاقة فى مشرق الأمة ومغربها ، وما أكثرها ، سوف يشعر بمشاعر الافتخار والاعتزاز لرحلة الاعتزاز برحلة العقل العربى المسلم الذى استفاد وأفاد . فكر ، وتفكر ، أعطى وأخذ .

ولا ينسينا ونحن بصدد ما حمله لنا تاريخ المؤرخين الحديث عن الفلاسفة والمتكلمين بصفة عامة ، وأن نشير أيضاً إلى منجم لا يقل ثروة وعطاء فى ثروة المسلمين ، ونعنى به منجم الأدب والأدباء ، بل ودعاة الفن والعمران ، وهذا يسقط دعوة القائلين بضحالة عطاء العقل العربى تحت تأثير عقد أفرزتها المعاناة المعاصرة . فمنجم الأدب (الأدب بأنواعه المختلفة والفن والعمران) فبالنسبة للأدب غنى عن التعريف أن نتحدث عن هذا الميدان الذى من حق تراث أمتنا أن يتميز به ويفخر . فإن كان العرب عرفوا مباراة الآداب مجسدة فى أسواقها الأدبية الكبرى كسوق عكاظ . وأعطت لنا المعلقات وهى بدورها رمز لمدى اهتمام العرب بالإبداع والبيان وقدرة الكلمة وعطاءها . فعبر تراث المسلمين لم ينضب هذا المعين . بل اتسع وتعددت معانيه نثراً وشعراً .

وهكذا إلى جانب أبواب الأدب المتعارف عليها كان أدب المقامات على سبيل المثال ، وأدب الفرج بعد الشدة والقائمة طويلة . وأنشد العرب فى تاريخهم الإسلامى كل بحور الشعر وتفننوا إبداعا فى مراميه . وشكلت هذه العطاءات ميدانا لتخصصات تهتم بجوانبه المختلفة .

كذلك اللغة بدورها كان الاهتمام بها صيانة اللسان العربى ولغة القرآن فكانت الاجتهادات فى النحو والصرف والبلاغة والضروب الأخرى التى قدمت لنا عبر التاريخ لغة عملاقة لأدب عملاق . وما علينا إلا أن نتذكر أعلام نفخر بهم كمعالم فى الأدب نثرا وشعراً وفى اللغة وعلومها ، من الجاحظ بأدبه إلى فحول الشعراء جرير والفرزدق والأخطل والبحترى وبشار والمتنبى إلى الهمدانى ومقاماته والتنوخى وفرجه بعد الشدة ..

هذه مجرد نماذج نذكرها لضرب من الضروب على سبيل المثال لا الحصر إضافة إلى مدارس اللغويين بصريين وكوفيين ، والأصمعى ، والكسائى ، وآخرين وآخرين مما يؤكد لنا ، إلى أى حد تراث المسلمين جاء حافلا فى كل مناحيه وحتى الفن والعمران ما علينا إلا أن ننظر فيما حمل إلينا التاريخ من روائع فنية انطلاقاً من فن الكتابة حتى فنون العمران ، والبناء عبر مدن أمتنا فى مشرقها ومغربها وأندلسها . تراث تبقى ماديا ومعنويا ، وفكريا . وصمد عبر كل ما واجهه من تدمير وتخريب ومصادرة وضياع ، أثر فى حضارة الآخرين بعد أن تعامل وتحاور ولم يتبن مبدأ الباب المغلوق . وإنما تراث متفتح يتمتع بتعدد فى الحيثيات وتعدد فى الأهداف والغايات . وكلها تسعى للارتقاء بالإنسان صاحب الأمانة وصاحب الرسالة والذى فضل على المخلوقات جميعاً ، بل وكرم بما حمل من أمانة ومسئولية .

إذن ، تاريخ المؤرخين لتراث المسلمين حافل بالعطاء ، زاخر بما يكتشف فيه ، ويبحث عنه . وها نحن بعد أربعة عشر قرناً من المسيرة ننظر باعتزاز وإكبار لهذا التراث . ومن هذا المنطلق نحاور ، ونتحاور معه ، ومن أجله محاولين أن نوظف ما استجد من قدرات العلم والمنهج فى مزيد من الفهم لهذا التراث . بهدف مزيد من الإشراق له ، ومزيد من الإنارة لبطونه المتعددة .

وسنبدأ فى الحلقة التالية من حوارنا ، بالحوار معه على ضوء أرضية محددة وهى علمية التاريخ وفلسفته ، وما يمكن أن يستأنس من علوم الإنسان المعاصرة لتقنين هذا التراث تراث المسلمين بما يتمشى ومتطلبات العصر دون تفريط فى خصائصه الموضوعية أو إفراط باتباع مسيرة الإنشاء والأهواء التى إن كانت ضخمت لنا كم التراث إلا أنها جعلتنا نبحث من خلال مواجهتها عن أبعاد كيفية ، وسننطلق بعلمية التاريخ وفلسفته لتوسيع إطار المناقشة عبر الحوار ، واستغلال باقى التخصصات فى علوم الإنسان المعاصر لتفهم تراث المسلمين .

* * *

(٦)

قضايا تراث المســــلمين

امام علمية التاريخ وفلسفته وسسلجته

قد فرغنا فى حلقتنا السابقة من قضية تراث المسلمين عــبر تاريخ المؤرخين ، آن لنا ان نفتح الحوار فى هذه الحلقة السادسة حول قضية بالغة الاهمية ، بل حاليا كثيراً ما تغطى على ســاحة الفكر وتتحول الى الصدارة فى المعيارية معهـــا وبها أو عليهـــا لاستبعادها ، ونعنى بذلك قضية فلســـفة التاريخ ، وبالضرورة علميته ..

فمن المعروف ان اتجاهات ايديولوجية ســائدة فى القـــرن العشرين ، حورت جدلها وجدالها المادى حول فلسفة التاريخ ، وارتكزت عليه لتعرى جدليا الآخرين ، وتطرح القضـــية مع ما اسمته بالايديولوجيات الاستلابية المجسدة للبنية الفوقيـــة فى المجتمعات البشرية .

فقد وظفت فلسفة التاريخ لدى هذا الاتجاه المادى لتصـبح سلاحا رادعا لا نقول نوويا وانما فكريا من خلاله يطرح اهتزاز مضامين الآخرين وغيبة الحيثيات لما يدافعون عنه وعليه فيستحق هذا الموضوع الهام أن يعالج لا على مســتوى المواجهـة والتفنيد والعراك والانفعال ، وانما بنفس روح التروى والتفهم التى تعاملنا باسمها فى الحلقات السابقة .

ماذا عن قضايا تراث المسلمين ايضاً امام علميـــة التاريخ وفلسفة وسسلجته ، اى بمعنى النظرة السوسيولوجية الى التاريخ فضلا عن النظرة العلمية والفلسفية ؟ .

*** *** ***

بعد أن تحاورنا مع تاريخ المؤرخين لنرى من خلاله قضية تراث المسلمين وكيف أن هذا التاريخ ، إن كان قد حمل إلينا منجما من المعلومات . التى

تغطى مختلف ضروب النتاج الإسلامى ، أصولا وكلاماً ، وفلسفة ، فضلا عن مناحى المعطيات الأدبية ، والفنية والعمرانية . قد يبقى تساؤل هام . وهو هل يمكن الاعتماد على هذه المعلومات وتقبلها بصفة نهائية ، على أن هكذا كان تراث المسلمين ؟ إن آن الأوان أن نخضع هذا المنجم للتنقية والغربلة ، لنطرح مرزاً واعياً يحصر ما افتعله ، أو اصطنعه المؤرخون لحاجة فى نفس يعقوب انتماء ، أو عصبية ، أو نعرة ، أو تذوقا أو حبا فى التفصيل والمبالغة ، أم ثأراً وقصاصا مما لا يميل إليه المؤرخ إلى غير ذلك من الحيثيات . أو على الأقل ، نحد من هذا الافتعال والتصنع ، لنقدم تراثا للمسلمين يجسد ما أمكن واقع التاريخ لا فكر المؤرخين .

ووسائلنا فى الحصر أو الحد ، من افتعال المؤرخين ، هذا هو الاحتكام إلى علمية التاريخ أولا ، ثم إلى فلسفة التاريخ وسسلجته .

مستويات ثلاثة من التصفية والغربلة ، لابد وأن تتدخل على التوالى برزا وإصراراً . ولنبدأ بعلمية التاريخ .

ماذا نعنى بعلمية التاريخ أولا ؟

إن كان المؤرخ يرتكز أساساً فى منهجه على الرصد والتسلسل والاسترسال للحوادث حتى ولو على حساب الإنشاء والخلق ، حينما يعجز عن ربط هذا التسلسل وهذا الاسترسال . وهو فى ذلك يفصل أو يختزل ، ولكن الذى يعنيه أساساً هو أن يظل التاريخ بلا ثقوب أو فجوات .. فهو حين عرضه لسيرة إنسان أو لمسيرة حياة ، أو عصر أمة ، أو فترة مدرسة أو مذهب أو اتجاه ، يتحرك انطلاقا من الإجابة على تساؤلات الاسترسال تلقائيا ، كيف نشأ ؟ كيف تطور ؟ كيف آل ؟ فهو فى هذا حينما يفتقر الوقائع والأحداث لنشأة سيرة أو عصر ، أو فترة هو بصدد تاريخها ، قد يفتعل نشأة تقريبية على مستوى قيل أو يقال ، محاولا تمريرها على أنها هكذا كانت . وهو أيضاً حينما يكون بصدد التطور حينما يجد فترة فى حياة من يؤرخ له ، أو عصر الأمة التى يؤرخ لها ، أو المدرسة ، قد يلقى بما لديه من خلفية ليغطى بها هذا القصور فإن كانت السيرة محببة إليه . أو الأمة مكرمة له أو المدرسة يتعاطف معها ، أو العصر برمته كان بالنسبة له

رخاء وعطاء . فستكون فرصة ليلقى بميوله فى هذه المرحـــلة القاصرة فى المعلومات مادحا ومشيداً ، ومعرفا بالفضائل وبكل ما هو خير وبناء . دون أن يكون ذلك حدث فعلا . والعكس صحيح . حينما يشعر المؤرخ بالقهر وبخيبة الأمل من عصره أو الفترة التى يؤرخ لها ، سوف تكون فرصـــة بالنسبة له ليقتص متقيئاً لمعاناته على أنها هكذا كانت .

ومن ثم ، فكثيراً ما يستغل المؤرخون قصور الحدث أو الواقعة ، ليفتعل بديلا يغطى به التسلسل حسب أهواءه ، وبالنسبة للمآل . إن كان هناك مآل محدد بواقعة أو حدث . يقدمه مفصلا أو مختزلا حسب أهواءه . مبالغـاً أو متواضعاً مغالياً أو بخيلا ، بقدر ما يشعر من مدى علاقته بهذا المآل ، قربا أو بعداً ، كراهية أو تعاطفا . ومن ثم لاحظنا فيما يعنى نهاية حيـــاة رجالات الأمة الإسلامية أو نهاية عصور محددة بسقوط دولتهـا أن المؤرخ كثيراً ما يقوم بعملية تمازج بين ما ينتظره هو من هذه النهاية ، لا كما حدثت فعلا . فهى نهاية رهيبة يقدمها فى صورة تدعو إلى تعبئة الوجدان إن كانت له ، وهى نهاية منتظرة حينما كان هو يتمنى انتظارها .

فضلا عن أنه حينما المآل أو النهاية لا تجسد فى واقعة أو حدث معين ، فتكون فرصة للمؤرخ ليصور لنا النهاية التى يبتغيهـا معتمـداً على قيـل ويقال . متشفيا ، أو متألما حسب الأهواء . ويمكننا أن نستأنس هـــذا التصور فيما يعنى موقف المؤرخ من مدرسة ، أو فـكر ، أو مذهب ، أو اتجاه معين ، فهو بلا شك لا يمكن أن يعزل ميوله من سرده لتاريخ هـذه الأفكار متحمساً لها أو متنكراً ، محملا التاريخ صورة تنكره أو تحمسـه على أنها هى الصورة التى عيشت فى حينها .

أمام تاريخ المؤرخين وما يرتكز عليه من منهج لخصناه فيما أشرنا إليه سلفا وأمام استحالة بعث الواقع التاريخى ليغشيه من جديد . لم يبق لنا إلا أن نستغل الإمكانات المنهجية التى يتمتـع بهـا علم التاريخ وفلسـفة التاريخ وسوسيولوجية التاريخ ، لنعيد النظر لا فى كتابة التاريخ ، ولكن فى مقارنة كتابة التاريخ كفكر مع كتابة التاريخ كعقل .

على أن الفعل التاريخى ، وهو المجسد للوقائع والأحداث بمعنى مادية

التاريخ ، يمكنه بفضل وسائل محددة من الاقتراب والبحث ، عبر منهج علم التاريخ أن يحصر أو يحد من أهواء المؤرخين ما أمكن .

ولكن ماذا نعنى ، وباختصار ، بهذه العلمية التاريخية فى منهجيتها ووسائلها ؟ إن كان منهج المؤرخ هو رصد وتسلسل واسترسال عبر النشأة والتطور والمآل ، ولو بالالتجاء إلى الافتعال لتغطية ثقوب التسلسل وقطيعة الاسترسال ، فمنهم عالم التاريخ لا يتبنى الاسترسال والتسلسل وإنما ثبات التاريخ وصحته .

فإن كان منهج المؤرخ يتبنى التسلسل (Enchainement) فمنهج عالم التاريخ يتبنى (Antenticité) صحة التاريخ ، وهو فى هذا يرتكز على حيثيات محددة علم التاريخ لا يتحرك فى غيبة التاريخ وإنما فى حضوره . فلابد من تاريخ حتى يتعلمن .

هذا التاريخ يميز فيه عالم بين تاريخ الأفكار وتاريخ الأفعال . وحتى يجد أرضية لتاريخ الأفعال ، فهو يلجأ إلى الحدث أو الواقعة المحدودة والمحددة (La Petite Histoire) بينما المؤرخ يبلور (La Grande Histoire) التاريخ المتسلسل .

كذلك يحاول الاحتكام إلى العوامل المهيأة للواقع . أو الحدث التاريخى ، سياسية كانت أو اقتصادية أو دينية أو تربوية أو نفسية أو بيئية ويرتكز فى تعامله على الاستنطاق والاستجواب ، محاولا بناء تاريخ مواز للفعل ، إلى جانب تاريخ المؤرخ أى الفكر . ليكتشف إلى أى حد تداخل المؤرخ مع ما أرخ له .

إن تاريخ تراث المسلمين مشيداً وفى أكمل وأبهى صورة كما قدمه المؤرخون . فتاريخ تراث المسلمين كبناء متكامل لوقائع وأحداث ، استنطقت ووضعت فى إطار بعيد عن كل مجازفة أو انتماء ، وبصبر ورزانة حتى يومنا هذا مازالت القضية قضية علمية التاريخ مطروحة .

ولكن علينا أن نتحاشى المجازفة وإلا وقعنا فيما حاولنا التنبيه إلى عدم الوقوع فيه .

إن علمية التاريخ تتطلب تعبئة لجهود متعددة ، كما تتطلب صبراً وعزماً وإصرارا ، فهي عملية مرحلية تحتاج إلى سنوات طوال فضلا عن احتياجها إلى استغلال كل ما يتوفر لدينا من معلومات عن تاريخ تراثنا مهما صغرت أو همشت . وأساسا تجزأ مراحل تاريخ تراث المسلمين إلى فترات محدودة ومحددة فى البداية كل فترة تشيد على حدة . بفضل ما أشرنا إليه من وسائل ومنهج ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ليكون المنطلق بعد إكمال الرسالة المحمدية وانتهاء فترة النبوة . لأننا قد حددنا من قبل أن التعامل مع أصول الإسلام قرآنا وسنة ، لها خصائص وخصوصيات ، لابد وأن توضع فى الحسبان . وميزنا بين الإسلام ، وتراث المسلمين ، فقضية علمية التاريخ تطرح منذ اللحظة الأولى لتراث المسلمين ، ولتلك حادثة السقيفة وقرار تثوية جسد الرسول الطاهر التراب . فهذه واقعة محددة علينا أن نبنيها عبر علمية التاريخ لا الاكتفاء بسرد المؤرخين . ولا شك أن البناء الذى سيشيده علم التاريخ عبر فعله سوف يضيف إشراقة لتاريخنا . باعتبار أن تجلى واقع هذه الأحداث ، هو من صالح الأمة ولا ضرر فيه ولا ضرار . ثم يستمر التشييد والبناء للعقل التاريخى ، لكل فترة على حدة . مثال : حروب الردة ، ما يزعم أنه الفتنة الكبرى كما قدمتها أهواء المؤرخين ، ثم يستمر موكب ثبات التاريخ وصحته ، ولو أدى لأن يشارك فى تأسيسه . وتشييده أجيال ، وليس جيلنا فقط . فلو استطاع جيلنا بعد تكاثف الجهود وتكامل النيات الحسنة ، وتعبئة الإمكانات المادية ، وتجنيد العقول القادرة ، أن يعلمن لنا عصر الراشدين فى عدة مجلدات لكفاه ذلك فخراً . بدلا مما تغص به مكتباتنا العربية ، والمكتبات العالمية بعد أن أفرز المستشرقون فيها ما أفرزوا من قطع مبتورة ، وأهواء معللة ، وخلفيات اكتسبت طابع المشروعية ، أمام غيبة الثبات والصحة للتاريخ ، إذ لا يمكن أن تبنى إلا بأيدى أبناءها . وقناعتهم أساساً بضرورة هذا البناء .

وسنكتفى بإعطاء نماذج وأمثلة ، لما يمكن أن يسهم فى بناء الفعل التاريخى ، من هذا المنجم الضخم الذى تركه لنا تاريخ المؤرخين ، فيمكن أن نستغل وأن نوظف نتاج تاريخى هو أساساً يغطى واقعا أو حدثا ، مثل كتب الخراج ، النوازل ، الحسبة ، الخطط ، إلى جانب ما يمكن أن نستخلصه

بدقة وحذر من كتب الطبقات والرحلات . وأيضاً كتب الأدب شعراً ونثراً . ولكن لا نقف طويلا عند الديباجات ، وما له طبيعة الإنشاء والتضخيم وإنما نتصيد الواقعة أو الحدث فى أدق حجم لها . وهذا يتطلب بالضرورة ممارسة قادرة على مستوى الباحثين ، ومن يتصدون لهذا العمل الهام ، بالنسبة لقضية تراث المسلمين ، على ضوء علمية التاريخ .

ومن باب الممارسة سنحاول إعطاء نموذج نوظف من خلاله ، وفى شكل مبدئى ، إمكانات علمية التاريخ وكيف تمارس عمليا . ولتلك الفتنة الكبرى كمجرد مثال .

من المعروف أن الفتنة الكبرى ، وما صاحبها من مخاضات بدورها كبرى شغلت حيزاً كبيراً ، من تاريخ المؤرخين ، إن كانت الفتنة كحدث اتفق على المكان والزمان ، ولكن تباينت تيارات المؤرخين فى تقديم محتواها بقدر تباين انتماءاتهم وخلفياتهم . فالفتنة الكبرى كما قدمها المؤرخون ممن عرفوا بتعاطفهم ، أو تشيعهم لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا مع المؤرخين ممن ظلوا ملتزمين بنعرات الجاهلية ، والتعصب لها . هذا فضلا عمن أرخوا تحت شعار الإدانة للجميع كالخوارج وغيرهم .

ومن ثم يمكن لقارىء الفتنة الكبرى بعد قرون أن يراها بصيغة الجمع لا المفرد ، فتن كبرى . فلكل فتنة حسب ما يراها ، وحسب ما يعطى من حيثيات لجذورها ، أو تطورها أو مآلها .

وقد نذهب إلى أبعد من ذلك ، وهو أن الفتنة الكبرى تعامل معها جانب من المؤرخين ، ولم يستهدفوا تعاطفا أو تشيعا أو تعصبا لهذا أو ذاك ، أو تمرداً على هذا أو ذاك . وإنما كانت بالنسبة لهم هذه الأزمة فرصة ، ليهولوا ويفرزوا ما فى أكبادهم من حقد على الإسلام ، ولكن ودائماً تحت رايته . وهم بذلك يقدمون لنا صفوة أصحاب رسول الله عليه السلام وهم يتقاتلون ، ويتناحرون ليقولوا لنا هذا هو الإسلام ، وبالتالى يمكن إعطاء التبرير والحيثيات لكل من يريد أن يمارس الفتنة بعد ذلك باعتبار أن حتى أصحاب رسول الله قد فتنوا وتحاربوا ، وهكذا تصبح الدماء جزءاً من الانتماء الإسلامى ومسيرة أمته . أمام هذا التباين والتعدد ، هل من الأولى أن

نقارن بين مختلف المؤرخين ، فى محاولة للوصول إلى صورة ما أمكن تتمشى وما حدث عبر هـذه الفتنة . بمعنى الاحتـكام يكون من المؤرخين وإلى المؤرخين ؟ .

بلا شك ، هذه الممارسة قد تمت فعلا ، عبر أجيـال من المؤرخين بعد عصر الفتنة ، وتحاول حالياً بعض المدارس التاريخية فى أمتنا الإسلامية أن تعيد النظر مرة أخرى ، ودائماً من المؤرخين وإلى المؤرخين .

فكر تاريخى يواجه بفكر تاريخى ، فى محـاولة لتقـديم فكر تاريخى ثالث ، ليمكن استساغته ما أمكن .

لهذا علمية التاريخ تتجاوز مواجهات فكرية التاريخ ، لكى تطرح نوعاً آخر من المواجهة ، وهو مواجهة الفكر التاريخى بالفعـل التـاريخى ، أى مواجهة التاريخ العام كما صاغه المؤرخون ، أى تاريخ المؤرخين ، ببناء فعل تاريخى يتشكل من تاريخ الحدث والواقعة المحدودة . وهذا يتطلب استغلال كل المصادر ، التى لها علاقة بالفترة التاريخيـة التى يؤرخ لهـا . بعبـارة مختصرة مواجهة التاريخ الكبير (La Grande Histoire) ، وهو تاريخ فكر المؤرخين بالتاريخ الصغير (La Petite Histoire) . حدث أو واقعة مثال : فلان ولد ، فلان قتل ، فلان حداد ، فلان خرج من المدينة ، عاد إليهـا ، فلان كان يتردد على فلان ويلتقى به .. الخ . وحينما نطبق هذا المنهج فيما عرف بالفتنة الكبرى سوف تتعامل مباشرة مع الحدث الصغير ، والواقعـة المحدودة لنبنى فترة الفتنة الكبرى ، بعيدة عن أهواء المؤرخين ، وهـذا يتطلب ارتباطا أدق بالواقع . فالفتنة من أين انطلقت ؟ وهنا تدرس المنطقـة التى انطلقت منها اقتصاديا ، وسياسيا ، وديمغرافياً وحتى انثروبولوجيـا على مستوى السلالات السائدة ، إلى جانب ما درسه المؤرخـون ، بمعنى الانتماء الدينى ، وهنا ستتسع مناقشة الحدث وسنرى أن الفتنة الكـبرى سوف تلزمنا أن نصل بجذورها إلى السقيفة ، وإلى واقعة السقيفة ، كمـا تلزمنا بالمرور على من استبعدوا من المدينة فى عصر الرسول صلى الله عليـه وسلم ، أصحاب القوائم المبعدين . ثم عادوا ليتصدروا عهد عثمان رضى الله عنه .

ثم تلزمنا أيضاً بدراسة موضوعية مدققة لحياة المواجهين ولماذا واجهوا ؟ وكيف كانت علاقاتهم قبل الإسلام فيما بينهم ؟ ثم تنطلق التساؤلات باسم الفعل التاريخى ومادينه لتصل بنا بلا شك فيما بعد إلى التمييز بين فئتين فى هذه الفتنة الكبرى . فئة واجهت باسم الالتزام الإسلامى أولا وأخيراً ، حيث لا مجاملة أياً كانت الصلة على حساب المبادىء « **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا** » (١) .. فهى فئة عاهدت الله ، وأوفت بعهدها ، مهما كان الثمن . خصوصاً بعد أن رفع الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى . وأصبح كل راع ومسئول عن رعيته .

ومن ثم هذه فئة الأصفياء من الصحابة ممن هانت عليهم النفس والنفيس .. وطلبوا الاستشهاد وفاء بعهد الله مهما كانت صلة العلاقة أو القرابة ، ومنهم من استشهد فعلا فى سبيل ذلك . هذه يمكن أن نسميها فئة المواجهين النزهاء الملتزمين بعهد الله . وفئة أخرى ، إن كان ليس من حقنا ، ولا من حق أى مسلم أن يتساءل حول مصداقية إسلامها مادامت قد نطقت به ، ولكن هل فعلا الإسلام ، وقف حيث النطق باللسان ، أم أنه وصل إلى القلب ، وثبت فيه وصدقه العمل ؟

من الصعب الإجابة بصفة عفوية وفورية . ولكن آن الأوان وباسم علمية التاريخ التى تبرز الاشراق الإسلامى ، لا تعتمه أن نعيد النظر فى هذه الأزمة الكبرى ، لا بوجهة نظر تضاف إلى وجهات النظر ، وإنما بناء للفعل التاريخى ، يسد الطريق أمام تيار تزوق المؤرخين وتنوع أهواءهم ، ويجعل الأجيال المسلمة ، وبعد أربعة عشر قرنا ، فخورة بالمواجهات الكبرى القدوة . وفاء بعهد الله ، لا الفتنة الكبرى كما أشعلها عشاق الفتن ، وذكاها مؤرخو الفتن ، وعمل على إعادتها فى هذا العصر سماسرة حدثنة الفتن وعصرنتها . وهذا ما يجعلنا ومن خلال هذا النموذج نبرز مدى أهمية تدخل علمية التاريخ لكى تعطى لكل ذى حق حقه دون تفريط أو إفراط ، أو ضرر أو إضرار .

---

(١) الأنعام : ١٥٢ .

وما أخذناه كنموذج بالنسبة للفتنة الكبرى يمكن أن يطبق بالنسبة للمسارات الأخرى فى تاريخ أمتنا ، من حروب الردة حتى يومنا هذا .

وماذا عن فلسفة التاريخ وكيف يمكن أن نوظفها بالنسبة لتاريخ أمتنا كقضايا تراث المسلمين ؟ . ولكن قبل أن نقوم باستئناسها وتوظيفها ، سنحاول إعطاء فكرة مختصرة ما أمكن عن فلسفة التاريخ ، وكيف تتصورها ، بالنسبة لما يعنينا لا بالنسبة لتصور الآخرين وتوظيفهم لها لأهداف وحاجيات خاصة بهم . إذ من الخطأ أن يستبعد الاحتكام للفعل التاريخى والعوامل المتعددة المؤثرة فى بلورته وماديته . على أن ذلك من صنع الماديين الملحدين الجدليين ، وأيضاً فلسفة التاريخ لماذا ؟ لأنها بدورها استغلت من الجدليين الماديين . ومن ثم تستبعد وهذا مالا نذهب إليه .

لأن هذا التباس يزكى احتكار المعرفة لفئة ما . فالمعرفة ملك للجميع ، وكما أن علمية التاريخ يستأنسها المفكر المادى يمكن للمفكر المسلم أن يستأنسها . وفلسفة التاريخ كما أن المادى يوظفها ، فلم لا نقوم بتوظيفها خصوصاً وقد تأكدت صلاحيتها وما تتمتع به من فاعلية فى العطاء والنضوج العلمى ؟ بل استطاع من لا أرضية له أن يضارب على قدرتها ليغطى بها قصور أرضيته ، واتخذ منها درعاً يقى به ما يعانى من ضعف ووهن ويتقى به ما يوجه إليه من قدرات تكشف عورته ، وتعرى مقاصده .

ونعود إلى فلسفة التاريخ وماذا نعنى بها باختصار ؟ .

إن التساؤل الأول الذى يطرح نفسه هو : هل لدينا مادة تجسدها الوقائع والأحداث فى تاريخ أمتنا ، كفيلة بتغطية شروح فلسفة التاريخ ، وإشباع أبعادها ؟ وهذا بدوره يجرنا إلى تساؤل مترتب بالضرورة والالتزام . وهو : إلى أى حد يمكن استغلال هذه المادة ؟ وهى موجودة فعلا . فقد أثرى المؤرخون تاريخنا بما قدموا . من نتاج متعدد ومتنوع . مما يمكننا من التعامل مع هذا التاريخ تعاملا تحليليا ، لا يمكن بحال أن يتنكر لأصالة هذه الأمة وعطاء قيمها ، وإنما العكس يبرز هذه الأصالة ويعطى حيثيات موضوعية العبور التاريخى ، وقد عرف الاستقرار فى بعض مراحله كما عرف الأزمات والمخاضات .

من البداية نحدد أن فلسفة التاريخ التى تعنينا سوف نركز فى توظيفها على ما هو جدير بالتعليل باعتبارها تخصصا يعلل التاريخ بعد غربلته وتنقيته مما علق به من أهواء ، وتزوقات وانتماءات فى حدود الإمكانات المتاحة له فى الشرح . التعليل للتاريخ سينصب على أزماته ومخاضاته بمعنى المنعرجات الكبرى التى مرت بها هذه الأمة تاريخيا ، من قيام أمم وسقوط أخرى ، وتداول للعصور أموية كانت ، أم عباسية ، أم عثمانية ، أندلسية مغربية إلى غير ذلك من الأحداث الكبرى التى تجسد تراث الأمة كما وصل إلينا .

الثابت من التاريخ بمعنى ما استطاع علم التاريخ أن يحتفظ به من تاريخ المؤرخين ويعطى حيثيات لصحته . فلسفة التاريخ توظف لا انطلاقا من فكر المؤرخ ، وإنما احتكاما إلى الوقائع والأحداث . وما أملته العوامل الأخرى أساساً . والسياسية والديموغرافية ، فضلا عن العوامل النفسية والتربوية والدينية بصفة عامة .

ففلسفة التاريخ باختصار ، هى تعليل للتاريخ ارتكازاً على وقائعه وأحداثه ، بمعنى مادية التاريخ المجسدة فى الفعل التاريخى لا الفكر التاريخى ، وتهدف حينما تواجه هذا الفكر التاريخى بالفعل أن تعلل لماذا المنعرج أى لماذا الأزمة ؟ لا ، لماذا الاستقرار ؟

ففلسفة التاريخ هى فى الواقع فلسفة أزمات التاريخ ومنعرجاته الكبرى ، فهى حينما تقول لماذا ؟ لابد من حدث يستحق التساؤل وإلا « فلماذا » لا أساس لها . لماذا قيام هذه الأمة فى زمن ما ؟ ومكان ما ؟ ، ولماذا سقوط الأخرى ؟ . وحينما تستنطق باسم الباحث عن العلة أو السبب لا تستنطق المؤرخ ، وإنما تستنطق البنية الاقتصادية والسياسية والديموغرافية بما فى ذلك نمط الإنتاج السائد وعلاقاته . ثم التناقضات التى سادت هذه البنيات . وما تحكم فيها من خلفيات آلت بها إلى السقوط أو إلى التجاوز والإشعاع . وعليه ، ففلسفة التاريخ حينما نحاول موضوعيا أن نوظفها سنجد أرضية عريضة ومتعددة تتعامل معها انطلاقا من لماذا الأولى ! لماذا السقيفة ؟ ولماذا الردة ؟ ولماذا المواجهات الكبرى التى تزيت بالفتنة الكبرى ؟ ولماذا الأموية والعودة

المقنعة إلى النعرة والعصبية وما ترتب عليها من تناقضات شعوبية ؟ ولماذا العباسية (نسبة لعباس) ولم تكن علوية (نسبة لعلى) ؟ .

ثم تستمر تساؤلات حقبة التاريخ حقبة تلو حقبة ، محاولة تعليل قيام الحركات التى شغلت حيزاً من تاريخنا قرامطة وديلماً وزنج ، إلى غير ذلك من الحركات ، بل لماذا العثمانية ؟ ولماذا الأندلسية ؟ ولماذا الطائفية المنهارة ؟ فهى فى الواقع القادرة على أن تلقى بالأضواء الموضوعية على مخاضات ومنعرجات يقف الإنسان العربى المسلم أمامها الآن ، وهو فى حيرة بين « لو أن » ، وبين هكذا كان الضياع .

لهذا آن الأوان أن تستغل قدرة فلسفة التاريخ فى حد ذاتها دون أن تقنع فى ثوب ماركسى يعبأ كل التعاليل لافتراضات حتمية فى النهاية قد لا تكون لها علاقة مباشرة مع منطق الأحداث وما أملاه الواقع .

وعليه ، فنعم لفلسفة التاريخ شريطة أن تكون فلسفة تاريخ أمتنا لا صورة ، نسخة ممسوخة لفلسفة تاريخ أمم أخرى انطلاقا من مسلسل التقليد والمحاكاة .

وسيبقى علينا بعد ذلك حتى تكمل الرؤيا المتعددة والإمكانات المتنوعة لدراسة تراث المسلمين كتاريخ أن نحاول الاستعانة بتخصص لا يمكن إغفاله فى هذه الحلقة . ونعنى به سوسيولوجية التاريخ ، وكيف توظف لما فيه مزيدا من التعرف والتعريف بقضايا تراثنا الخالد . وبهذا التوظيف هذه الحلقة قبل الانتقال إلى الحلقة التالية .

فماذا نعنى أولا بسوسيولوجية التاريخ ؟ وكيف يمكن استئناسها وتوظيفها فى تراث المسلمين ؟ .

سوسيولوجية التاريخ هى تخصص من التخصصات التى تحاول أن تعيد النظر فى المعلومات التاريخية على ضوء منهج محدد وهو المنهج الذى يستعين بأرضية سوسيولوجية فى التنظير . ولنوضح القول : من المعروف أن السوسيولوجيات التخصصية ذات الطابع الميدانى ، أى التى تدرس ظواهر ملموسة فى الواقع ومعاشه لها وسائل وطرق بحث محددة فيما يعنى

مرحلة التوثيق أو التعامل مع الظاهرة فى عين المكان . مع أن الملاحظـــات المباشرة والمشاركة . ثم لها شروح وإمكانات تفسير ترتكز على مرجعيــة قد تكون بنيوية توظيفية حيث تعطى أهمية لشبكة العلاقات والفعل وردود الفعل . أو مرجعية جدلية مادية ، كالشروح الماركسية حيث تعطى أولوية لمادية التاريخ وحتميته ولأنماط الإنتاج وعلاقاته وقواه بهدف إبراز الصراع الطبقى ومآليته كذلك التركيز على أولوية العامل الاقتصادى . أو بمرجعية أمبريقية بمعنى جدلية واقعية حيث تعطى أولوية فى الشروح للوسط كمـا هو وعلى ضوء ما يمليه يكون التعامل مع التناقضات دون مبيتات مسبقة هذه التيارات الثلاثة من الشروح السوسيولوجية توظف أساساً فى الفــروع التخصصية التى تتعامل مع الظواهر الملموسة .

فهل يمكن توظيف هــذه الشروح أيضاً ، بالنســبة لظــواهر عيشت وانتهت كالظواهر التاريخية ؟ وإلى أى حد يمكن لهــذه الشروح أن تتمتع بالمصداقية فضلا عن الصلاحية ؟ .

فيما يعنى الجدلية أو التيار الماركسى ، سوسيولوجية التاريخ أســاساً تشكل مناخا ملائماً لإبراز حيثيات مادية التاريخ وحتميــة الصراع الطبقى ولكن تظل نتائج هذه الشروح محدودة الأبعاد . وذلك لغيبة عنصر المشاهدة والمشاركة . فهذا التاريخ الذى تسسلجه النظرية الماركسية هو فى الواقــع تاريخ متصور على ضوء إمكانات القرن التاسع عشر الميلادى ومعطياته . فالبشرية برمتها كتاريخ احتكم فى تقنينها لقــرن محــدد ، بل ولم يكتفى بتقنينها تاريخيا بل قنن مستقبلها أيضا من خلال عصر ماركس . لذا فنسبية التوثيق التاريخى خصوصاً حينما نضع فى حسابنا ما صودر وما ضــاع ، وما حرف ، وما خضع للأهواء سيصبح حجم وكم التاريخ المتمتع بالمصداقية محدودا للغاية فيما يعنى المقارنة بما حدث فعلا فما لدينا من وقائع وأحداث نتصيدها هنا وهناك ، هى فى الواقع مؤشرات لمعالم التــاريخ وليست كل التاريخ .

ولكن ، هل معنى هذا أننا نقف وقفة المشلول غير القادر على الحركة أمام قصور المعلومات التاريخية ، أم نحاول أن نتفهم هذا القصور ونطــرح

لسسلجته لا مجرد مبيتات متصورة ولا مضاربات على شبكة علاقات وأفعال بدورها لا تتمتع بالمصداقية الكاملة والوفية لما وقع ، وإنما نستنطق ونستجوب الواقع التاريخى بعد أن حاورناه باسم علمية التاريخ لتحديد مدى صحته وثباته . نستنطق ونستجوب مرة أخرى ما تم ثباته ، وتأكدت صحته بهدف طقسنته ونعنى بذلك ربط الثابت من الأحداث والوقائع ببنيات المجتمع أسرية أو جماعية أو مجتمعية ، ونحرك العوامل الرئيسية المؤثرة ، اقتصادية وسياسية وتربوية دينية ونفسية وديموغرافية لنحد من تحكم آحادى قد يطرح . وهذا هو دور سوسيولوجية التاريخ ، كجدلية امبريقية ، ونعنى بالتحكم الآحادى تحكم عالم التاريخ ، أو تحكم فيلسوف التاريخ ، فضلا عن الانتفاخ أو الضمور ، أو الافتعال أو التذوق إلى غير ذلك مما يمليه المؤرخ حين سرده لتسلسل التاريخ كما أشرنا من قبل .

فسوسيولوجية التاريخ من هذه الناحية ، وفى تصورنا المتواضع هى بمثابة حصار تكميلى يخفف من حدة أدلجة التاريخ أو انتفاخه أو تعويمه ، ولم لا أيضاً ضموره وقحطه ؟ لهذا كان ميلنا إلى توظيف مضمون طقسنة التاريخ وقابليته للتنفس دون استرخاء أو انفعال .

أما كيف نوظف هذه السوسيولوجية التاريخية ومن هذا المنظور ، بالنسبة لتراث المسلمين ، فهى تأتى فى توظيفها بالمقام الثالث بعد علمية التاريخ وفلسفة التاريخ . كمثال : إن كان علم التاريخ يحاول أن يواجه فكر التاريخ بالفعل التاريخى وقائع وأحداث كما أشرنا بهدف التحقق مما هو صحيح وثابت فى التاريخ ، وإن كانت فلسفة التاريخ تتحرك لتعليل الأزمات والمنعرجات الكبرى والمنحدرات فى تاريخ الأمة . فسوسيولوجية تتميز بنمذجتها لفترات تاريخية محددة ، لها طابع الأهمية ، بل والموقع المصيرى للأمة فى محاولة تفهمية ، تهدف أساساً إلى التعرف على مدى ارتباط الوقائع والأحداث ببنيات المجتمع وتراثه كمؤثر ومتأثر . مثلا : عصور الإشراق فى الفترة الأموية أو العباسية بعد عصر القدرة فى فترة النبوة والراشدين كذلك عصور الاضمحلال والأزمات ، نهاية العباسية ، نهاية الأندلسية ، الأزمة المعاصرة يمكن لسوسيولوجية التاريخ أن تطرح

شرحاً يستفيد من أرضية عالم التاريخ وفيلسوف التاريخ لتعطى لنا نتائج مقبولة ما أمكن فيما يعنى أثر البنيات الاجتماعية كأسر وجماعات فى دفع المجتمع العام كذلك أثر التراث فى كل أبعاده ، فى هذه البنيات ، وتأثرها بها وتأثيره فيها ليملى صيرورة متطلعة أو صيرورة متراجعة . لتساؤلات يمكن أن يطرحها المسلج للتاريخ ، مناخ الحرية الذى مورس فى عصر الراشدين ، كما مورس فى فترات الحكم الأموى والعباسى . ومورس فى الأندلس ، انعكس على البنيات الاجتماعية وأثر فيها ، كما أن البنيات أثرت فيه وانعكست عليه . فكان المد والدفع والإشراق . كذلك مناخ التحكم والشخصانية والبعد الواحد ، إلى أى حد انعكس على البنيات الاجتماعية وأثر فيها . كما أنها انعكست عليه فى دورة لاحقة وأثرت فيه . فلم يعد القهر والاختناق يرى فقط على مستوى شمول الأمة وإنما على مستوى الأسرة وعبر الجماعات إذ أصبح لكل حقيقته ، منه وإليه ، بلاشك ممارسة سوسيولوجية التاريخ دون مبيتات ولا خلفيات سوف يعطى لنا مزيداً من الفهم والتفهم لتراثنا وأن حركة الأمة ليست أحادية وإنما متكاملة وما فيها من آليات من الأولى أن يطرح بفضل شروح شمولية كفيلة بأن تعطى لنا صورة واضحة ما أمكن عن تراثنا لا كقوالب ومعالم وعناوين وإنما مضامين عيشت على مستوى الإنسان والأسرة والجماعة والأمة صهرت وانصهرت إيجابيا أو سلبيا .

وعليه فسوسيولوجية التاريخ ، بما تمليه من طقسنة للتراث بدورها يمكن أن تضيف حلقة لا تقل أهمية عن حلقات علم التاريخ وفلسفة التاريخ .. ويمكن أن تسهم وتمهد لتوظيف واستئناس آخر فيما يعنى التخصصات المستجدة فى علوم الإنسان الحديث والمعاصر كالانثروبولوجيا والاقتصاد والسيكولوجيا ، والسياسة ، فضلا عن علوم بينية أخرى يمكن توظيفها كالديموغرافيا والجغرافيا واللسانيات إلى غير ذلك مما تغص به ساحة الفكر المعاصر .

وهذا سيكون موضوع الحلقة التالية من حوارنا .

* * *

(٧)

قضايا تراث المســـلمين
وعلوم الانسان المستحدثة

وقد انهينا ما طرحناه من حوار فى دار التــاريخ ، جاء دور المستجد فى علوم الانسان وما أكثر ما استجد فى القرن التاســع عشر ، وفى القرن العشرين ، فلم يعد هذا الانسان ليعــرف ذاته وانما قرر وباسم العقل المتمرد والوعى الشقى بعــد أن اكتشف بعض خبايا الظواهر الطبيعية ، تفتحت شهية ليكتشف خبايا الربع الأخير من المجهول وهو الانسان وان لم يكن كله فعلى الأقل بعضه، ومن ثم كانت التخصصـــات الانثروبولوجيـــة والتخصصـــات السيكلوجية والسوسيولوجية فضلا عما حولها من العـــلوم الاجتماعية المحدثة كالديمقراطية والاقتصـــاد ، والقائمة طـــويلة وســـنكتفى على الأقل كمثـــال بالتخصصات التى تعالج عمـــق الانسان ، وهى الآن وباسمها تتحدى فئة من الوضعيين الماديين ، اتخذت من الدين موضعا للتعرية والالغاء ، ولا يمكن أن نتجاهل هذه القضية فى حوارنا ونعنى بها :

ماذا عن قضايا تراث المسلمين وعلوم الانسان المســتحدث ، وهل يمكن للمسلم أن يتعامل مع هذه العلوم المستجدة ليجعــل منها سلاحا يضاف الى اسلحته ودروعه لا سلاحا يضــاف الى اسلحة ودروع محاربيه ؟ .

* * *

وينطلق بنا الحوار حول تراث قضايا المسلمين ، لنتعامل مع ما استجد من تخصصات مستحدثة فى علوم الإنسان . فإن كنا أفردنا الحلقة الماضــية لقضايا تراث المسلمين أمام علمية التاريخ وفلسفته وسسلجته نحاول الآن أن نستكمل هذه المسيرة لنرى إلى أى حد يمكن استئناس وتوظيف التخصصات المستجدة هذه فى علوم الإنسان ؟ ، بالنسبة لتراثنا ، وهل يمكنه أن يقيم

مادة وتتاجا يستطيع بفضله الباحث الانثروبولوجى العربى الإســـلامى المتخصص ، وكذا السوسيولوجى والسياسى والاقتصادى ، كل فى إطـاره ليتحاور بهدف محدد وهو : طرح تساؤلات موضـوعية بغية المزيـد من الاســتنارة والتعرف على ما فى منجم تراثنـا من عطاء . فضـلا عن مدى الاستفادة من هذا التراث العملاق فى تخصصات بينية أخرى حول عـلوم الإنسان المعاصر . ومستجداته كالديموغرافيا ، والجغرافيا ، واللسانيات إلى غير ذلك مما تزخر به ساحة الفكر العلمى حالياً .

فيما يعنى الجغرافيا والديموغرافيا والاقتصاد لا جدال أن ما لدينا من كتب حملت إلينا التراث فى إطار الرحلات والتعرف على الشعوب ما يشكل مادة خصبة للتعرف على جذور الظواهر الديموغرافية المعاصرة ، السـكان وتنقلاتهم ، وترحلهم . وهجرتهـم إلى جانب أصـولهم ، وانتماءاتهم ، وكل ما يمكن أن يفيد أرضية الدراسات الديموغرافية . كذلك الجغرافيا لا يمكن لأحد أن ينكر أو يتنكر لإسهامات الجغرافيين العب وأصـحاب المسـالك والممالك ، الإدريسى وغيره ، بل وخرائطهم وأوصـافهم الدقيقـة للمنـاخ والتضاريس وطبيعة الأرض التى عبروها فى ترحالهم ، وكشفهم واكتشافهم . بل لا نغالى إذا أكدنا ما ذهب إليه البعض من تصدر دور الجغرافيين العرب ليس فقط فيما يعنى المجتمعات العربية الإسلامية فقط ، بل وحتى مجتمعات الآخرين ، مجرد مثال ابن فضلان وما قدمه لنا من معلومات عن المناطق التى ذهب إليها فى أوروبا وروسيا بصفة خاصة . وحتى ما ورد عن بلاد الشمال ، وكذا الغزال الأندلسى ، وغيرهما الكثير . فتراثنا غنى بعطاءه الجغرافى . وكفيل بأن يوظف إذا ما حسن استئناسه لما فيـه مزيد من إشراق عطـاءه وإبراز معطياته . وحتى الاقتصاد بدوره يمكن أن يوظف كعلم مستغلا لعطاء تراث أمتنا ، لا لكى نعيد ما عيش ولكن لنستنير بجذور وأصول واقعنـا الاقتصادى بما فى ذلك نظام الجباية والخراج ، وبيت المال ، ولكن يظـل التساؤل المطروح : هل من الأولى أن تستغل هذه المعطيات لتشكل تخصصا حديثا قائماً بذاته ينعت بالعربية الإسلامية كالديموغرافيـا الإسـلامية ، والجغرافيا العربية الإسلامية ، علم الاقتصاد الإسلامى العربى ، خصـوصاً

هذا التخصص الأخير الذى تمت فعلا محاولات حوله لتعطى حيثيات لهـا خصوصياتها فيما يعنى الاقتصاد وتطبيقه فى أمة الإسلام .

إلا أنا ، كما أشرنا وفى بداية الحوار فى حلقته الأولى . تتبنى كمعيارية أن نعطى لكل ذى حق حقه . فالإسلام كما أسلفنا الذكر ليس له قضية تراثية . فهو كعقيدة إيمانية ، وكشعائر وحدود ، ومبادىء خالدة له حضور حى ونشط فى قلوب ملايين المؤمنين . ومن الخطأ أن ينظر إليه نظرة تحنيطية وثائقية كأرشيف أو دار محفوظات يستشهد بها فى المناسبات .

وعليه فإن كان ولابد من توظيف للإسلام لا توظيف تراث المسلمين فلا احتكام إلا لأصوله : القـرآن والسنة . وبالمعيـارية التى حددناها من قبل .

أما قضايا تراث المسلمين وهى التى تعنينا فى هذا المستوى من الحوار ، فنرى أن الطـرح من الأولى أن يركز على الواقع كما هـو أى الجـانب البشرى ، المسلمين كبشر ، له متطلبات ومعطيـات وحاجيـات كما أن له طموحات وتطلعات موضوعية . هذا البشر الذى قدم لنا تراثا عبر عصـور تجاوزت الأربع عشرة قرنا وهو تراث بشرى من حيث الممارسة وإسـلامى من حيث الراية والانتماء . علينا أن نقوم بتقنينه آخذين بعين الاعتبار بشرية مغزى هذا التراث وإلى أى حد هذه البشرية تصرفت محاولة الاحتماء فى الإسلام ، أو التكلم باسمه ، أو الانتفاع بدفعه وعطاءه ؟

فحينما نقول اقتصاد ، أو ديمغرافيا ، أو جغرافيا فإننـا نعنى اقتصـاد البشر وديموغرافية البشر ، وبالضرورة جغرافيـة طبيعـة البشر . وليس اقتصاد القرآن أو ديموغرافية القرآن ، أو جغرافية القرآن . فهو أسـمى وأخلد من النزول إلى هذه الممارسة ذات التصـويب والتخطىء . ولهـذا نوظف معطيات البشر من خلال التراث كى نسـتنير بهـا فى التعرف على حاضرنا ، والتطلع إلى مستقبل أفضل . لهذا نميل إلى تبقى ديموغرافيـة العالم الإسلامى أو الأمة الإسلامية ، وكذا علم اقتصاد العالم الإسـلامى أو علم اقتصاد الأمة الإسلامية . وعليه يكون القياس ، وسنحاول أن نجسد هذه الممارسة من خلال نموذج ، وإليك الأكثر نشاطاً وحيوية فى مجتمـع

اليوم : علم الاقتصاد ، وكيف يمكن أن نوظف تراث المسلمين فى البحث عن خصوصيات لأمتنا فى ظاهرتها ، الاقتصاد كبشر ، ولكن أولا وقبل كل شىء يحمل راية الإسلام . ويعتز بالانتماء إليه .

لاشك أن الظاهرة الاقتصادية فى مجتمعنا اليوم الاستهلاكية تتصدر إنتاجا ، وتبادلا وتوزيعا واستهلاكا كما تتصدر فى تصنيف الأمم والأقطار بين متقدم فى اقتصادياته ومتخلف ، بين مركز ومحيط ، بين متبوع وتابع وتفرض حين التقنين معايير فى النهاية ومقاييس إما بخلفية ليبرالية ترتكز على الرأسمالية وربحيتها ، وإما خلفية ماركسية ، ترتكز على الجماعية وأولوية التشغيل على الربح بين الاتجاهين يتردد العالم الإسلامى مدفوعا إلى التهميش لهذا ، أو تلك بل أصبح فى الآونة المعاصرة فى هذا القرن مرتعاً للباحثين عن الربح ، ومستودعا استهلاكيا لما تبقى من فائض إنتاج المتقدمين ، ومنجماً تستخرج خيراته فى غالب الأحيان دون ما يتمشى وحقيقة قيمتها ، بل وفى سنوات ماضية كانت تستخرج فى غيبة من الزمن ، وبما يعادل المجانية . إذ أن الاستخراج والتسويق والتسليع كانا من اختصاص الغير ، فهى أمة حارسة لأموالها مالكة لها .

وفى هذا الإطار بدأت تطرح تساؤلات : هل يمكن لاقتصاد إسلامى أن يلعب دور المنقذ فيعطى لهذه الأمة نسقا اقتصادياً متميزاً لا ينتمى لليبرالية أو الماركسية إنما يستقى مصادره من الأصول الإسلامية . وكانت ارهاصات للدعوة لعلم اقتصاد إسلامى ، بل خرجت مؤلفات عديدة تحمل هذه التسمية وكلها تركز على مبادىء الإسلام من حيث الزكاة ، والصدقة ، ومحاربة الربا ، ثم ما لمس من تطبيق فى بعض العصور الإسلامية لنظام الجباية ، وبيت المال والخراج ، واجتهد المجتهدون كل يدلى بدلوه نظراً لما لظاهرة الاقتصاد من تصدر وأهمية .

فيما يعنينا كتوظيف للاقتصاد على ضوء تراث المسلمين هو ليس بالضرورة البحث عن علم اقتصادى إسلامى تنظيرى نصوصى يتغير بتغير عصور الظاهرة الاقتصادية لأننا كما أسلفنا الذكر الاقتصاد ظاهرة بشرية تتكيف حسب متطلبات ومعطيات البيئات والمؤثرات التى تحرك الإنتاج ،

وتحدد قواه وعلاقاته وتطرح طبيعة التبادل والتوزيع ومحيط الاستهلاك .
ولهذا سوف تتعامل مع الظاهرة الاقتصادية من خلال تراث المسلمين كبشر كان لهم اقتصاد فى مختلف العصور فيما له طابع الندورة وإمكانات التبادل والاستهلاك ولكن كانت المبادىء الإسلامية هى التى منها كانت تستلهم مسيرة التصرف الاقتصادى ، وعليه إن كان ولابد من تجربة اقتصادية عبر التراث فمن الأولى أن تنصب على السلوك الاقتصادى وكيف كان يتواءم مع مبادىء الإسلام الداعية إلى الوسطية فيما يعنى التدبير الاقتصادى ومردوديته ، **« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »** (1)
ومن ثم فالتراث يقدم لنا مادة خصبة تثرى تفهم المسلم فى كيفية تعامله مع الظواهر الاقتصادية ، مراعيا لحدود الله ، ملتزما بأركان الإسلام من حيث حق السائل والمحروم عبر الزكاة والصدقة وتجنب الربا بكل ألوانه الصريحة والمضمرة ، وخصوصاً تحاشى المغالاة فى الإشباع الاستهلاكى الذى اتجه بها إلى النهم الحيوانى مما جعل إطار القيم والمثل تهتز أمام الشهية الشرسة فى الاستحواذ والاستهلاك وهكذا الاقتصاد الإسلامى للمسلمين كبشر ، آن الأوان أن يطرح على ضوء ، أو هدى أساسين : الأصول الإسلامية من ناحية ، والتعامل مع الظواهر الاقتصادية كما حمله إلينا تراث المسلمين عبر القرون من ناحية أخرى دون أن نلزم القرآن والسنة بعلم اقتصاد إسلامى ، المفروض أنه يتغير ويتجدد ، يخطىء ويصيب ، يتكيف ويكيف انطلاقا من ضرورات الحياة ومتطلبات العصر الذى يطبق فيه .
وهذا ما يجعلنا نميل إلى مضمون علم اقتصاد عالم إسلامى ، أى بشر أمة أو دولة أو قطر . تحاشيا للنزول بالقيم والمبادىء الإسلامية السامية إلى مستوى خطأ البشر أو خطيئته فى التطبيق والممارسة والتعبير عن الخلفيات .

وهذا بدوره ما يمكن أن نتبناه فيما يعنى علم السياسة ، وهل من الأولى أن يكون علم السياسة للقرآن والسنة وما حولهما من أصول أم علم سياسة للبشر الإسلامى ؟ .

---

(1) الاسراء : ٢٩

هذا الخيار يجعلنا نتساءل حول الظاهرة السياسية ، وباختصـار كيف يمكن تحريكها تحت راية الإسلام ، وعبر التعامل البشرى ؟ .

من البداية نستبعد بل نبرأ بالقرآن أن يتحول إلى موسوعة سـياسية بالمفهوم الذى وضع للسياسة خصوصاً انطلاقا من ماكيافيل ونظرية تربيـة الأمير ، وكيف أنه لا أخلاق فى السـياسة وما يلاحظ حاليـا من ارتبـاط السياسة بمعايير استراتيجية وتاكتيكية تزكى الغدر ، وتدعم المضـاربات ملتجئة إلى الحيل والمراوغة وخداع الآخرين .

السياسة تحت هذه المضامين لا علاقة للقرآن والسنة والسلوك النبوى الطاهر وما حولهم بها . ومن ثم فالإسلام حينما تصدى لتسيير أمور المسلمين تحت راية الله ، وضع لذلك مبادىء تؤمن الصدق والحق والمثل العليا لترقى بالإنسان . فمجرد استذكار ما ورد فى أصولنا الخالدة ، من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » ، نرى إلى أى حد مبادىء ديننا الحنيف وضحت المسئولية وحددتها كذلك جعلت النية معياراً لكل عمل . وذلك تحاشيا لكل تحايل وتبرير وخداع فالحديث الصحيح وبه بدأ البخارى رضى الله عنه صحيحه : « إنما الأعمال بالنيات » « وإنما لكل امرىء ما نوى » . نورد هذه اللمحات كى تؤكد أن الأصول الإسلامية حينما عالجت العلاقات فى المجتمعات الدنيوية ربطتها أولا وقبل كل شىء ، بخشية الله ومرضـاته . وعـرت كل باحث عن الغش والزيف والغدر عن أى حيثيات يصطنعها ليصل بها إلى مآربه .

لهذا نرى أنه من الأولى ، وإن كان ولابد من طرح لعـلم السـياسة فإليك كما هو الحال بالنسبة لعلم الاقتصاد على مستوى البحث فى البشر . ومدى تكيفه وتفهمه للمبادىء الخالدة ، لا إخضاع المبادىء الخالدة لمقياس تقنينى ونقدى ، ومحاولة لويها لكى تحقق بها مطالب دنيوية وأغراض ذاتية .. فالمعنى بعلم السياسة فى الإسلام ليس النزول بمبادئه لتجرى عليهـا التجارب والاختبارات وتركها فى مهب أهواء البشر ، وإنما الارتقاء بالبشر سيصل إلى فهمها وتدبرها ، واستئناسها وتوظيفها .

وعليه فعلى سياسة العالم الإسلامى ، كنظام شامل لأمة الإسـلام أو

نظام متعدد بتعدد بيئات بشرها فى الأقطـار من الأولى آن ينطلق بدراسته للظواهر السياسية لدى البشر المسلم ، ووصفها وتحديد خصائصها ثم فى المرحلة الثانية ، تحـدد العوامل التى تزكى وتدفع المجتمعات الإسـلامية لترقى إلى مستوى رسالتها ، كما تحدد العوامل التى تشـكل حواجـز وموانع تعتم الرؤيا وتفصل بين المسلم وعقيدته سواء بما يفرض عليه فرضا من إشكالات بهدف استنزافه ، أو تحذيره ، أو إضعافه ، وما يفتعل لقيادات الأمة الإسلامية من بؤر فى طريق مسيرتها . ثم تأتى المرحلة الثالثة والأخيرة لهذا العلم لتحاول طرح مواءمة المسلم . وفى داخـل عصره لا فى خارجـه لمبادىء الإسلام الخالدة من خلال قنوات محددة تتصـدر فيهـا قنـاة « الشورى » ، ووحدة الأمة ، والتقاءها فى الله ، وأن لها رسـالة بين الأمم هى أن تكون أمة وسطا كمعيارية تشهد على ما حولها ويستشهدوا بها .

هذه معالم رئيسية يتحرك فى داخلها علم سياسة البشر الإسلامى لا علم سياسة مبادىء الإسلام دون إفراط أو تفريط . فالقرآن والسنة أسـمى من أن يوصفا بأنهما موسوعة لعلم سياسة ، وإنما رسالة إلهية لإنقاذ البشرية .. بينما البشر الإسلامى يظل موضوعا لهذا العلم الذى يسعى لتحقيق هدف رئيسى وهو مدى تفهم المسلمين للمبادىء التى خطتها أصول دينهم لتيسير علاقاتهم وتعليل سلوكهم ولهذا فنميل إلى أن يكون علم السياسة خاصـاً بالعالم ، أو الأمة الإسلامية كبشر .

وكما حاولنا طرح معايير لهذه التخصصات السابقة كالديموغرافيـا والاقتصاد والسياسة ، بغية توظيفهم لما فيه صالح المسلمين ، واسـتغلالهم لما استجد فى عصرهم من اجتهادات علمية ومنهجية ، يمكننا أن نضيف أيضاً اللسانيات ، وكيف يمكن أن تسهم بدورها كمستجدات لتكمل الطـريق جنبا إلى جنب مع علوم اللغة العربية الأصيلة نحواً وصرفاً وبلاغة وعروضاً إلى آخره ، دون أن تزعم أو تدعى أنها جاءت لتكون بديلة لها . حيث إننا حاليا نشهد هنا وهناك اجتهادات تحت راية اللسانيات تحاول الاسـتفادة مما يدور فى هذا العصر من دراسات لغوية توظف الشروح البنيوية والوظيفية وتتلاحم مع المنطق والفلسفة .

إلا أن هذه الأمــور فى الواقع ليست بالجـديدة على تراثنا الزاخـر بالاجتهادات اللغوية بما فى ذلك فلسفة اللغة ومنطقها ، ودلالاتها ، ومعناها ومبناها لهذا من الأولى أن تكون المرتكزات للباحث عن استئناس اللسانيات المستجدة والمعصرنة أن يكون مستوعبا أساساً لكنوزه اللغوية فلا يقبل من لسانى أن يملى على اللغة العربية خصائص لغة أخرى باسم الحداثة والتجديد خصوصاً إذا ما وصلت به المغالاة إلى حد اللحن والخطأ فى لغتـه الأم ، وعدم إجادته حتى لمظهـرها فى التعبير والصـياغة ، فخـير من يتصـدى للسانيات هم : النحـاة والصرفيون وفقهـاء اللغة العربية ممن تعمقوا فى أصولها واستوعبوا مدارسها النحوية المختلفة بل ، ولم لا ؟ خير من يجدد فى اللسانيات العربية هو الذى استطاع كمجرد رمز نسـوقه ومعيـار أن يستوعب ألفية ابن مالك كما يستوعب أحدث ما وصلت إليه دراسـات اللغويين فى الحضارات الأخرى عبر هذا العصر .

ولهذا فاستئناس وتوظيف اللسانيات مشروط بجدارة من يوظفها وجهبذته فى لغته إلى جانب عملقته فى لغة الآخرين . وهو فى توظيفه هذا كما أشرنا لهذا فى البداية لا يسعى إلى إحلال جديد بقديم ، أو مستحدث بمستقدم وإنما يضيف إلى ما خطه فطاحل لغتنا ما يمكن أن يسهم فى حل مشـاكل المتكلمين باللغة لا مشكلة اللغة ، فليس للغتنا أية مشكلة .

وفى إطار جولتنا لتوظيف التخصصات المستجدة فى علوم الإنسـان واستئناسها فى تراث المسلمين نشير فى النهاية إلى تخصصات ثلاثة منهـا ما استئنس نسبيا . ومنها ما هو فى طريقه إلى الاستئناس .

ونعنى بذلك الانثربولوجيـا (اجتماعية أو ثقافية) والسـوسيولوجيا (علم الاجتماع) والسيكولوجيا (علم النفس) من نتاجه الاجتماعى روحياً وماديا عبر عاداته وتقاليده وأعرافه وأنسقه بصفة عامة كما صور الاتجـاه الإنجليزى الانثربولوجيا اجتماعيا أو عبر نتاجه الثقافى فى إطاره الشـمول كما نحا إلى ذلك الاتجاه الأمريكى بالانثربولوجيا ولا شك أن تراث المسلمين يقدم لنا منجما غنيا بعطائه عبر مختلف العصور ولقـد قام ابن خلدون فى مقدمته بتوظيف للمعطيات المعاصرة له وما سبقه انثربولوجيا من خـلال

مناقشته لظواهر التجانس فى المجتمعات العربية الإسلامية مثل العصبية والإمام وتحديد عناصر التهيؤ كالبداوة وما حولها ومدى فاعلية هذه الظواهر وآثارها فى بنية المجتمعات وتطورها أو اضمحلالها فهو فى ذلك يقدم نموذجا لا يستهان به فى إطار الانثربولوجيا الاجتماعية يجعل ابن خلدون جديراً بأن يمدرس أيضاً كما اهتم فى أصول هذا التخصص الذى يركز حاليا على دراسة مقومات التجانس فى المجتمعات البشرية المعاصرة بعد أن كانت اهتمامات هذا التخصص منصبة أساساً على المجتمعات التى لغتت بالبدائية .

لهذا يمكننا بالنسبة للفترات التالية لابن خلدون أن نكمل مسيرته . وذلك بهدف تأصيل ما جاء به أو التحفظ على بعض مقولاته مع التعليل لماذا التحفظ ؟. وبالتالى يصبح ابن خلدون محوراً من محاور اهتمامات الانثربولوجيا العربية تراثيا . ولعل هذا أولى به من أن يحمل معطيات تخصص ارتبط أساساً بعصور تالية وبخاصة بمستجدات محددة تتصدر فيها الظاهرة الصناعية وردود فعل الاقتصاد السياسى وإمكانات الإحصاء للمجتمعات البشرية إلى جانب نضوج المنهج ، وكل ما يمكن أن يدفع بهذا التخصص إلى مزيد من العطاء ونعنى به السوسيولوجيا أو علم الاجتماع .

وهنا نطرح هل هذا التخصص بدوره يمكن أن يوظف على مستوى تراث المسلمين ؟ بلا شك قد أجبنا على هذا التساؤل حينما طرحنا فى حلقة سابقة سوسيولوجية التاريخ كفرع من فروع هذا التخصص الذى يمكن إلى جانب فلسفة التاريخ وعلم التاريخ أن يعطى لتاريخ المؤرخين قالباً يتمشى وما يتمتع به هذا العصر من قدرة فى التقنين المنهجى ، والشروح الشمولية التى لا يمكن إنكار حضورها ، بل وعطاءها .

وتبقى بعد هذا بقية فروع هذا التخصص أى السوسيولوجيا ، لتحدد بالنسبة لها مدى إمكانات التوظيف أو الاستئناس .

هناك فروع تتطلب معاصرة المجتمع لأنها ترتكز أساساً على البحث الميدانى « فيلدورك » . ومن ثم فقضية التراث غير مطروحة ، اللهم فى إطار مدخلى للتعرف على أصول التناقضات أو الخلفيات عبر الشروح الجدلية

المادية أو الإمبريقية (أى الواقعية) . ونعنى بذلك الفروع الخاصة بالتنمية ، وتطور المجتمع . بينما هناك فروعا أخرى يمكن بدورها أن توظف مرتكزة على التراث ولو نسبيا ونعنى بذلك فرع السوسيولوجيا الدينية ، وسوسيولوجية المعرفة غير أننا نوضح أن المعنى هنا ليس الدين كعقيدة ، فقرآن وسنة ، فهذا جانب إيمانى بحت وإنما المعاملة الدينية إيماناً بالدين أو خروجا عليه لدى المستكبرين أو تحييداً له جزئيا أو كليا أو المضاربة باسمه .. كذلك مدى تأثير المعطيات الدينية على مستوى البشر فيما يعنى البنيات والعلاقات الاجتماعية . ومن ثم يبدو لنا أن الجانب المعاصر أكثر قربا فى التوظيف وفاعلية من الجانب الذاتى ، وهذا بدوره يمكن أن ينطبق على سوسيولوجية المعرفة وسوسيولوجية الأدب ، وسوسيولوجية التربية حيث إطار التمهيد لتعامل هذه السوسيولوجيات مع الواقع المعاصر تتطلب إحاطة بالتراث كأرضية لا يمكن أن تستبعد فى مثل هذه التخصصات وعليه يقاس فى بقية ضروب السوسيولوجيا ومناحيها .

وقبل أن ننهى هذه الحلقة الخاصة بتوظيف علوم الإنسان المعاصرة فى تراث المسلمين نطرح تخصصاً له ثقله وأهميته فى هذا العصر بين علوم الإنسان ونعنى به علم النفس (السيكولوجيا) حيث من الصعب أن ينكر أو يتنكر باحث أو متهم ما لهذا التخصص من أبعاد تتسع باتساع ظاهرة المعاناة والتعقد فى المجتمعات البشرية المعاصرة التى تطلعت إلى الإشباع الاستهلاكى دون أن تتخلى عن إنسانيتها ، بل تجاهر وفى كل المناسبات . أنها تمثل أزهى العصور الإنسانية . بينما التعلق بالإشباع الاستهلاكى ربما يرمز لأزهى عصور الحيوانية . وهذا ما دفع إلى مسلسلات من الإسقاط والإحباط ، لا تلاحظ فقط على مستوى الأفراد أو الأسر أو حتى الجماعات ، وإنما على مستوى الأمم المتقدمة وغير المتقدمة . ولكن بدرجات متفاوتة .

فيما يعنينا ، هل يمكن لتراث المسلمين أن يوظف فيه هذا التخصص بهدف التعرف على مقومات الشخصية العربية الإسلامية ، بل وطبيعة تكيفها تمثلا ومحاكاة وما يمكن أن يلقى ضوءاً على أغوار الإنسان العربى المسلم فى إطار الشعورى واللاشعورى على حد سواء . ذرائع فعله وحيثيات ردود فعله .

السؤال الذى سيطرح هل هناك مصادر ومراجع يمكنهما أن يساعدا فى تصيد الظواهر النفسية عبر عصور تراث المسلمين كيف كان يعانى المسلم نفسياً ؟ وكيف كان يتعامل مع معاناته ؟ وكيف يتخلص من شدائده ؟ بلا شك ما عرف فى تراثنا من مؤلفات تحمل عنوان ينبأ بما فى مضمونها ومحتواها ، ونعنى به مؤلفات الفرج بعد الشدة . وقد أحصى صاحب كشف الظنون حاجى خليفة العشرات . وأكثر منها نخص على سبيل المثال لا الحصر ، كتب الفرج بعد الشدة لكل من : المدائنى وابن أبى الدنيا ، وخصوصا المحسن التنوخى . ولقد أتيحت لنا الفرصة أن نتعامل بحثيا فى الخمسينيات مع هذا النوع من الفكر العربى الإسلامى ، وكان كحصيلة لهذا التعامل مؤلفا بالفرنسية من باكورة إنتاجنا يحمل نفس العنوان « القلق » أو الفرج بعد الشدة ، وركزنا فيه على التنوخى أساساً . وهو يجسد لنا طبيعة المعاناه والشدائد والتعامل معها ، والخروج منها بالفرج منذ ألف عام ، وكم سيكون مفيداً لو استمر هذا البحث الذى أهلنا له بدراستنا هذه ليستوعب ما تبقى من كتب الفرج بعد الشدة ، بل ويتجاوز الفكر المنصوص عليه صراحة باسم المعاناة النفسية للتعرف على مناحى آليات النفسية العربية شعوريا ولا شعوريا فعلها وردود فعلها من خلال النتاج الفكرى العربى الإسلامى بصفة عامة .

ومن ثم يمكن استيعاب خصوصيات النفسية العربية الإسلامية كنتاج اجتماعى ثقافى تأثر أولا بالعوامل البيئية ، والقيمية ، كما تأثر فى بنـاءه النفسى ونموه بخصائص التربية الأسرية والنسـق البيداغوجى للكتـاب (المسيد) ، ومن بعده الفقهاء ، وأصحاب العواميد فى مجالس العلم ، هذا فيما يعنى النخبة ، أما فيما يعنى الملايين من المؤمنين فيمكن التعرف بصفة عامة من خلال إعادة النظر فى تراث المسلمين لتوظيف معطياته بالنسبة لتوعية هذه الملايين توعية تتمتع بالصلاحية ، وتعبئتها وجدانيا تعبئة تدفعهـا إلى الخلق والإبداع انطلاقا من التبصر والعمق بدلا من المجـازفة والتهـور والاندفاع ، وعليه فهـذا التخصص النفسى الهـام آن الأوان أن يوظف ويستأنس عبر تراث المسلمين شريطة التعرف عليه بأصالة وتأهيل قبل التعريف به والاسـتيعاب لتراث المسلمين استيعابا شموليا قادراً يتوخى الأعمـاق ولا يكتفى برؤوس الأقلام ، ومعالم الطريق ، وذلك قبـل أى توظيف أو

استئناس وما نقوله بالنسبة لعلم النفس نكرره أيضاً فيما يعنى كل ما سبق من تخصصات علوم الإنسان وتعاملها مع تراث المسلمين .

وقد خصصنا لذلك هذه الحلقة من حوارنا لننتقل إلى ما تبقى من هذا الحوار الخاص بقضايا تراث المسلمين . وفيه سنطرح تراث المسلمين وتراث الآخرين فى محاولة لتكملة الحوار بالحوار . فإن كنا قد تحاورنا مع تراثنا فكيف نرفض امتداد الحوار إلى تراث الآخرين ؟ ولكن تبقى هنا إشكالة الوسطاء والمستثمرين ذوى النوايا الحسنة وكذلك من المغرضين . وهنا لابد لنا من المرور عبر المستشرقين وهذا هو موضوع الحلقة التالية قبل الحلقة التى سوف ننهى بها هذا الحوار والخاصة بتراثنا وتراث الآخرين .

* * *

(٨)

تراث المسلمين وأعمال المستشرقين

وسوف نتدافع فى حوارنا لنصل الى غرفة ـ لا نقول مغلقة ـ ولكن كثيراً ما تنبعث منها أضواء غريبة بقـــدر ما يراها البعض مشرقة ، بقدر ما يراها الآخرون على أنها أضواء ضبابية .. وأن هذه الغرفة بحدودها لابد وأن تفتح بحرية منطلقة ولا نقول تنبش وانما يناقش محتـــواها ويقلب فى مختلف أوضـــاعه .. ما له وما عليه .. خصوصا وانها فى النهاية تحولت لدى البعض الى ما يشبه الضريح الذى يزار وبه يتبرك فى الاستشهاد ، وتحولت لدى البعض الآخر الى وثنية وصنمية يعبدونها باسم الجهالة ، وآن الأوان ـ لا نقول لتدمير ـ وانما لنعرى عنها هذا الطابع الغريب المزدوج المتناقض .. غرفة المستشرقين .. ماذا عن قضايا تراث المسلمين وأعمـــال المستشرقين ، وهل من الحكمة ومن الأولى أن يقـــدم تعميما أم يجزأ وينوع ويصنف .. يقبـــل بكامله ، أم يرفض بكامله ، أم يؤخذ منه ما يتمتـــع بالمصـــداقية والعطـــاء ، ويفنـــد ويدحض ما يستشف منه المكر والدهاء فماذا عن هذه القضية ؟

* * *

ليس الهدف من عرضـــنا هذا فى هـــذه الحلقة أن نســـتعرض أعمال المستشرقين أو نتصدى لها بحثيا من حيث التفصيل والتخصص والتخصيص فعمل كهذا يجد مكانا له لدى المهتمين أساساً بقضايا الاستشراق من حيث هو .

كيف نشأ وكيف تطور وتعدد ، بل ما هى جـــذوره وارهاصاته الأولى ومختلف مدارسه ألمانية كانت أم هولاندية أم فرنســـية أم انجلـــيزية أم أسبانية الخ ، كما هو معروف . ولكن الذى يعنينا فى هذا الحوار الخاص بقضايا تراث المسلمين هو محاولة تقنينية لأعمال المستشرقين بين المحترف والفضولى ـ ولم لا ؟ ـ المغرض والمبيت وفى النهاية المعرف بالإسلام لدى تراث

الآخرين لإبراز قدراته وأصالته وما فيه من خلق وإبداع فكرى على مستوى الفنون والعلوم إلى جانب ما يرتكز عليه أساساً كدين وهو الوحى الإلهى والرسالة الخالدة للبشرية .

بلا شك البحث عن معيارية للتقنين سيطرح من البداية مواقع التخصص بين المستشرقين ، فهناك المتخصص فى علوم اللغة فى الأدب والشعر فى الفلسفة وعلم الكلام أو فى المسيرة الحضارية للإسلام عبر المسلمين كنظم سياسية ومؤسسات ، وأيضاً المتخصص فيما قدم الإسلام من فنون عمرانية وإبداع على كل المستويات ، كذلك هناك من اتخذ من الحركات الباطنية تخصصا ليلحقها بالتصوف أو يلحق التصوف بها .

هل حينما نبحث عن معيارية تتعامل مع هذه التخصصات بغض النظر عما يدفع المتخصص إليها من نوايا مبيتة وخلفيات ، أو الذى يدفعه مجرد الفضول أو اشباع الاحتراف البحثى فى إطار محدد . وفى النهاية ربما الإعجاب والتقدير لما أبدعه العقل المسلم من خلال تراث غطى فترة طويلة وعريضة من تاريخ الإنسانية . طويلة فى امتدادها الزمنى بين المشرق والمغرب والأندلس ، وعريضة أيضاً فى امتدادها المكانى من جبال البرانس حتى بحر الصين .

لهذا هناك استشراق واستشراق ، ومن الخطأ التعميم اللهم إلا إذا كان الهدف التعتيم أساساً وليس الحكم المعيارى الذى يحاول ما أمكن أن يعطى لكل ذى حق حقه ، فتراث المسلمين يفخر بمن حاول من المستشرقين أن يبرز عطاءه أو يعرف بأصالته وتأثيراته المختلفة فى الحضارات الأخرى وفى نفس الوقت يتأسى على هذه الفئة التى حاولت أن تكسب أرضية فكرية على حساب الإسلام بعد أن عجزت أن تكسب شيئاً فى أرضها وحضارتها الأم . وهناك تداخل القصور وعدم التأهيل فى الحضارة الأم مع القصور وعدم التأهيل فى الحضارة التى اتخذ فيها وسيلة لتوظيف عقده ومكائده بل — ولم لا ؟ — إسقاطه وإحباطه . وهنا تكتفى فى هذه الساحة المعتمة التى لا علاقة لها بالبحث العلمى الذى يمتطى الموضوعية ويرتكز عليها فئات متعددة تجمع بين المغرض والانتهازى والموسمى والباحث عن فورية الإشراق على

حساب الاستشراق بعد أن أعيته الحيل وكل — إن صح التعبير السائد فى هذا المقام — يغنى على ليلاه .

فشتان بين استشراق واستشراق . تراث المسلمين أمام أعمال المستشرقين آن الأوان أن يميز مصنفا لهذه الأنواع المتعددة من الاستشراق وسنحاول بدورنا أن نعطى نظرة سريعة وموجزة ما أمكن عن هذه التصانيف الرئيسية التى يمكن أن نجملها فى :

١ — استشراق الفضوليين .

٢ — استشراق المغرضين .

٣ — استشراق الاحترافيين .

٤ — وأخيراً العارفين المعرفين .

وبمعيارية أدق يمكن أن نلحق استشراق الاحترافيين باستشراق العارفين والمعرفين — كما ندمج إشراق الضديين ليلحق الفضوليين بالانتهازيين بين يائسين ومغرضين بمعنى من أوقفه فضوله أو انتهازيته فى بداية الطريق أمام عملقة تراث المسلمين وارتضى من الغنيمة بالإياب .

وهناك من أصر بعناد المغرض والموجه من أصحاب حاجات يعقوب ليلقى بسمومه وأحقاده بل وقصوره عن أن يحقق مكانة لائقة به فى حضارته الأم ليشبع تراث المسلمين بطعناته فى محاولة للأخذ منها ولكن فى النهاية ترتد إليه الطعنات لينال الإسلام منه بصفائه وصموده ومن ثم ما أراد أن يحسبه على الإسلام حسب عليه ، وما اعتقد أنه قصور فى الإسلام كشف فى النهاية ذاتية قصوره .

نوضح القول أمام أعمال المستشرقين يمكننا أن نميز بين تيارات ثلاثة :

١ — أعمال استهدفت التعرف على تراث المسلمين ثم التعريف به فى إطار طبعه التعاطف والتلاطف أو على الأقل تزيا بزى الموضوعية دون إخفاء ما فى هذا التراث من عطاء متميز .

٢ — تيار استهدفت أعماله العكس ، من البداية تعامل مع تراث

المسلمين بخلفية مبيتة تهدف النيل منــه والتجريح تحت ســتار العلميــة والمنهجية ولا يف بهذا التيار موكب التجريح والحقد الحقى المضمر عنــد حد تراث المسلمين بعد العصر النبوى ، وإنما يتجاوزه ودائما باسم علمية مفتعلة ومنهجية مكابرة لينال من قداسة أصول الإسلام ممثلة فى القرآن والسنة النبوية والسيرة العطرة . ومن ثم فإن كان مظهر المسيرة يتزيا بالعلم فجوهرها ومضمونها وأساسا يسعيان إلى إبعاد طابع القداسة عن الإســلام وتقديمه على أنه فعل اجتماعى جاء نتيجة لشرطيات الجزيرة العربية أملتــه العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية ، بل والطبقية ، عشائرية أو قبلية . ويبقى التيار الثالث الذى تعامل مع تراث المسلمين تعاملا حياديا . فميز بين الإسلام كدين له قداســته وله مكانته فى قلوب من يؤمنــون به وبين تراث المسلمين خصــوصا التراث الذى له طبيعــة الإبداع البشرى أدبا ، نثراً ، وشعراً ولغة ، فضلا عن ما قدمه تراث المسلمين من إسهامات فى ميدان العمران والفنون المختلفة . وعليه فهذا التيار حينــما تعامل مع ما حــول الجانب الاعتقادى من التراث ، كأعمال المتكلمين والفلاسفة والاتجاهات الصوفية ، تبنى إطاراً وصفياً ركز فيه على التوثيق التاريخى فى محاولة لتقديم صورة قريبة ما أمكن من الواقع التاريخى .

وعليه فمدى تخصص المستشرق يحدد لنا الغاية التى يسعى إلى تحقيقها انطلاقا من توظيفه لوسائله لهذا نجد التيار الأول والثــانى كلاهما اهتــم بالإسلام كعقيدة وحاولا معاً أن يبرزا لنا الأصول الإســلامية فيــما يعنى التيار الأول لإظهار إشراقها وجدارتها وفيما يعنى التيــار الثانى افتعــال ما فيها من محاكاة لما سبقها من الأديان أو إلصاق قصور وتصنع عورات ، خصوصا فيما يعنى التفسير والحديث والتصوف . كل هذا التصيد اللمم إن وجده وهو لم بشرى يضعف به الجانب الإلهى ويزيف من خلاله معطيات العقيدة ، وكثيراً ما يظهر التحامل والتصنع بشكل واضح فيما يعنى مسيرة الرسول ومراحل حياته المنيرة والمستنيرة ، وكأن سيرة الرسول هى سيرة إله لا سيرة بشر .

رسولنا (صلى الله عليه وسلم) أكد القرآن بشريته كما بشرية الأنبيــاء والرسل الآخرين مع توضيح العصمة وتحديدها فيما يعنى النبوة والرسالة

كإنسان بشر ، وكنبى ورسول معصوم فى نبوته ورسالته ، لا ينطق عن الهوى ، انطلاقا من هذا المعيار يمكن رد كيد الكائدين من هؤلاء المكرة الباحثين عن حاجيات شخصية ولكن فى مسميات علمية ومنهجية باعتبار أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) هو ابن عبد الله بن عبد المطلب وآمنة لا تغميض فى بشريته ، ولا ألوهية فى تجسيده ، مع هذا فيتيم قريش المصطفى المختار هو الرسول والنبى الذى أوحى إليه مبشراً ونذيراً ، ومن ثم فالبحث فى حياته الخاصة وفى علاقاته الأسرية هذا ضرب من الكيد الذى لا يمكن أن يتقبله باحث علمى لا يتحرك عبر الأهواء والخلفيات المبيتة ، وما يقال عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمكن أن نكرره بالنسبة للسنة وخصوصاً بالنسبة للقرآن . القرآن والسنة أصول الإسلام يحتكم إلى مضامينها ، وخير ما يستقى فيها من عاصرها لا من عاش فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين . يتصيد ذبابه ليفتعل منه ذبابا للآخرين بهذا التيار الاستشراقى المغرض الذى انصبت أساساً على أصول الإسلام وسيرة الرسول والحركات الصوفية كان من الأولى به أن يحتفظ بجهده ليتفهم أصول دينه وحركاته التغميضية ويتخصص أولا فى كشف أساطيره وخرافاته قبل أن يتصدى لكشف أساطير وخرافات الآخرين ، لأن علمه سيكون أجدى بلا شك ، لأنه يرتكز على المشاركة فى الوجدان ويسيطر على مضامين اللغة والتكيف مع بيئته الثقافية ، وإلا فكيف يمكنه أن يصل إلى أعماق عقيدة أجنبية عن وجدانه ومشاعره ، أجنبية عن لسانه وبيانه تنتمى إلى بيئة ثقافية أخرى ويزعم مع هذا أنه اكتشف وجدد وعرف ما لم يعرفه صاحب الدار إن هذا إن كان ولابد وأن يقبل فلنأخذه سخرية على أنه دعابة من الدعابات ولكنها مريرة على القلب ثقيلة على اللسان ويبقى التيار الثانى الذى عالج نفس هذه القضايا الأصولية ولكن من منظور التعرف عليها للتعريف بها دون خلفية مبيتة أو حاجة فى نفس يعقوب .

وهؤلاء بدورهم يجمعون بين الفضولى ، بين المتعشق لحضارة الإسلام والباحث عن حقيقتها وإن كانت تجمعهم غاية مشتركة التعاطف مع هذه الحضارة العملاقة والانطلاق من التعرف عليها قبل التعريف بها ، منهم من اهتم بأصول الإسلام لا لإشباع خلفية مبيتة وإنما باحثاً عن الحقيقة ،

حقيقة العقيدة وشموليتها وكثيراً ما انتهى الأمر بفئة منهم معلنة إيمانها بالإسلام عن قناعة وبناء على حيثيات موضوعية (كمثال يساق فى فترتنا المعاصرة « جارودى » من بين العديد) .

ومنهم من اتجه إلى اللغة لاكتشاف عطائها وما فيها من إيقاع وأصالة وهو فى ذلك يجمع بين نظرة المتخصص ورؤية المتعرف وقد يتسع النطاق فيهم بالأدب شعراً ونثرا فى محاولة لكشف كنوزه ومدى تعبيره عن وجدان أمة عملاقة فى مختلف العصور ، هذا فضلا عما ركز على التاريخ محاولا كشف المخطوطات وتحقيقها وإلقاء مزيد من الأضواء عن العصور المختلفة لحضارة الإسلام عبر فترات عظمتها وفترات تأزمها ونذكر فى هذا المضمار كذلك الرؤية الشاملة التى قدمها البعض منهم فى استرسال وتسلسل لتاريخ الأمة الإسلامية منذ عشية ظهور الإسلام حتى الفترة المعاصرة ، أو التركيز على عصر بذاته أو جانب من الجوانب الهامة أو تقديم تيار أو مدرسة فى تاريخنا المجيد أو نوعا من الإبداع والخلق لم تسلط عليه الأضواء بصورة تبرز معالمه مثل من اهتم بأدب الرحالة أو بالمقامات أو بكتب الفرج بعد الشدة أو التاريخ لفئة اجتماعية أو حركة اجتماعية بشكل معمق إلى غير ذلك من الاتجاهات التى تذكر لهؤلاء المتعاطفين فضوليين أم محترفين بما يستحقون عن جدارة وإشارة .

ويبقى البحث عن معيارية لتميز لنا الغث عن الثمين والزبد عما ينفع الناس ويمكث فى الأرض حتى لا يؤخذ هذا بذاك فيوضع الفضولى الباحث عن النيل من الإسلام موضع الفضولى الباحث عن معرفة الإسلام . والمحترف الذى وضع إمكاناته وقدراته ليبرز باستحقاق ما فى حضارة هذه الأمة الإسلامية من عطاء فهو إلى حد ما محترف بناء وآخر محترف للطعن والكيد واضعا كل إمكاناته وقدراته لهدم الإسلام فهو محترف تخريب وتدمير . فشتان بين محترف ومحترف وبين هاو فضولى وهاو فضولى مسمم — ولعل المعيار الذى منه ننطلق هو مدى وفاء الباحث فضوليا أو احترافيا لمصداقية النص والاحتكام إليه بدلا من لويه وتأويله وبالتالى تحميله ما لا يحتمل فخير ما يفسر القرآن ما اتفق الفقهاء والمتخصصين فى الحضارة

الإسلامية من أبنائها . فحينما يأتى مغرض باسم الاستشراق ليؤول لنا قرآننا ويفسره حسب هواه فهذا هو الفضول المبغض والاحتراف الكئيب ، إن كان ولابد فعليه أن يأتى البيوت من أبوابها وهذا يدفعنا بالضرورة أن تتطلب منه الشروط الثلاثة : المشاركة الوجدانية والتأصل فى اللسان والبيان إستيعاب كامل لمضامين الثقافة والبيئة التى يزعم التخصص فيها . وهذا يدفعنا بالضرورة إلى وضع معيارية أخرى لهذه المعيارية تعنى مدى الالتزام بالعلمية وما فيها من موضوعية ما أمكن وإلا كيف يمكن لمتعاطف فضولى أو محترف أو متحامل فضولى أو محترف أن نحقق لديه مقاييس العلمية والالتزام بها وهو فى الأساس له موقف مبيت إما باسم الحب أو الكراهية .

طرح هذا التساؤل يدفعنا إلى وضعه فى إطاره الشمولى ليس فقط على مستوى الاستشراق وإنما على مستوى العلمية برمتها . فإن كانت علمية علوم التجريب احتكمت إلى مقاييس يجسدها المخبر والمعمل واكتشاف القانون ومن ثم أصبح التدخل الوجدانى المبيت محدوداً إن لم يكن معدوما لدى الباحث فى بحثه . فمثلا المجرب فى البيولوجيا أو الفيزياء تعاطفه أو غير تعاطفه لا يؤثر بالضرورة . على ممارسة تجربته وإنما الذى يؤثر هو مدى مهارته وقدرته فى استيعاب المبادىء التى على ضوئها يجرى التجربة ومدى تحكمه فى إجرائها وتعرفه على ما وصلت إليه لاكتشاف القانون المسير لها . ولكن تبقى علوم الإنسان من شمولها . هل يمكن عزل الباحث فيها عن منظوره المبيت أى انتمائه الإيديولوجى ولكن بصورة عامة وليس بالضرورة بمفهوم الإيديولوجيا السياسية إذ قد يكون له مبيت فى إنتمائه السلالى أو البيئى أو الثقافى أو التذوقى أو العاطفى والتساؤل ــ كما أشرنا ــ المطروح هل يمكن أن يعزل ما يجرى فى إلحاقه من ميل عما يجرى تحت بصره من بحوث .

إن الفصل بين الإيديولوجيا إشكالة كبرى بدلا من التعسف فى إلغائها أو استبعادها أو مصادرتها . كيف يمكن للباحث أن يخفف من حدة تعبئتها فى صورة متسلطة على المعطيات الموضوعية للبحث ، ولعل أفضل معيار نميل إليه فى هذا المضمار بهدف الحصر والمحاصرة لذاتية العلمية وشخصنتها أن

تصدر الاستيعاب على اتخاذ المواقف ونعطى له الحجم الأوفر والأكبر وعليه فالباحث مطالب أولا بالاستيعاب قبل اتخاذ الموقف لا العكس ، اتخاذ الموقف قبل الاستيعاب وحينما يستوعب يكون الجانب الأكبر هو المتصدر وبنسبة تتجاوز الثلثين ، ليبقى الثلث الأخير لذاتيته المتبصرة بالاستيعاب والواعية بالقضية وذلك تحاشيا لأن يقع فى التباس الموقف على أنه استيعاب والاستيعاب على أنه موقف .

ولهذا فنحن لا نطالب الاستشراق بالتخلى عن انتمائيته وأن يتحول البشر إلى جماد بلا إحساس أو مشاعر وإنما نقول : من يريد أن يدخل الدار إما أن يدخلها غازيا أو مستضافا أو قد ضل الطريق . وهذا ما يمكن أن تطبقه على الاستشراق . فنقول للاستشراق الغازى ليرفع القناع ويظهر بوجهه الخصم دون زيف أو غش حتى نتعرف على هويته ونعرف كيف نتعامل معه . وأما أن يأتى كمستضاف فلم تعرف حضارة الإسلام إلا إكرام الضيف .

وإما أنه ضل الطريق أو عز عليه أن يجد طريقا آخر ليسلكه ليثبت ذاته فى أرضه فجاء إلينا ليثبت ذاته فى أرض الآخرين عليه وفى هذه الحالة أن يسترشد أهل الدار ، حتى تسهل عليه الطريق ويستريح ويريح .

وفى النهاية هناك نوع من الاستشراق حاول أن يصنف نفسه تحت راية الحياد مبتعدا أساساً عن المناطق ذات الحساسية والتى قد يفسر ولوجه لها بتأويلات معه أو عليه وأن يركز فى تخصصه على جوانب تزكى طبيعة حياده . ونعنى بذلك من حاولوا دراسة النتاج الأدبى لا بغية توظيفه اجتماعيا أو سياسياً أو دينيا وإنما لاكتشاف خصائصه وخصوصياته وربما ما فيه من إبداع أو ما يؤخذ عليه حينما يطرح فى معيارية الأدب المقارن .

وكخلاصة لقضية تراث المسلمين أمام أعمال المستشرقين نرى أولا :

تحاشى التعميم فى الحكم ، بين استشراق بناء بالنسبة له ولنا ، واستشراق هدام يسعى لبث سمومه باسم العلمية والبحث المجرد ، فالاستشراق الذى حاول النيل مستغلا تحت شعار كل الأساليب

والتبريرات ، إما من أصول الإسلام ، وبخاصة سيرة الرسول عليه السلام ، أو من حاول النيل من خلال السعى إلى إحياء حماسات الجاهلية والنعرات بأسلوب معصرن وصياغة محدثة والدعوة إلى شعوبية باسم إبراز الملل والنحل ، والفرق فى الإسلام . وكأننا أمام صراعات كنسية ولسنا أمام اختلاف فى الرأى واختيار فى الاجتهاد نتيجة لعوامل بيئية أو ثقافية أو تسليط الأضواء على ما حدث فى عصر المواجهات الكبرى فيما سمى بالفتنة الكبرى ، لكى يعمم فتنة عصر على كل العصور فضلا عمن سعوا إلى تغميض مفهوم التصوف الإسلامى وهو الصفاء ليلحق بالغموض الذى مارسته ملل أخرى ، ويعطى له طابع الالتباس إن لم يك الأباطيل والخرافات . ومن سعى إلى التقليل من أصالة الحضارة الإسلامية بإعطائه أولوية للفروع على الأصول . وتقديم الاحتكاك مع حضارات الآخرين ، كما هو الحال فى كل الحضارات على أنه نقل ومحاكاة وتقليد ، هذا إلى جانب إغفال مناحى هامة كان من المفروض أن تكون لها الأولوية فى تسليط الأضواء . ونعنى بذلك ما تم من انتحال فى بداية إرهاصات عصر النهضة الأوربية الحديثة من سطو على كنوز المخطوطات العربية الإسلامية ، ونقلها إلى اللاتينية دونما إشارة لمصدرها أو مرجعها . وكأنها من وضع اللاتينيين حتى بالنسبة للفنون والعمران . إن كان البعض قد أعطى أهمية لأطرزته ولما فيه من خلق وإبداع كفنون إسلامية أصيلة ،اتجه غلاة الأغراض والنيل إلى البحث فيها عن مؤثرات بيزنطية وأجنبية ، وكأن العقل العربى المسلم لم يخلق إلا نرعى الأغنام والإبل ... هكذا كان الاستشراق الذى لا يحمل من هذه التسمية إلا وسائل التسلل إلى حضارتنا وهو إن كان يستحق منا هذه الوقفة فهى فى الواقع وقفة تأسى وعزاء لجهد ضائع ينتهى أجله بنهاية أجل واضعه .

ويبقى الاستشراق الذى التزم بما فى التعبير من مضامين وما يحتوى من تطلعات ، فهو إن كان فضوليا . ففضوله وقف عند حد التعاطف والتعرف وإن كان استشراقا احترافيا فقد استفاد فى تعرفه على حضارة عملاقة ، وأفاد فى تعريفه بها . وترك من الآثار ما يجعلنا نسجل له بمداد من الإعزاز والتقدير ما أسهم به من جهد ، وما قدم من عمل جدير بأن لا يكون فقط موضع إعزاز أبناء الحضارة الإسلامية وإنما الإنسانية جمعاء . فبفضله

وبفضل غيره من دعاة الحوار بين الحضارات باسم الاستشراق مدت جسور المعرفة بين حضارة الإسلام وحضارة العصر بين تراث المسلمين وتراث الآخرين . ومن ثم فإن كان لهذا النوع من الاستشراق البناء من مكانة ، فلا يبحث عنها فقط فيما يعنى جانب الإثراء لتراث المسلمين ، بعد التعرف عليه واستيعابه ، وإنما إثراء الحوار فى كل أبعاده بعد أن تجاوز البعد الواحد . وأصبح إسهاما شاملا فى عطاء البشرية غير مشروط بخلفية انتمائية ، أو فترة زمانية ، أو إطار مكانى .

هكذا كان الاستشراق البناء ، وهكذا كان له دوره . وعلى ضوءه يحق لنا أن نتساءل كيف يمكن لنا أن نطرح — وبصورة متكاملة — ما يمكن أن يسهم به تراث الآخرين فى تطلعات تراث المسلمين داخل هذا العصر لا خارجه ، وبحضور العقل لا فى غيبته . كيف يمكننا إذن أن نتعامل مع تراث الآخرين لطرح المزيد من التساؤلات البناءة حول تراث المسلمين ؟ هل يركز على ما فى تراث الآخرين فى الحضارة الغربية السائدة من منهجية وعلمية أم أيضاً يتعرف على روائع فكرها ومدخراتها الإنسانية . وهذا ما سوف نطرحه فى الحلقة التالية والخاصة بتراث المسلمين وتراث الآخرين .

* * *

(٩)

تراث المسلمين وتراث الآخرين
.. وواقع التعامل بينهما

ووصلنا بحوارنا الى المواقع .. موقعنا وموقعهم ، تراثنا ، وتراثهم .. ماذا بعد أن طرحنا قضايا تراثنا .. ماذا عن تراث الآخرين ، وهل يمكن أن تطرح معيارية وأرضية للتفاهم والتفهم المتبادل ، أو أرضية للمواجهة والتحدى بين تراث يحاول الابتلاع وتراث يدافع عن ثقافته استمراريته ..

قضية كبرى تطرح فى عصر التحديات الحضارية ليس فقط على مستوى من ليس له حضارة مرجعية يحيل اليها ذاته ويسترجع بها قدراته ، وانما تطرح أيضا على من كانت له دورة حضارية ويخشى من أن ينطلق مرة أخرى كمارد يتحدى ويستيقظ من هذا التحذير المصطنع الذى سعى الى أن يفقده جهازه العصبى وقدرته الشعورية ، ويقوم بتنويمه ليترك للاشعور أن يسيطر وأن يسود ومن ثم هنا يصبح التعامل مع تفسير الأحلام لا طرح الحقائق .. فهو مطالب وهو صاحب الحقائق التاريخية أن يحول تحت ثقل الآخرين ـ ان طوعا أو كرها ـ هذه الحقائق الى أساطير فى الوقت الذى يتطاول الآخرون ليحول البعض منهم أساطيره الى حقائق تاريخية ، ولهذا كان تساؤلنا فى هذه المرة .. ماذا عن قضايا تراث المسلمين وتراث الآخرين ؟ ..

* * *

إن كنا قد حددنا عبر الحلقات السابقة ماذا نعنى بتراث المسلمين بعد أن أوضحنا أن ليس للإسلام قضية تراثية وبينا خصائص التعامل بين معطيات الفكر وهذا التراث وحينما نقول معطيات الفكر نعنى بالضرورة ما أبدعه الفكر الإنسانى من تخصصات تتحرك عقلانيا لا لتلغى النص وإنما لتبرز

ثوابته وأصالته وما يمكن أن يستفاد منه لا عبر فترة محددة وإنما من خلال مسيرة البشرية ومراحل التاريخ المختلفة .

واسترسلنا بحوارنا المتواصل من تاريخ المؤرخين إلى علوم الإنسان المستحدثة مرورا بعلمية التاريخ وفلسفته وسسلجته ومضيفين فى النهاية موقع أعمال المستشرقين تقنينيا من تراث المسلمين باعتبار أن هذا الموقع يشكل منظاراً من خلاله يحاول البعض أن يرى تراث المسلمين كما يريده أو يزعم أو كما يتمنى من هذا التراث ويأمل أو كما هو كائن دون أن يطرح ما يجب أن يكون إيجابيا وسلبيا .

هذا المنظار — لم لا ؟ — آن الأوان أن يقابل بمنظار آخر من خلاله يرى تراث الآخرين بغية هدف محدد بالنسبة لتراث المسلمين إذ ليست الغاية هى نظرة فضولية لتراث الآخرين أو لملء فراغ أو لقتل وقت وإنما إلى أى حد يمكن الاستفادة من تراث الآخرين خدمة لتراث المسلمين . وهنا يتصور محور منهجية تراث الآخرين ونعنى به حضارة الغرب وعلميته . وبإصرار أضيف فلسفته هذا فيما يعنى فكر الإنسان وعلومه . أما ما استجد فى تراث الآخرين من عطاء يرتكز على العلوم التجريبية والرياضية فهذا يلاحظ أولا بأول لأنه ليس ملكية خاصة لشعب محدد وإنما ملك للإنسان باسم ما أسهم فى أصوله من ارهاصات شاركت فيها مختلف الحضارات السابقة الكبرى . ولهذا فمن الخطأ أن ينظر إلى هذه الإنجازات الكبرى والاكتشافات على أنها احتكار للغرب . بل من المفروض أن تكون فى متناول جميع الشعوب المتطلعة إلى الارتقاء .

ولكن الذى يعنينا أساساً ونحن بصدد حوار حول تراث الإنسان أن نتطلع إلى الإنسان الآخر وما أنتج فيما يعنى إبراز إنسانيته وليس فقط إبراز انتاجاته واكتشافاته فى حقل الظواهر الطبيعية .

الإنسان الآخر ونعنى به كنموذج يتحاور معه إنسان حضارة الغرب السائدة قدم عبر القرون الأربعة بصفة خاصة نتاجاً هاماً ارتكز عليه ليملى هذه السيادة الحضارية هل ما أنتجه فى الأساس من معطياته دون اسهامات فى حضارة أخرى أو أنه قام باستخلاص لما آلت إليه الحضارات

السابقة له وبخاصة حضارتنا العربية الإسلامية هذه القضية أشرنا إليها فيما سبق من حوار وقد تجد مكانا لها فى شكل أوسع عبر طرح خاص بالتفاعل الحضارى بين مؤثر ومتأثر ولكن الذى يعنينا أساساً هنا فى هذا الحوار هو أن العربى تميز فى القرون الأخيرة منذ مطلع عصر النهضة بتراث جدير بالنظر والممارسة . فالخطأ كل الخطأ أن يتجاهل تراث الغرب الحديث لمجرد أنه تراث مواجه ، بل من الأولى أن يستوعب هذا التراث استيعابا جذريا معمقا حتى تتمتع المواجهة معه بمصداقية وعطاء وإلا فهو الإلغاء المتبادل . هو يلغى احتقاراً ما فى تراثنا من عطاء واستكباراً وتكبراً ونحن بدورنا نلغى ما له من عطاء وأصالة تعقداً وتخوفاً وفى هذه المعادلة ليس من خاسر إلا نحن ، فهو سائد أردنا أم لم نرد . وبقدر تجاهلنا له نتجاهل واقع العصر بما كبل به البشرية من سلاسل الهيمنة والسيطرة أولا على العقول قبل العضلات والأرض .

ويبقى التساؤل : على أى أساس يتم التعامل مع تراث الآخرين هذا ؟ وما هى المحاور التى تعنينا فى الصدارة ؟ .

أما من حيث الأساس أو المعيارية فبالضرورة تركز على مضامين هذا التراث لا على شكليته وصورته وهذا هو الفارق بين المتوازن والمنبهر .

فالانبهار دائماً ينصب على مورفولوجية الأشياء بينما الرؤية العادلة المتزنة تنصب على وظائفها ولهذا فالمعيار هو الاتجاه إلى روائع الفكر الغربى التى ثبتت وأثبتت ليس فقط فاعليتها وإنما عالميتها بمعنى تبنى الآخرين لها خارج حدودها وهذا تلقائيا يدفعنا إلى استبعاد ما يجسد خصوصيات الغربى كغربى من حيث معاناته التاريخية وردود فعله على عصوره الوسيطة ومواجهته لتعسف الكنيسة ونسقها وقهر اللاهوت والميتافيزيقا إلى غير ذلك من الهموم التى عاشها ولسنا فى حاجة إلى أن يصدرها إلينا لتضاف إلى همومنا فليحتفظ بهمومه له .

كذلك فيما يعنى اجتهاداته فى لسانياته لأن اللغة هى تعبير وجدانى لأمة ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتحول إلى مجموعة من القوالب تتداخل وتقاس جاهزة ولهذا فالعربى فى لغته له عمق من الصعب أن يقارن أو يقاس

على تعامل الغربى بلغته ، فلئن كانت بعض اللغات يحسب عليها الترادف وتداخل المعايير فلغة أخـرى الترادف والتداخل والإضمار عنصر أسـاسى من عناصر حياتهـا ، وعلى سبيل المثال لا الحصر لغتنا الجميـلة بما فيهـا من إضـمار وحذف وتقديم وتأخير إلى غير ذلك من الخصوصيات فضـلا عما تقدمه فنونها البلاغية من قدرات جعلها فى النهاية هى محور الإعجـاز فى البيان لأقدس رسالة للبشرية . وهذا ما جعلنا نصر على عدم التجاوب مع الداعين إلى ترجمة القرآن . فإن كان ولابد فلتترجم معانيه ومضامينه أما القرآن فلا يقرأ ولا يرتل إلا بلغته بلسان عربى واستجابة لأول آية نزلت بـ « اقرأ » عربية عملاقة . ولهذا نتساءل حينما تترجم لفظيا هذه التعبيرات فى نص نقلى حرفى لا نشعر بضآلة لغتنا وإنمـا نكتشف عملقتها وضـآلة لغة الآخرين وعدم وفائها بما فى التعبير من إيقاع وعطاء .

هـذا فضـلا عن استبعادنا لما فى تراث الغرب من انعكاسات لتزوقه وانطباعاته وعواطفه ومشاعره حتى علاقاته الأسرية والاجتماعية لأن نتاجه التاريخى أملى عليه سلوكا معينا يتمشى ومعطيات بيئته لهذا نركز فى تراث الآخرين كما أسلفنا القول على روائعه خصـوصاً التى جسـدت طموحات تطلعت إلى آفاق إنسانية أو مزيد من الاستئناس لظواهر الطبيعة ومعـرفة الكون ونعنى بذلك الفلسفة نضوج الفلسفة الحديثة لديه وتأصيل الأسس العلمية وتخصيصها ، كذلك تعميق المنهجية وتنوعها مما أسهم فى بلورة معارفه التكنولوجية وتدافع الارتقاء لديه من علم يقلع بالمنهجيـة ومنهجيـة تقلع بالعلمية فى دورة تالية وفلسفة تتساءل عن تعليل واقع الإنسان .

فيما يعنى الفلسفة إن كنا نسلم أساساً بما للفلسفة من استمرارية عبرت التاريخ أقلعت فى فلسـفات الحضـارات الشرقيـة وأشرقت فى حضـارة الإغـريق ، وتبلورت وتنـوعت وتكيفت مع الوحى الإلهى فى حضـارة الإسلام . جاءت حضارة الغرب الحديثة لتستقى من كل هذه المصـادر ، وتمتص من عطائها شرقية إغريقية وإسـلامية لتعطى لهذا العقل الباحث عن البرهان ، عن الحقيقة والمتطلع إلى اكتشـاف مزيد من المعـرفة حيثيـات متعددة ، غذاها المنطق بمسيرته منذ « الأورغانون » لأرسـطو ، ومروراً

بالشروح والاجتهادات الإسلامية ، كى يتعامل هذا العقل ، وبصفة خاصة عبر تجارب « روجيه بيكون » فى الثالث عشر ، وبصفة أعمق « فرنسيس بيكون » فى السابع عشر بأداته الجديدة فى العلم . وهى لا تبتعد عن ما أبدع فيه ديكارت بعد ذلك ، فى فترة لا تتجاوز العشرين عاماً ، فى النصف الأول من القرن السابع عشر . وهكذا تأهلت الفلسفة بمنطقها ومناهجها عبر عصور الأنوار والمعارفيين ، لتفرخ وتفرز لنا البدائل الممثلة فى الفلسفات الوضعية وبصفة خاصة فى القرن التاسع عشر ، بل يمكن أن تعتبر فترة ما قبل التاسع عشر منذ مطلع الحضارة الغربية الحديثة فترة تأهيل لهذا القرن العملاق (التاسع عشر) وما جاء بعد القرن التاسع عشر فى حضارة الغرب حتى يومنا هذا يجسد قوة الدفع والانعكاسات المتعددة والمتنوعة التى فجرها ، ودائماً القرن التاسع عشر ، فهو بحق محور الحضارة الغربية السائدة . ما قبله أهل له وما بعده أصداء له .

ويكفى أن المذاهب والنظريات الكبرى ، بل وعلوم الإنسان المستحدثة فى غالبيتها تنتمى إلى هذا القرن : الاشتراكية ، الماركسية ، السوسيولوجيا ، السيكولوجيا ... والقائمة طويلة .

لهذا آن الأوان أن نركز فى تراث الآخرين على التراث الذى فرض وجوداً كونيا بروائع فكره ، وأن نستوعب إطاره الفلسفى استيعابا معمقا يصادر ما تغص به ساحتنا المعاصرة ، من مقتطفات سطحية وساندوتشية ، يقوم بكنسها بعد أن يتقدم بذاته ، كروائع لم تعد فى يد المقتطف والباحث عن الساندويتشات السطحية .

لهذا نطالب بنقل روائع الفكر العالمى الممثل فى عصور الأنوار والمعارفيين ، وبخاصة المدارس الوضعية والاجتهادات التى تمت فى فلسفة الإنسان وعلومه عبر القرن التاسع عشر ، وما تلاه .

وهذا ، بالضرورة سوف يسهل لنا مهمة أخرى ، نحن فى أمس الحاجة إليها ، وهى أن نأتى العلمية والمنهجية من أبوابها ، وحينما نقول العلمية والمنهجية نعنى بذلك ، وبدون شعور بعقد نقص أو مركباته العلمية المستجدة والمنهجية المستحدثة ، فلقد كانت لنا وفى حضارتنا اجتهادات علمية عملاقة ،

بل وأيضاً تطلعات منهجية تتوخى التراكم المعرفى ، وآن الأوان أن نضيف إلى هذا البحر قنوات مما أستجد فى عقل الإنسان ، لأنه لا يكفى أن تتكرر المسميات والنعوت بشعارات علمية ومنهجية كصور وأشكال عاتمة المضامين ، إن لم تكن ملغاة فى مضامينها نتيجة لأنها تعنى كل المضامين ، وبالتالى لا تعنى أى مضمون محدد .

ومن ثم فتراث الآخرين علينا أن نتحاور معه ، ونستغرب فى مقابل من استشرق . ونعنى هنا بالاستغراب النسبة إلى الغرب ، كما نعنى به الاستغراب كشعار للتساؤل المصر حول ما لدى الآخر بغية الاستحواذ عليه حتى يتحول الانبهار إلى واقع من الاستقرار .

ويبقى بعد ذلك التساؤل المطروح : بأى وسيلة أو طريقة يتم التعامل مع هذه الروائع للفكر العالمى ؟ من يتولاها ؟ هل تترك لأفراد هنا وهناك كل يتعايش منها وبها كترجمة ونقل ، دون رقيب ، ودون بيئة متكاملة تتغذى بهذا الفكر العالمى فى إطار مرحلى متكامل ، يضمن للبراعم والأجيال الصاعدة أن تأتى بدورها البيوت من أبوابها ، ولا تلقن لها أخطاء الساندويتشات ومغالطات المقتطفات فى إطار منفصم ومقطع ومبتور ، مليء بالحشو ، بل وتحميل تراثنا فضلا عن تراث الآخرين فيضا من الافتعالات المختلفة على أنها روائع الفكر العالمى .

لهذا ننادى فى إطار تراثنا وتراث الآخرين وحفظا على نقاء البيئة الفكرية أن يتم هذا التعامل ، ولكن فى إطار محدد ومبرمج ، نحاول أن نلقى ببعض المعالم دون أن نزعم وضع مخطط أو تصميم مفصل لهذه القضية الهامة .

من البداية هل المعنى هو أن نتعامل مع هذا التراث أم نتخاصم معه ؟ قضية التخاصم والتطاحن والنظر إلى تراث الآخر نظرة تهور واندفاع مستبعدة من البداية لأننا نعيش فى عصر لم يعد فيه للمتهور أو المندفع مكانا فى الصدارة وإنما يمزق فى أول مناسبة ليلقى به بين النفايات وذلك لما اكتسبه العقل من قدرة فائقة فى السيطرة على الأشياء وتوجيهها وما قدمته التكنولوجيا من إمكانات متعددة لتدويخ الخصم وتشتيته ، بل وتدميره — فالمنتصر الحق فى هذا العصر هو المنتصر بذهنيته وبما يستوعب وبما لديه

من إمكانات تتدرج من التعرف على الآخر ثم احتوائه واكتشاف قدرة التداخل ولذا فيما يعنى التراث نقول بالتعامل المرتكز على معيارية فهم الآخر وتفهمه سواء فى ذلك التراث ذهب إليه هيجل وتبناه من على شاكلته عبر النظرة التاريخية للتراث أو ما رآه هيدجر ومن اتجه بالتراث إلى محاولة لمسه فى المعاصرة كذلك رؤية التراث والتعلق به دفاعا عن الذاتية خشية إذابتها فى ذاتية الآخرين .

ومهما كان وضع التراث فليست الغاية من تعامله مع تراث الآخرين هو الوصول فى النهاية إلى الإلغاء أو الاستقصاء وإنما احتواء قدرات الآخر فى محاولة لاستئناسها بها بإضعاف الجانب التوحشى فيها بالنسبة له وتحييده والتمرس على طبيعة المواجهة معها بعد التعرف على آلياتها وما فيها من فاعلية وتحكم ولهذا طرحنا ثالوث الاستيعاب لتراث الآخرين المجسد فى حضارة الغرب السائدة ونعنى بذلك فلسفتها باعتبارها مرجعية الإحالة لقدرتها وأسسها العلمية وإمكاناتها المنهجية ولكن فى إطار متكامل يرتكز لا على الاقتطاف والتزوق وإنما على ما يتمشى وواقع تراثنا ويمكن أن يفيد فى إشراقه ويدعمه فى حواره مع الآخرين كمضامين واعية مرتكزة على ما فيها من أصالة لا كشعارات وقتية وموسمية عبر تقليد ومحاكاة الآخرين .

هذا العمل الهام يتطلب جهداً جماعياً تتصدر فيه دون شك المنظمات المتخصصة فضلا عن المجامع الواعية بدورها من أنها أسست لتجسد إطار الجهبذة والعملقة فى كل ما يبنى الأمة فكريا من خلال تأصيل ذاتيتها عبر تراثها أو تسليحها بإمكانات المواجهة مع الآخرين بعد استيعابه وتفهمه ليكون فى خدمة الواقع المعاصر المتطلع لغد أفضل .

تغص الساحة العربية الإسلامية حالياً بعديد من المنظمات سواء فى ذلك منظمات الجامعة العربية المتخصصة أو المنظمات الإسلامية وغير ذلك كما تغص بالمجامع والأكاديميات وكلها بشائر خير تتجه فى مساراتها فيما يعنى محور التأصيل للتراث بإعادة صياغة التاريخ لا فى جولة رابعة بعد جولة المؤرخين وتاريخ المؤرخين ومقتضيات من تاريخ المؤرخين فى الوقت الحاضر

ـ كما أشرنا سلفا فى الحوار الخاص بقضية تراث المسلمين وتاريخ المؤرخين وعلمية التاريخ وفلسفته . وإنما ترتكز وتركز فى جهدها وبصبر وإصرار لوضع علم تاريخ متكامل يعتمد على الفعل التاريخى عبر مختلف العصور فى بناء مدقق ورصين ، لتقوم بعد ذلك بوضع فلسفة لهذا التاريخ بعد أن نقى وغربل من فكرانية المؤرخين وتزوقهم وانتماءاتهم لتعلل لنا مسيرة الأمة والوعى بحركتها التاريخية ، وهذا ليس احتكاراً للماركسية وإنما الماركسية اختطفته لتجعل منه رأس رمحها فى مواجهة الآخر فضلا عن وضع ـ وفى مرحلة تالية ـ سوسيولوجية لهذا التاريخ تكمل الصورة المتناسقة والمتجانسة لتراث أمة عملاقة .

كما تعمل هذه المنظمات والمجامع فيما يعنى المحور الثانى . وهو التعامل مع تراث الآخرين على نقل روائع هذا الفكر العالمى إلى تراثنا فى شكل متكامل مرحلى متجانس مع خصائص أمتنا يهتم بما ينفع الناس لا بالزبد وما تأكدت فاعليته فى تراثهم فلسفة أو علما أو منهجا على أن يكون تحت تصرف براعم الغد . لا أقول الأطفال فلنا نظرية تربوية تضع حدوداً جامعة مانعة بين ما يتعامل معه طفلنا وما هو خاص بشبابنا .

فالطفل تذكرة لمن يريد أن يتذكر يتعامل أساسا مع تراثه ولا نعطى له مضامين تراثية أخرى أو نماذج من تراث الآخرين حتى يظل إطار إحالته العقلية مرتبطاً بأرضيته وهذا لا يمنع أن يكتسب لغتين من اللغتين العالميتين كلغات فقه دون أن تنقل إلى ذهنيته مضامين حضارتها وحينما يصل إلى الرشد تفتح له كامل الأبواب ليتعامل مع تراث الآخرين دونما خوف من اهتزازه أو تذبذبه لأن أرضية الإحالة الذهنية لديه أصبحت ثابتة ونهائية .

وهكذا يقدم لشباب الأمة تراث الآخرين عبر قدرات الخلق والإبداع والإقلاع فيه كما أشرنا فلسفة ومنهجا وعلما .

يتعرف عليها شبابنا عمقا ويستوعبها فى محاولة لفهم الآخر موضوعيا وبالتالى حينما يتواجه معه ويتدافع لا يتدافع تدافع المتهور المنفعل الأجوف وإنما تدافع المستوعب الحذر القادر على المواجهة لا باسم المجازفة وإنما

من خلال مسيرة مدروسة تستعمل القدرات الذاتية مضافا إليها التحصين بالتعرف على قدرات الآخر .

وعليه فاهتمامنا بقضايا تراث المسلمين بالضرورة يملى علينا — لا نقول الاهتمام بتراث الآخرين — ولكن تفهم هذا التراث حتى لا يظل الاحتكار الابستمولوجى وقفا على حضارة الغرب بتراثها المسيطر يقنن للآخر ليس فقط ما يعنى طبيعة تعامله مع ظواهر الطبيعة عبر العلوم التجريبية ولكن طبيعة تعامله مع ذاته كإنسان . بمعنى : حتى يفهم العربى المسلم إنسانيته عليه أن يتعرف عليها عن طريق لندن وباريس وواشنطن وموسكو والقائمة طويلة . فحينما نقول — إذن — تفهم تراث الآخرين لا نقصد بذلك التبنى أو المحاكاة أو التقليد وإنما الاستيعاب لآلياته وقدراته الإعلامية الدافعة متمحورة حول الفلسفة والعلم والمنهج ، وما يسير فى فلكهم من روائع الفكر العالمى يبرز عناصر العطاء والإشراق . ومن ثم — ومن هذه الزاوية — فتفهم تراث الآخرين جزء لا يتجزأ من الاهتمام بقضايا التراث بصفة عامة دون مغالاة أو مبالغة دون إفراط أو تفريط ، ولكن علينا أن نحدد أرضية صالحة لهذا الحوار بين التراثين : تراثنا وتراث الآخرين دون أن يترتب على ذلك مصادرة أو استبعاد . وبما يتمشى وخصوصيات تراثنا العملاق الذى أقلع من البداية محوراً حول أصول الإسلام قرآنا وسنة وسيرة وظلت الاهتمامات الفكرية لغوية كانت أم أدبية أم كلامية تدور فى فلك هذه الأصول مفسرة أو شارحة أو معلقة أو مستشهدة . وبعبارة مباشرة ومبسطة تراث المسلمين عبر التاريخ تحت راية القرآن والسنة . واللهم ما ندر .

لهذا تطرح قضية المعيارية للتعامل مع تراث الآخرين وهل يمكن أن تعطى لها حيثيات على أنها ضرب من ضروب الاجتهاد المتفتح أو الاجتهاد المدعم والمؤصل للعقل ليزيد من اكتشاف أصالة الأصول . وهذه بلا شك قضية جديرة بالعرض ، قضية الاجتهاد بين الإسلام وتراث المسلمين ، ولم لا ، تراث الآخرين ؟ .

فيما يعنى تراث الآخرين طرحنا ما أمكن معالم فى تصورنا قد تأخذ بعين الاعتبار فى هذا المضمار .

وآن لنا الآن ، وقد أشرنا إلى الاجتهاد أن نحدد وفى إطار متواضع وموجز ما أمكن لقضية الاجتهاد من خلال موضوع محدد وهو تراث المسلمين الذى بدوره سيدفعنا إلى موقع الإسلام فى الاجتهاد المتطلع إلى تراث المسلمين ، وهذا هو موضوع الحلقة الأخيرة من هذا الحوار المتواصل .

* * *

(١٠)

الاجتهاد بين الاسلام وتراث المسلمين

ونصل بحلقاتنا الى قضية تغطى العديد من تطلعات الساحة الفكرية العربية الاسلامية ، بل وتتصدر وتصبح الشغل الشاغل نتيجة لطبيعة الأحداث والوقائع التى فرضت نفسها ونعنى بذلك وبصفة مباشرة الاسلام المتطلع بأجياله القادمة والعصر فى قمة تمرده وقوته والرغبة فى احتواء بل وخنق الآخرين ، نحن نعيش وهذا القرن يكاد يلفظ أنفاسه فى مواجهة كبرى متعددة تشغل ذهن القيادات كما أنها أصبحت متعددة فى اهتمامات النخبة وتشكل أملا وتطلعا بالنسبة للملايين ، ونعنى بها قضية الاجتهاد من أين نبدأ وكيف والى اين ، وما هى الحدود والمعايير ومن ولماذا ؟ .. تساؤلات متعددة يطرحها المسلم ، بل ويطرحها الآخر على المسلم .. أما تحديا ، أو تفهما .. كيف نجتهد ، وهل هذا الاجتهاد الذى تم هو بدوره يغطى عصرنا ، وما يستجد من عصور ، تتطلب ضروراتها الاستمرار فى مسيرة الاجتهاد .. توقف أو استمرار .. اكتفاء أو تطلع .. اجتهاد كما اجتهدوا .. وكما يمليه العصر .. كل هذا مع الالتزام بمعيارية الأساس الأول وهو لا اجتهاد مع النص .. لقد استحدثت أمور أن لم تتطلب الحل أو الحكم فعلى الأقل تتطلب التفهم والتفاهم وتحديد الموقف على ضوء ذلك الحكم المتطلع لا يمكن أن يقف بطموحاته ويوقف معه الزمن ، ولكن دائماً يظل هذا المسلم الذى يسعى لكى يكون وفيا لاسلامه لا أن يغالط ليطلب من الاسلام أن يكون وفيا لرغباته وغرائزه .. الاجتهاد قضيتنا فى هذه الحلقة ، ماذا عن قضايا تراث المسلمين فى ضوء الاجتهاد وابعاده المختلفة ؟ ..

* * *

الاجتهاد يعنى بذل الطاقة والجهد والسعة فى سبيل ما يؤديه المجتهد لاستخراج الأدلة للأحكام الشرعية والفقهية ، ومن المعروف كمثال أن

ابن حزم أعطى مضامين للاجتهاد ، ويمكن لمن يراجع الأصول لديه أن يستزيد منها والمجتهد لا يعنى بالضرورة أنه قد يصيب فى اجتهاده ولكنه وبنص الحديث الشريف له من الأجر على اجتهاده حتى ولو أخطأ مادامت لديه النية الخالصة والعلم وإن أصاب فله أجران .. ولا جدال فى أن الفقهاء باستنباطهم للأحكام الشرعية يتصدرون من بين المجتهدين فى الإطار الفقهى .. ومن حيث المبدأ فالاجتهاد مكمل لا أساس ، لأن الأساس هو النص ، فلا اجتهاد مع وجود النص من حيث المبدأ ومع هذا فيمكن تناول النص بالشرح والتفسير .. ومن ثم نرى أن الاجتهاد ليس أحادى الموقع والمضمون ، إنما هو متعدد العطاء بتعدد تياراته ، شريطة التزامه بالأصول .

وكثيراً ما تطرح قضية الالتزام بالاجتهاد على أنه فرض عين ، أو فرض كفاية وهنا تتداخل التيارات الفكرية المتعددة فى حضارة المسلمين عبر مختلف العصور بين من يرقى به إلى مستوى الغاية والمآل باسم التطلعات الذهنية والقدرات العقلانية والفلسفية ، وبين من يرى فيه مجرد ضرورة يلجأ إليها فى بعض القضايا الفقهية المستجدة نتيجة لتنوع البيئة ، واختلاف الأزمنة بهدف الارتقاء بالبشر الإسلامى إلى مستوى القيم الإسلامية التى لها طابع الخلود وليس العكس ـــ بمعنى النزول بقيم الإسلام الخالدة لتصبح وسيلة لتبرير سلوك بشرى ينتهى بانتهاء زمنه ..

وهكذا نرى كيف نجتهد وعلى أى أساس نجتهد ، وهل الاجتهاد يعنى إلغاء من اجتهد من قبل ..

كل هذا من الأولى أن يطرح فى إطار وعلى ضوء معيارية محددة وهى من حيث انتهى المجتهدون المخلصون نبدأ لا لنجتهد فى عصورهم ولكن لنكمل مسيرة الاجتهاد بالنسبة لعصرنا حتى يكون إيقاعا لهذا الاجتهاد ، وتجانس يتواءم مع ما للإسلام من خلود ولمجتهديه من عبقرية ، ومن ثم فلا نخطىء مجتهداً باسم مجتهد آخر أو إلغائه .. هذه من الأولى أن تطرح فى تواجه الآراء ، إن حسنت النية فهو تواجه بناء ، وإن ساءت ـــ لا قدر الله ـــ فالنية مردودة لأهلها .

ويبقى التساؤل .. هل وضع للاجتهاد مقاييس محددة يلتزم بها كل

مجتهد فى صورة مبادىء مقنعة ومتفق عليها .. أم أن الاجتهاد كما أنه مرحلى واستكمالى للأصول يظل بهذه الطبيعة مادامت الأجيال تتداول الأيام .. فلكل زمان رجاله فى الاجتهاد شريطة أن يلتزموا بما سبق لدى السلف والخلف الصالح فلا يتطاولوا على قضايا طرحت فى عصورهم وبت فى أمرها باسم الاجتهاد وتواجه الأفكار وأصبحت عنصراً من تراثنا تعتز به كبقية العناصر ، وإنما يتفرغ للاجتهاد وفى قضايا عصرهم وما أكثرها ونعنى بذلك قرننا وما استجد فيه من تطلعات ومتطلبات فرضها الحوار الحضارى ، بل والتفاعل الحضارى باسم حضارات سائدة غربية منطلقة لا نقول لاحتواء الآخرين ، وإنما لامتصاصهم وإذابتهم فى أمعائها ..

هذه هى قضيتنا فى الاجتهاد فى هذا العصر ، ومع هذا لا نصل إلى حد القول إنه يترك لكل مجتهد أن يتصرف حسب رغباته وانتماءاته وأغراضه وأهوائه مستغلا فى ذلك هذه الرحابة التى طرحها الإسلام ، وهذا التسامح والتجاوز لإطار الانطواء والتحجر والتكهف ..

هذه القضية إذن ستجرنا إلى التساؤل حول معايير الاجتهاد فى هذا العصر وكيف يمكن أن يشكل حداً أدنى للمفكر المسلم المؤهل كى يتعامل مع عصره انطلاقا من اعتزازه بإسلامه ، وتمسكه به ، لا التزحلق تحت ثقل العصر كى يجعل من هذا الإسلام إسلام خاص به منه يبدأ ، وبه ينتهى ..

علماء الإسلام سلفا وخلفا وضعوا لنا معيارية للاجتهاد تقلع من الالتزام بالأصول .. الكتاب والسنة والإجماع ، والتعمق فى فهم المدارس الفقهية مدينية أو كوفية ، مشرقية أو مغربية توسع من إطار الإجماع والقياس ، والاستحسان ، أو تعطى لمصادر الأصول الأولوية المطلقة باعتبار أن القرآن والسنة يمثلهما تشريع العقل الكامل .. القرآن موحى به ، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام الصحيحة لا يتطرق إليها شك ، فهو لا ينطق عن الهوى — صلى الله عليه وسلم — بنص القرآن الكريم ..

ونصل باجتهادنا إلى عصرنا حتى نجيب على ما طرحناه من تساؤل فى مطلع هذا الحوار بالاجتهاد ، وهو كيفية توظيف المستجدات باسم العقل البشرى فى هذا القرن ، وما أحرزه من تخصصات وعلوم ، يحاول بعض

المغرضين أن يوظفها للنيل من تراث المسلمين لا لتدعيمه ، وإعطاء المزيد من الإشراق لما قدم وأنتج وتحت هذا الشعار ـ نت بلا شك الحلقات السابقة فى هذا الحوار المتواصل ، وهى محاولات متواضعة لا نقول تضع الأرضية للتصورات القادمة حول تراث المسلمين وإنما إسهام ممكن أن يقدم ويقرأ ليشكل تياران آخران وهو : تيار علوم الإنسان فى خدمة الإسلام لا علوم الإنسان على حساب الإسلام وإنما لحسابه ومن ثم فلنا أن نتساءل وفى خضم تناقضات هذا العصر حول استئناس قدرات ذهن القرن العشرين المسلم ليضيف إلى ما أضاف المجتهدين لا ليطرح علامات استفهام على اجتهاداتهم وهل أصابوا أم أخطأوا فهذه قضيتهم وقد عاشوها وقدموا لنا من العطاء ما نعتز به ، وبخاصة فى عصرنا العباسى وعصرنا الأندلسى المغربى وكيف أن العقل ليس فقط رد الاعتبار لذاته وإنما الاعتبار للمسلم فى كل مكان ، ولا تتطاول لنقول رد الاعتبار للإسلام فالإسلام ليس فى حاجة لمن يرد له الاعتبار ، فهو فوق كل اعتبار ..

إذن هناك اجتهاد ، كما أسلفنا تم عبر تاريخ هذه الأمة فى مراحلها المختلفة وكل أدلى بدلوه ، ونحن بدورنا علينا أن نجتهد ــ ولم لا ــ ثقة بنا أولا فى مصداقية رسالتنا وتجاوزها للأزمنة والأمكنة ــ ولم لا ؟ــ ثقة منا فى مستقبلنا .. فإن كان الحاضر متوعكا نتيجة لسوءات فى التوظيف على مستوى عطاء الطبيعة والبشر مصاحب بسوء توزيع ليس فقط على مستوى المردودية ، وإنما أيضاً على المستوى الديمقراطى ، هذا التوعك الظرفى لا يمكن بحال أن يشكل حاجزاً أمام تطلعات رجال الغد وإليهم نتيجة بهذه الإسهامات التى يمكن أن تلحق بما وضع من معايير ، وإنما تطرح فى حضور الأصول لا فى غيبتها وإشراقا لها لا تعتيما لمضامينها .. فالمسلم المعتز بأصوله والمعتز بالمجتهدين ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى مختلف العصور .. مطالب اليوم بأن يوظف ــ ولحسابه ــ علم الإنسان ، هذا العلم الذى نأذن لأنفسنا أن نطرح ما يمكن أن يشكل إطارا تفهمياً يتعامل المسلم به مع الإسلام ، بمستوياته الثلاثة علم الإنسان فى أغواره شعورياً ، ولا شعورياً (السيكولوجيا) (علم النفس) ..

وعلم الإنسان فى بيئته وعلاقاته الأسرية ، والاجتماعية ، والمجتمعية (الدولة) (السوسيولوجيا) (علم الاجتماع) ..

وعلم الإنسان فى نتاجه كتقاليد وعادات وأعراف بمعنى تراثه المتجانس ثقافيا والذى يتميز فى سيرته كتاريخ طبيعى واجتماعى وثقافى ، ونعنى بذلك الانثروبولوجيا بمعنى الإنسان فى أبعاده الثلاثة .. حواره مع ذاته ، ومع ما يحيط به من الآخرين ، ومع تراثه ..

وهذه التخصصات الأساسية الثلاثة إن كان البعض قد حاول أن يستغلها لحاجة فى نفس يعقوب لينال من ورائها من الدين الخالد .. فإن ما سطوا للتآمر عليه كانوا هم أول ضحاياه ويبقى علينا وباسم الاجتهاد أن نتساءل عن كيفية توظيف هذه التخصصات لتصبح سلاحا لنا لا علينا .. وهذا بدوره يتطلب توسيعا لإطار التوظيف لما حول هذه التخصصات الثلاثة من علوم بينية (بين بين) وما استجد من قدرات فى وسائل البحث وطرقه وما ابتكر من قدرات متجددة فى ترويض المنهج شرحا وتفسيراً وتحليلا ، ونعنى بذلك الدراسات الاقتصادية والديمغرافية والتاريخية ، وكما أشرنا أعطينا بعض الأمثلة فى الملفات السابقة .

ولا شك أن الأجيال القادمة ، بل وما تزخر به ساحة الفكر الإسلامى المعاصر من ذهنيات مؤهلة قادرة على أن تعطى لهذا الاستئناس والتوظيف ما يجعله إطاراً متميزاً يفخر به القرن الخامس عشر الهجرى كما نفخر نحن بما سبقنا من قرون الاجتهاد التى كانت قلاعا للمجد ، وتجاوزت بعطائها بؤر الضياع ..

ولهذا — وكخلاصة فى تصورنا — بقدر ما المجتهد المعاصر يعتز باستيعابه المعمق لموضوع اجتهاده ، وهو تراث المسلمين وعطاء حضارته جدير به أيضاً أن يعتز بمستجدات عصره لا ليكون من خلالها وبإسلامه فى خدمتها ، وإنما أن تكون هى فى خدمة الإسلام بغير افتعال ، وياحبذا لو أضيف إلى هذين المحورين محور ثالث مطالب به كمجتهد تفرغ لهذه القضية المصيرية وهو أن يتعرف على واقعه المعاصر فى عين المكان ، لا أن يكتفى بالنظر إليه من نوافذ المكتبات وما يقوله الآخرون عنه .. فهو يجوب ساحة أمته شرقا وغربا ،

يميناً وشمالا ، قرى وبوادى ومدنا وعمران يتساءل ويتطلع وسوف يكتشف أن هذا الواقع سيكون عاملا من عوامل تشجيعه على الاجتهاد لا إحباطه وضياعه ، فأمة الإسلام الغنية بملايينها المؤمنة متطلعة إلى هذا المجتهد المؤهل فى إسلامه والمؤهل فى عصره — ولم لا ؟ — المؤهل فى تعرفه على واقعه المعاش فيه ، وكما هو قبل أن يصبح ما يجب أن يكون ..

أما إذا كان المعنى بالاجتهاد التساؤل ، والنقد ، والتمحيص لقدرات ذهنية هى فى الواقع تحتمى خلف مسميات وشعارات تبذر من خلالها بذور الشك والتشكيك باسم تمرد العقل وحرية تعامله كما يريد ، وبالطريقة التى يريد ، ومن أجل الهدف الذى يريد ؛ نقول لهؤلاء المقنعين بعباءة الاجتهاد : القضية لا أساس لها من الموضوعية ولا يمكن أن تتداخل المعايير ليلغى العقل باسم العقل إذ من المسلم به أن النبوة وحوار السماء قضية إيمانية يقبلها العقل ، ويتعامل معها بقناعاته النسبية ، أو يرفضها ، ولا إكراه فى الدين . أما اللجوء باسم التكبر والمكابرة إلى استبدال الإله بالإنسان ، لنقول لهذا الإنسان البديل ، ماذا خلقت فى هذا الكون ؟ ، اقتداء بهذه الآية الكريمة **« اقرأ باسم ربك الذى خلق »** (1) وأما أنت فى هذه الضاحية الهامشية من نظام شمسى بدوره هامشى بين الأنظمة الشمسية الأخرى بمجراتها وممراتها ، عليك أن تجول ، وتعلن أنك على الأقل إن لم تستطع أن تخلق فقد استطعت أن تتعرف على كل أبعاد الكون ، ومن ثم تعلن أنك المكتشف لأسرار الكون . ولماذا نذهب بعيداً مع المكابر والمتكبر ونطالبه بخلق الكون أو عبوره على الأقل فى كل جهاته ، نطالبه وبكل تواضع ، وبقناعة إيمانية أن يكتشف لنا سراً متواضعا فى متناول يده ، وهو نفسه التى فى أعماقه ، تعانى منه ويعانى منها . مرة شريرة ، ومرة بريئة ، مرة أمارة وأخرى مطمئنة راضية ، هل استطاع أن يسيطر على نفسيته ومن ثم يخفف من حدة مغالاته ليس فقط فى شراسة شهواته وتطلعاته الغرائزية وإنما فى كبريائه ومكابرته وتكبره ، وقد جاء محمولا لهذه الدنيا محمولا على اليدين ، عاجزاً أن يقف على قدميه ، ويرغم أن يخرج منها بنفس الطريقة محمولا ، كما جاء .

---

(1) العلق : 1

نقول لهذا الإنسان الذى يتكبر ، ويتبجح بتساؤلاته ، رفقا بنفسك قبل أن تمارس الرفق بالآخرين ، إنك كالمنبت المتهالك الذى لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى .

الاجتهاد إذن فى هذه المبادىء المقدسة الخالدة ، من المفروض أن يطرح بشرطياته ، كدين خالد شامل أوحى به لخاتم الأنبياء وما يحاول أن يناقشه المكابر فى القرن العشرين نوقش فى حينه وحوفظ الملف بهزيمة نكراء لكل المكابرين والمستكبرين . وأشرق نور الله على الأرض ورفعت روح رسول الله إلى الرفيق الأعلى ، وانتهت بذلك مرحلة التبشير والإنذار للبشرية . وبدأ تراث المسلمين وهذه قضية أخرى نطرحها للاجتهاد ، ولكن كيف نجتهد ، وعلى أى أساس نجتهد وهل الاجتهاد يعنى إلغاء من اجتهدوا من قبل ؟ أو تفضيل البعض على حساب البعض الآخر ؟ أو استكمال المسيرة ، وأخذ مشعل الاجتهاد بعد رحيلهم ؟ وهل وضعت لهذا الاجتهاد مقاييس محددة ؟ أم أنه متروك بدوره ليجتهد كل حسب اجتهاده ؟ هذه تساؤلات سنتحاور معها بعد تحديد مفهوم الاجتهاد وما اتفق عليه بين علماء الإسلام سلفا وخلفا ، ثم ما حاولنا أن نطرحه بدورنا عبر هذه الفترة المعاصرة ، من كيفية توظيف المستجدات باسم علوم الإنسان الحديثة من علم التاريخ ، وفلسفته والتخصصات الإنسانية من مختلف فروعها وكيف تستأنس لتصنيف مزيد من الإشراق والعطاء لهذا التراث .

* * *

(١١)

قضايا تراث المسلمين فى الفكر العربى الاسلامى عبر هـــذا العصر

ونصل فى النهـاية الى الارتبـاط بنقطة البداية ونعنى بذلك قضايا تراث المسلمين وما يروج فى فكرنا العربى الاسلامى عـبر هذا العصر .. هناك من يرى أن الفكر العربى الاسلامى بخير فى عصرنا واعطى وعبر عن هموم أمته أصـدق تعبير .. وهو وان تازم فما ذلك الا نتيجة لأزمتها ..

وهناك من يرى العكس .. ان الفكر العربى المعاصر هو فكـر يبحث عن ذاتيته ، بل مازال فى حرف الألف من ابجديته ، ونعنى به تحديد الهوية .. هل هو فكر عربى واسلامى – بواو العطف – أو فكر عربى اسلامى ، أم فكر اسلامى بلغة عربية ، أم فكر عربى بصياغة اسلامية ..

تعددت التيارات ، بل وتواجهت وللأسف فى العديد من المراحل وهى فى قمة سخونتها وتعبئتها لم تاخذ الحيطة حتى من الالغاء والمصادرة فقد وصل الأمر بالبعض من هذه التيارات الى الحد أن يجد فى الغاء التيـار الآخـر تحقيقا لذاته والعكس .. وغاب عن الجميع أن الالغاء والمصادرة سلاح ذو حدين ، وانت تصـــادر تصادر ، وكما تلغى تلغى .. لهذا نختتم حوارنا حول قضـــايا تراث المسلمين بتحديد هـذا الموقف الذى هو بقـدر مبدئيته ، بقدر مصيريته وغائيته ، فهو للأسف يطرح كبداية للاقـــلاع فى التفكير والطرح كما نكتشف فى النهاية ومن خلاله يحدد المعيار فى التقنين المصرفى كخاتمة لهذه الحلقة .

* * *

لقد كان من المفروض أن ننطلق فى حلقتنا الأولى ونقلع بحـوارنا من طرح قضايا تراث المسلمين فى الفكر الإسلامى والعربى فى هذا العصر وكيف

أن هذا الطرح تعدد فى مراميه وتباين فى أهدافه ، ولكننا فضلنا مع هــذا أن نتحاور أولا مع قضايا تراث المسلمين ونحدد من البداية منعاً لكل التباس أنه ليس للإسلام قضية ، وأن قضايا تراث المسلمين موضوعيا لابد من تحديد إطار ثابت تاريخيا يتمتع بالصحة ومصداقية الوقائع والأحداث ما أمكن . وهذا لا يتأتى دون تدخل واع لعلم التاريخ وفلسفته ، وسسلجته . لننتقل بعد ذلك إلى الحوار مع إمكانات توظيف علوم الإنسان الحديثة ، كل فى إطار تخصصه ، لنكمل حوارنا بالتصدى لأعمال المستشرقين فى محاولة مدخلية لتقنينها . وهذا بالضرورة دفعنا إلى تساؤل آخر وهو تراث المسلمين وتراث الآخرين .

وكان علينا قبل أن نصل إلى هذا الحوار أن نعرج على قضية الاجتهــاد باعتبارها أساسية فى كل حوار مع قضايا تراث المسلمين ، حيث إن الاجتهاد يتمتع بمعيارية ترتكز على قواعد واضحة ، من الناحية الأصولية ، كما أنهــا بقدر ما تنفتح عليها تنفتح بنا على مشارف كل قدرات التعامل المعطــاء فيما يعنى تراث المسلمين .

وهكذا كان طبيعيا أن يؤول بنا الحوار فى النهاية إلى الفكر العــربى الإسلامى فى هذا العصر وكيف بدوره تصدى لطرح قضايا تراث المسلمين بين ملتزم بالأصالة ، ومدافع عن السلفية ، ومتفتــح على حضــارة الغــرب السائدة بين متنكر لذاته بتنكره لتراثه فهو فى وضــع المتنكر لأبيه حينــما تنكر لماضيه وقد يصل به هذا التنكر إلى مستوى اللقيط الذى لا مرجعية له ولا إحالة . أياً كان المبرر ، وكيفما أعطى من الحيثيات المفتعلة التى تصل به فى النهاية عبر شعوره المشلول إلى تحويل حقائقه التاريخية إلى أساطير ، فى الوقت الذى يعمل المواجه له والمغتصب لأرضه على أن يحول أساطيره إلى حقائق .

ومع هذا لا نعمم فى طرحنا بل سنحاول دون الدخول فى تفاصيل ستجد مكانا لها فى دراسة مختصة عن التراث والفكر المعــاصر فى ساحة أمتنــا الإسلامية لا مجرد حوار حول قضاياتراث المســلمين ، أن نحدد المعــالم الرئيسية لطرح قضايا تراث المسلمين فى فكرنا المعاصر إسلامياً كان أو عربيا ،

ومن البداية قد تبدو « أو » هنا فى غير مكانها باعتبار أن الشائع فى استعمال « إسلامى وعربى » إما أنهما يمثلان وجهين لجسد واحد هو إسلامى أساساً . وإما متعاطفين باعتبار أن الإسلامى أعم من العـربى ، بل من المفروض أن كل ما هو إسلامى بالضرورة والالتزام عربى لو أننا اقتدينا بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليست العربية لأحدكم من أب أو أم ، وإنمـا هى اللسان » . وهكذا من المفروض على كل مسلم أن يلتزم بلغـة القـرآن كلسان وتعبير عن البيـان . ومن ثم فلا يمكن تصور مسلم دون أن يكون بغير لغة القرآن يتكلم ليعبر عن وجدانه الإيمانى ويلتزم بإسلامه قلبا وقالبا .

أما العربى ، فيمكن تصوره بلا إسلام على مستوى الأقليات التى تعيش فى رحاب بلاد الإسلام ، وبصفة خاصة فى الأرض والوطن . ومع هذا فمن الذى مد هذه الأرض ، ووصفها بالعروبة ؟ هو الإسلام . فهو لم يكتف بمد الأرض وإنما مد اللغة التى يحاول البعض الآن أن يتخذ منها وسيلة للتمييز بين العربى والمسلم وهو الذى مد التاريخ الذى يحاول أيضاً ـ بعض آخر ـ أن يراه تحت مقطوعات عربية . ولهذا كان من المفروض أن الإسلام يعنى العربية كلسان وبيان كما أن العربية هى تعبير عن الإسلام .

ولنأخذ الأمور على علاتها فى انتظار غد أفضل يضمن لنا وحدة القلب مع القالب . ولقاء اللسان والبيان مع الانتماء والكيان . ونتعامل مع تناقضات هذا العصر كما هى قبل أن نأمل فيما يجب أن تكون عليه ، لدينا فعلا فكر إسلامى أصيل فى هذا العصر طرح قضايا تراث المسـلمين ولدينـا من تبنى تسمية فكر عربى سواء بحسن نية أو بنية مبيتة ، وحاجة فى نفس يعقوب يحاول أن يدسها ، ومن خلالها يلقى بسمومه لتكثيفه معاناة هذه الأمة فى فكرها كما تعانى فى وجودها وحياتها اليومية ولنبدأ بالفكر الإسـلامى المعاصر ونعنى به الفكر الذى تبنى راية الإسلام كشعار ، ولم يتصور بديلا لها أياً كان . هذا الفكر كيف طرح قضايا تراث المسلمين ، بعد دفاعه وتصديه لكل من يحاول الزحف نحو الفترة الخالدة المقدسة وهى فترة النبوة ليجعل منها بدورها تراثا قابلا للتقنين والأخذ والعطاء ، بل والتفنيـد والقطيعة ، وتصدى للزاحفين كاشفا لنواياهم أن العصر النبوى للتعامل معه ، إما أن

تدخل إليه من باب الإيمان ، وإما أن تتواجه معه معلنا التنكر ، ورافعا لراية الإلحاد . ولا ثالث لهما . ومن ثم فحرص هذا الفكر الإسلامى على أن يدعم ويحصن العصر النبوى الخالد ضد كل دخيل أو متطفل ، واجتهد فيما تلى ذلك من عصور ملتزماً بأسس الاجتهاد فى تعامله مع التراث الذى له طابع الأصولية ولم يغفل الجوانب الأخرى من التراث أدبية كانت أم سياسية ، أم اقتصادية . وكان يهدف فى كل هذا إبراز عطاء هـذا التراث وتكملة مسيرة الصحابة والتابعين والسلف والخلف الصالحين . ولم يغفل بالإمكانات المتاحة له واقع المواجهة حاولوا النيل من الإسلام باسم تراث المسلمين . سواء من أبناء الدار أو من المستشرقين الداعين للإحباط والإنكار .

وفى إطار هذا الفكر الإسلامى المعاصر تعددت حركات الإصلاح الإسلامية بما فى ذلك الحركات السلفية . وتتنوع فى مواقفها بين صرامة الالتزام الأصولى ومرونة التعامل مع الآخرين نذكر على سبيل المثال لا الحصر إنطلاقا من الوهابيين إلى بقية السلفيين فى المشرق والمغرب والإخوان المسلمين مروراً ببعض الوجوه الإصلاحية التى تحاول أن تكمل طريق الأفغانى ومن حوله ، كأبو الأعلى المودودى ، ومالك بن نبى ، وعلال الفاسى والقائمة طويلة ، وتوخينا الحصر .

وتبقى قضية ما ظهر تحت تسمية الفكر العربى فى هذا العصر ليطرح قضايا تراث المسلمين ، كيف ؟ ولماذا ؟ وما هى تياراته وأهدافه ؟

حينما نتكلم عن العربى لابد من نظرة عبر نافذة التاريخ على ما تم من قبل من إبراز لعروبة عشائرية وقبلية عشية ظهور الإسلام أم فى العصر الأموى ، حيث حاولت بعض الانتماءات العربية أن توظف الإسلام لحسابها ليصبح بدلا من أن يكون فى خدمة البشرية يتحول لخدمة الأموية . وذكيت النعرات والعصبية مما أسهم بالضرورة فى خلق رد فعل بين ردود فعل أخرى مختلفة ممثلا فى الشعوبية ومذكيا بجانب من الشيعة والتشيع . لقد تم الطرح العربى آنذاك طرحا يمد جذوره الجاهلية متأسلمة ومدعمة بحماساتها بعد صبغها بما يوائم مسيرة الإسلام والفتوحات .

وها نحن اليوم بين الفعل ، ورد الفعل ، ولنأخذ كمثال ما برز منذ موقف

العثمانيين من العرب بعد تغيير المواقع والأدوار . وترتب على ذلك فى الفترة الأخيرة للخلافة العثمانية ، وما صاحبها من تهلهل واستغلال لضعفها ومرضها فى شكل تزكية لنعرات عانت من سيادة العثمانى ، بل وفى بعض الأحيان قمعه فى أرض العروبة التى شع فيها الإسلام ، وقد كان طبيعيا أن يصاحب البحث عن الهوية تداخل عناصر ارتأت فى هذه الهوية غذاء لها لتوسع من المواجهة مع العثمانيين لتصبغها كمواجهة مع الإسلاميين باعتبار أن انهيار العثمانية هو انهيار للإسلامية . وأن البديل هو الذاتية العربية .

وقد كان طبيعيا ما جد فى ذلك عن بعض الأقليات التى وجدت فى ذلك متنفسا لها . وانعكس ذلك على الحياة الفكرية ودعاة الإصلاح بين ملتحم مع ما تبقى من الخلافة العثمانية ليعيد لجسدها المريض الحياة ، وبين باحثين عن بديل مجسداً فى العروبة ، التى انطلقت فى البداية كما أشرنا كرد فعل ليبحث لها عن مقومات ذاتية خارج الإسلامية ، وهنا بدأ موكب الافتعال وتمطيط المقولات ولوى عنق التاريخ ، حتى ابن خلدون لم ينج من هذه الأعاصير ، كماهو معروف . وهل يعتبر من رواد القومية العربية أو من أعدائها الألداء ، نظراً لما قاله فى البداوة والعربى ... الخ .

إن كان لا يعنينا أن نطرح القومية العربية كقضية سياسية ، فالذى يعنينا ما اتخذ من مواقف دفاعا عن فكر عربى كبديل لفكر إسلامى أو مواز له فى الوطن العربى ؟ .

فكر عربى هو فى الواقع يجسد تيارات متعددة إن كان قد جمع بينها الانتماء إلى الفكرانية العربية ، فقد تنوعت فى شتاتها ، بل وفى وسائلها وفى غاياتها ، وسنحاول أن نركز على أهم هذه التيارات التى تحمل راية وشعار الفكر العربى بنزعته الذاتية كمواز أو كبديل للإسلامى .

ولنبدأ بتيار الفكر العربى الذى يزعم البديل متخذا من الإسلام إطاراً متجاوزاً فى هذا العصر ، نتيجة لواقع ألزم الفكر بمعطياته ومتطلباته . فالمد العلمانى من ناحية ، والأطروحات التى ترتكز على مادية التاريخ وتنادى بالتغيرات الجذرية ، فضلا عن ما اتخذه العقل كشعار له ، ونعنى بذلك تصفية الحسابات مع الميتافيزيقى والغيبى وكل مالا يمكن إدراكه وإعطاء

الحيثيات الموضوعية له . ومن ثم فالدعوة إلى فكر دينى هكذا يقولون ، أو يدور حول الدين ، ويتحـرك فى فلكه هى دعوة إلى إلغـاء الحـاضر واستبداله بالماضى . وعليه ، فالفكر العربى مطالب بأن يتخذ من القطيعـة شعاراً له حتى يمكنه أن يتحرك دون قيود أو سـلاسل تحد من إشراقه ، ومن عجب أن هذا الفكر البديل ، وهو أساساً جاء ليـدافع عن الحـاضر متطلعاً إلى المستقبل إذا به يسقط بدوره فى هـذا الماضى الذى استبغضه ، ويتخذ منه مادة أساسية ليبرهن على وجوده ويقدم حيثياته . فهو فى الواقع فكر من الإسلام لإلغاء الإسلام حتى أن بعض المحاولات المحدودة التى بحثت لها عن أرضية فى الفكر العربى غداة الجاهلية ، وقبل ظهور الإسلام ساعية لبناء شخصية عربية متميزة تدور حول ما قدمه هذا الفكر ومع هذا ظلت كمحاولات مبتورة وتعانى من طفيليات فى توثيقها ، وهل فعلا ترتكز على أرضية تتمتع بالمصداقية التاريخية ؟ أم أن ما تعانيه كفكر جاهلى لحقه بدوره الانتحال والتحريف ، بل والتقويل ؟ ولهذا ظلت البدائل التى تسعى لمواجهة الإسلام المشرق فى الوجدان ، والمعبر عنه باللسان ، والمرتكز على امتـداد أرض ما كانت لو لم يكن .. بإسلام جسدت فيه الخطيئة ، ليصـبح غطاءاً لجسد مفتعل باسم فكر عربى بديل ، كان من المفروض على هؤلاء الزاعمين أو الأدعياء أن يبحثوا عن أرضية موضوعية ، يتمثل فيها عطاء الفكر العربى المتميز عن الإسلام ، ليس فقط فى عنوانه وإنما بمضامينه وتطلعاته حاضراً ومستقبلا بدلا من تقمص أقنعة تغطى ماضيا افتعل ليعتم ليس فقط الماضى فى ثوابته الأساسية ، وإنما الحاضر ليصبح ماضيا والماضى يصـبح حاضراً بدوره . فالبديل العربى كفكر وقف عند حد العناوين ، والمسـميات ، بل والشعارات ، وعجز عن تحديد أرضيته بل وعجز أيضاً فى أبعاده وتطلعاته ، فهو بالتالى مجرد نموذج مشـوه ، لفكر اتخذ من الإسـلام ذريعة لتدمير الإسلام . وما استطاع أن يحقق أغراضه فى النيل من قداسة الإسـلام أو يعمم أطروحاته المغشوشة حول تراث المسلمين ، فالفكر العربى الذى يزعم أنه بديل للإسلام هو فكر منه وإليه . أياً كان مصدره سواء من أصـحاب حاجات يعقوب ، أو من الحاقدين على الإسـلام أو المتبنين لمبـدأ « خالف تعرف » . أو المتشدقين بمسميات لم تهضم ولم تستأنس .. يشتات من هنا

وهناك ، تفرق وتعدد فى كل شىء ، ولم يلتق إلا فى قاسم واحد هو الحقد على الإسلام والتنكر لرسالته ، وحمل البغضاء للمسلمين . سواء أكان هذا من بين صفوفهم ، وظلم ذوى القربى أشد ، أو من المواجهين للإسلام فى الساحات الفكرية خشية أن يشرق فجره ، وتسطع شمسه ، وتعود له مشروعية الفكر من جديد .

بقى علينا التيار الثانى ، وهو الذى لا يسعى لاستبدال الفكر الإسلامى بفكر عربى ، وإنما يحاول بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حفر قناة موازية تميل إلى تبنى (واو العطف) لا (أو) الاستبدال . بمعنى فكر عربى وإسلامى أو فكر إسلامى وعربى ، هذا فيما يعنى (واو العطف) ، بينما الزاعمين بالبديل تبنوا الفكر الإسلامى ، أو الفكر العربى ، هذا أو ذاك الفكر الإسلامى له الماضى والفكر العربى له الحاضر والمستقبل ، وقد رأينا إلى أى حد ، خابت هذه النبوءة وولدت ميتة فى مهدها .

بينما التيار الثانى وهو المتبنى (لواو العطف) يتلمس وسائل إن لم تصل إلى حد القطيعة والاستبدال فهى كثيراً ما تلجأ إلى التفضيل وطرح الأولوية ، فمن يميلون إلى أن الفكر أولويته إسلامية ، وبيانه ولسانه عربى ، يتباينون عن من يتبنون العكس ، أى أن الأولوية للفكر العربى وما الفكر الإسلامى إلا نعوتاً وغطاء . ارتكزت مشروعيتها على فترات ساد فيها التوجيه الإسلامى للفكر على حساب البناء العقلى لهذا الفكر . عبر هذه القنوات نشاهد أيضاً شتاتا يتداخل فى اختياراته ، بل وكثيراً ما يتداخل فى تعبيراته ويحتمى فى المترادفات ، وتغلب عليه النزعة الظرفية فى إعطاء الحيثيات .

ومع هذا يمكننا أن نتعامل مع هذا التيار الذى لجأ إلى (واو العطف) إسلامى عربى أو عربى إسلامى من خلال نموذجين رئيسيين : النموذج الأول — ممكن مع التجاوز — أن نطلق عليه نموذج الباحثين العرب المتأسلمين . والثانى نموذج الباحثين الإسلاميين المتعربين ، فيم يعنى النموذج الأول ؟ هو يغطى فئات من مفكرى الأقليات التى عاشت فوق الأرض العربية ، وتعايشت مع المسلمين ، وشاركتهم ليس فقط الأرض واللغة ، وإنما فى العديد من مراحل

التاريخ ، بل والتزيى بالانتماء الحضارى للإسلام . وبخاصة فئة أقليـات النصارى ممن تعاطفوا مع أمة الإسلام وصدق عليهم ما أكده الحق سبحانه وتعالى حينما وصفهم فى القرآن الكريم : « **ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى** » (١) هؤلاء المتوادون توادد معهم الإسلام عـبر تياراته الواعية ، وبادلهم تحية بتحية وبأحسن منها . هم عـرب ، يعتـزون بعروبتهم أرضا ولغة وتاريخا مشتركا ، ويتعاطفون كما أشرنا مع الانتمـاء الإسلامى بل إن لم يندمجوا عرقيا مع السـلالات الإسـلامية فهم بحـق سـلالات قرابة المودة . وليس بالضرورة كل من هو نصرانى تبنى هـذا الوفاء وهذا الولاء . فلا شك أن من حاولوا أن يضمروا لأمة الإسـلام خلاف ما أظهرت لهم من تكريم ومودة ، فبضاعتهم ردت إليهم .

وتبقى أقليات أخرى غير النصارى أعلنوا انتماءهم إلى العروبة أرضـاً ولغة وتاريخاً ، عبر قرون طويلة ، ولكن فى الفترة المعاصرة خضعوا لمسلسل من التوجيه التآمرى على هذه الأمة الإسلامية ، فتنكر منهم من تنكر لوفائها واستضافتها ، ورد إحسـانها إليه بالإسـاءة والنكران . ونعنى بذلك من فضلوا التهود على اليهودية ، وفضلوا الانتماء إلى الصهيونية بدل الاعتزاز بدين موسى وبأرض النبوات وبمن آواهم خلال قرون . فى الوقت الذى كانت تنصب لهم المحارق فى الميادين الرئيسية ، لما يعرف حالياً بالمجتمعات المتقدمة كان ذلك فى أيام الآحاد بعد الخروج من الكنائس فى الغرب الوسيط ... وهكذا نشاهد باحثين عرب متأسلمين لا ينكرون انتماءهم الأساسى العربى ويزيدون عليه تواددهم مع الاتجاه الإسلامى أما المتأسلمون لحاجات ومآرب للنيل من الإسلام باسم التأسلم فنقول لهم بضاعتهم زيفها واضح للعيـان خصوصاً حينما تخلطون بين عطاء الإسلام كدين مقدس فى عصر النبوة ، وبين تراث المسلمين كبشر تعايشوا تحت راية الإسـلام عبر العصـور . فتنظرون إلى الإسلام كتراث وتنظرون إلى التراث كإسلام دون توضـيح للمعيارية ، التى تلزم بحدود مانعة جامعة بين الإسلام فى عصر النبوة ، وبين تراث المسلمين عبر عصورهم . ومن ثم فلا ضرر ولا إضرار ، من أن يقوم الباحث العربى بكل ما يرجوه من بحث صائب ومستنير فى تراث المسلمين

---

(١) المائدة : ٨٢

شريطة أن لا يتبنى موكب الخلط بين إسلام أرضيته إيمانية وأسمى من المضاربة عليها باسم قصور الذهنية البشرية بنسبية معرفتها ، هذا التراث الخاص ببشر المسلمين .

أما النموذج الثانى من الباحثين الإسلاميين المتعربين فنعنى به من يميلون إلى عطف العروبة على الإسلام ، الإسلامى العربى ، فهم أساساً يشاركون أرض إشراق الإسلام ، وفى الجزيرة العربية فى العقيدة وفى التاريخ ، وامتداد الأرض العربية باسم الإسلام وتبقى قضية اللغة ، وإلى حد ما التكامل السلالى عرقيا أو بيئيا . هذا التكامل السلالى عرقياً أو بيئياً بدوره عرف تكاملا وتداخلا عبر مراحل من تاريخ أمة الإسلام بل وحتى اللغة كان دائماً قاسماً مشتركا بين كل المسلمين فهى ليست لهجة أو لغة لفئة بعينها ، وإنما هى لغة القرآن لغة الإسلام . ولكن فى عصرنا الآن نلاحظ كنتيجة لبقايا المد الاستعمارى هذا التباين المفتعل بين أبناء الدين الواحد ويتكلم المسلم مع المسلم لا بلغة القرآن وإنما بالإنجليزية أو الفرنسية ، أو وأو ، حسب موقعه من الاستعمار ، ومعاناته منه . وذهب الاستعمار وبقيت رواسبه لتطرح القطيعة بين المسلم والمسلم ، وهكذا كان علينا أن نطرح وفى نهاية هذه الحلقة من حوارنا الخاص بقضايا تراث المسلمين كيف أننا الآن أمام فئة من الباحثين الإسلاميين منهم من تعرب متعاطفا مع انتمائه الدينى كأمل يطرح لآفاق المستقبل التى بلا شك ستؤول إلى وحدة القلب مع اللسان ووحدة العقيدة مع البيان حينما تصبح لغة القرآن هى لغة كل مسلم أياً كان فتذوب واو العطف لأنه لا يمكن أن يعطف جسد مع جزئيات جسده . وفى انتظار هذا الأمل علينا أن نتقبل هذه الفئة من الباحثين الإسلاميين غير المتكلمين أساساً فى أوطانهم باللغة العربية على مستوى شمول الجماهير المؤمنة ، وندعو لهم مزيداً من الإشعاع والانتشار حتى يعود للجسد الإسلامى تكامله قلبا وقالباً شكلا ومضموناً .

وهذا بدوره يدفعنا إلى أن نتجاوز ضمنيا من يحاول أن يطرح ضمنيا الإسلام كبديل لمد أرضه العربية بمعنى إسلام بلا قبلة وبلا قرآن ، إسلام كل منه وإليه ، نقول لهؤلاء : إشراق الإسلام بشرياً مشروطاً بإشراق بيانه ولغته ، وأما إشراقه روحياً فهذه قضية يبحث عنها فى القلوب والأبصار .

وعليه نستبعد هذا البديل المفتعل الذى يحاول البعض أن يطرحه لإســلام يقوم على أنقاض العروبة وأشلاءها ، إســلام بلا نبيه العربى القرشى المكى الأمين .

فالانتماء فى النهاية للإسلام ولتراث المسلمين كل لا يتجزأ فى أرضــه وتاريخه ولغته ، فضلا عن عقيدته كإيمان ثابت فى القلب يصدقه العمل .

وكخلاصة لحوارنا حول قضايا تراث المسلمين فى هذه الحلقة الأخيرة والخاصة بوضعه عبر فكر هذا العصر . إننا نتقبل كل اجتهاد فكرى بنــاء كمسلمين شريطة التزامه بمعيارية واضحة أشرنا إليها سلفا وهى أن ننطلق من حدود مانعة جامعة بين الإسلام كعقيدة فى عصر النبــوة يرتكز أســاساً على الإيمان وبالتالى ليس لهذا الإسلام قضية تراثية فهو واقع حى نشــط تمارسه ملايين المؤمنين منذ إشراقه من غار حــراء حتى اليوم وبين قضــايا تراث المسلمين كبشر عبر مراحله التاريخية المختلفة حتى اليوم .

* * *

(١٢)

المسـلمون ..
وتحـديات المسـتقبل (*)

« المشكلة هى فى المسلم نفسه ، وليست فى جوهر الاسلام » ..

● عرض مدخـلى :

نستبعد أن يكون لبحثنا تأكيد على المضاربات باسم الحقائق الحتمية ، أو المنوعات المستقبلية ، لأن المستقبل بيد الله ، ولا يعـلم الغيب إلا الله سبحانه .

ننطلق من هذه الملاحظة البديهية إلى عصر يعتقد فيه بعضهم ــ وبـكل يقين منه ــ أنه قادر على اكتشاف المستقبل والتنبؤ بغيبياته ، أو ما يعرف بعلم المسـتقبل (Futurologie Futurism) من ذلك ما دعا إليـه فختهايم أو برجيـه أو إيريل جوزيف وغيرهم ، بأن رسـموا للمسـتقبل تصـنيفات ، فقالوا : المستقبل المباشر ويغطى مساحة زمنية قدرها عام ، أو مستقبل أقرب مدته خمسة أعوام ، أو مستقبل قريب ومدته عشرون عاماً ، أو مستقبل عام أو بعيد ويمتد من عشرين عاماً إلى خمسين عاماً ، أو مستقبل أبعد وهـو ما يمتد إلى أكثر من خمسين عاماً . فضلا عن المحاولات التى تمت من قبـل بعض الدارسين التكنولوجيين أو الديموغرافيين حـول حـدود التنميـة وديناميكيات العالم والنزعات التشاؤمية أو الامتدادات المالتوسية ، إلى غير ذلك من التطلعات المستقبلية ، تشاؤمية كانت أو تفاؤلية . والتى يجسدها حالياً عدد من الجمعيات والمؤسسات المختصة فى الدراسات المستقبلية من معهد

(*) بحث قدم لمؤتمر القمة الاسلامى الخامس بالكويت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م ضمن سلسلة بحوث فى اطار موضوع الاسلام والمستقبل .. (المؤلف)

المستقبل لهملر ، مروراً بمعهد هودسون ، والمؤسسات المستقبلية بأمريكا فى نهاية الستينيات ، والجمعية الدولية لدراسة المستقبل ، والتى تجاوز عدد أعضائها الألفين ، ومؤتمرات عديدة أخرى برزت فى السبعينيات ، وما تلا ذلك حتى توفلر ، ونظريته التى تشير إلى صدمة المستقبل ، ودعاة الأزمة والمخرج ، والمنذرين بمستقبل تعس ، والمبشرين بمستقبل مشرق . إلا أننا نلاحظ وجود شبه اتفاق بينهم جميعاً على قوة الدفع الهائلة فى كل ما حول الإنسان ، نتيجة ما يقدمه من مخترعات ، وما يعترى الإنســان من أنواع التأزم المرير والمعاناة العنيفة كذلك ، وقد حاول بعضهم أن يطلق عليه تركيب « راحل من نوع جديد » إنه راحــل فى الزمن ، وفى غــير المألوف ، مما يترتب عليه الاستعداد لتقبل صدمات متعــددة قد تؤول به إلى الارتداد والاندحار ، أو تدفعه لمزيد من التجاوزات وأنواع من التكيف والتعامل مع المستحيل .

فى هذا الإطار ، ومن دون دخول فى تفصيلات قد تجد لها مكاناً مناسباً فى مجالات أخرى متخصصة متجاوزة لهذا الغرض الذى يعنينا أولا وأخيراً ، والذى هو « الإسلام » ، كيف يسير الإسلام بالمسلمين نحو مستقبل مأمول ؟ والمسلمون ــ ولم لا ؟ ــ كيف سايروا العلوم عبر أزمانهم المختلفة ؟

ولنشرع حديثنا منذ البداية ، فحين بزغ فجر الإســلام كانت الوقائع الحضارية الكبرى فى حوزة هذه الامبراطوريات الكبرى . وكان المفترض ــ حسب منطق التطور ــ أن لا يأتى إشراق الإنسان من جزيرة العرب ، وإنما ينطلق من « بيزنطة » أو « روما » .

ولكن حينما اندحرت بيزنطة ، وتراجعت روما نهض الإسلام من هذه الجزيرة ليصحح التطور العالمى ، ليس عن طريق حــروب كبرى وإنما عن طريق الأخلاق والسلوك . فتحولت الامبراطوريات ــ من ثم ــ إلى كيانات هامشية أمام سلوك خالد ، هو السلوك الإسلامى .

إن التطور يكيف السلوك دائماً ، كما أن السلوك يكيف التطور .. وقد اختلف بعض الفلاسفة حول : أيهما الذى يقيد الآخر ؟ السلوك أم التطور ؟ ومتى يتم ذلك ؟ هنا نلقى شــبه إجماع على أن التطور يقيد الســلوك فى

اللحظات الانسجامية .. حينما تكون المسيرة إيقاعية فيملى عليه التغيير ، أما فى حال التأزم فإن السلوك هو الذى يقــوده إلى التطور .. وقــد تجاوز الإنسان الأزمات الكبرى للبشرية بسلوكه لا بتطوره . ومن الخطأ بمكان أن نتبنى القول بأن التطور قاد البشرية فى مجتمعاتها القديمة ، وإنما السلوك — بمعنى الرسالة الإلهية ، والوحى الإلهى — هو الذى قاد هذه المجتمعات التى كانت تعيش فى الصنمية الوثنية .. غير قادرة حتى على تعليل أبســط الأمور حولها ، لقد قادها إلى التأمل ، وذلك كما قال دوركهايم ، الفيلسوف الملحد : « إن وراء كل فلسفة ديناً ، ولا يمكن تصور فلسفة لا ترتكز على دين » .

فالدين إذن هو الذى دفع البشرية إلى التأمل ، وأيقظ الحكماء والرؤية المستقبلية .. وبالتالى فإن السلوك الذى نبع من رسالة الخالق هو الذى قام بعملية تصحيح لمسيرة المجتمعات البدائية والمجتمعات التى كانت تعانى من الالتباس والغموض . ويعتبر الإسلام — بلا شك — المرحلة الرئيســية فى التصحيح الجذرى للتطور بالسلوك ، وليس تصحيح السلوك بالتطور .

فالإسلام أحدث تطوراً جذرياً عميقاً فى حياة عرب شبه جزيرة العــرب أولا ، وفى كثير من الأمم المسلمة منذ عصورها الأولى ثانياً . فهو إلى جانب العطاء الإلهى الخالد جسد بداية الدورة الثقافيــة الهــائلة التى اتخذت مجراها ، حتى سادت العالم بأسره تقريبــاً . بمعنى أن مجمــوعة العشــائر والقبائل ، التى كانت تدأب فى الدفاع عن مواطنها ، تجاوزت بالإســلام هذا الانتماء والالتزام .. إلى التزام أسمى مجسد فى مثل عليا وقيم سامية .. وبذلك أصبح للعرب دورة ثقافية .. ولا يمكن لدارس فلســفة التاريخ أن يتصور دورة ثقافية لهم فى غيبة الإسلام . وهــذه الدورة الثقافية للعــرب أصبحت دورة حضارية ذات إشعاع ثقافى واسع الأضواء ، وغدت حضارته سائدة ثابتة ، بعد أن تجاوزت معقلها الأساسى ، وتبنتها شعوب أخرى خارج حدود أرض العرب . ويقيناً فإن مفهوم الثقافة إذا ما اتسع ليصبح مستأنساً بخدمة المثل العليا والقيم الخالدة والعقيدة السامية . ففى هــذا الحال — كما هو الحال بالنسبة إلى الإســلام — يغدو دورة حضــارية ذات انتماء مزدوج : إنتماء روحى ، وإنتماء مادى .

ويمكن القــول ــ فى اعتقادى ــ إن حــروب الردة ــ بعد انتقــال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ــ جسدت موقف الاختيار بالنسبة إلى العرب والمسلمين ، وهى : إما الارتداد بالدورة الثقافية لتتفتت من جــديد على شكل دورات سلالية ، وإما لتندفع بشكل دورة حضارية كما حدث هذا بالفعل .. وهكذا لا يمكن لدورة ما أن تتجاوز مرحلة إلى أخرى إلا عــبر المنحنى أو المنعرج .. ومن خلال الأزمة ، إما أن تندفع قدماً أو تتراجــع القهقرى . وبفضل الله انبثق من حروب الردة دفع إلى المرحلة الحضــارية المأمولة ، فكان امتداد الإسلام عبر مختلف القارات .

فالإسلام هو الذى مد فى الأرض ، ومد اللغة ، ومد التاريخ . وهــذه الامتدادات الثلاثة تمت بفضل الإسلام . فالمرحلة الحضارية الإسلامية غطت مساحة عريضة سكانياً ، وطويلة زمانياً ، لأنها غطت بحضارتها السائدة بقعة ذات مساحة عريضة سكانياً ، وطويلة زمانياً ، لأنها غطت ما يقرب من ألف عام كحضارة سائدة .. حضارة تسامت بالإنسان ولم تندحر به . وهى التى غذت كل امتدادات الحضارات الإنسانية بشكل مثالية وانطلاق . وكانت ثمة حضارات رفيعة قبل الإسلام لا يمكن تجاهلها ، كالحضارتين الإغريقية واللاتينية . وتمثلتا فى العقلنة والمنطق ... والحضارتين الهندية والإيرانيــة وفيهما حضارة الحكمة والعلوم الرياضية والفلكية . فســادت الحضــارة العربية الإسلامية فى العالم المتحضر ، وتفوقت على سائر الحضــارات ، ثم أعقبتها الحضارة الغربية التى لا يمكن أن تعد طفرة إنجازية نابعة من الابتكار والإعجاز . فهى نتاج مسار يبدو طــويلا فى تاريخ الإنســانية أسهمت فى إقلاعها الحضارة الشرقية القديمــة والحضــارة الإغريقيــة اللاتينية ، ثم الحضارة العربية الإسلامية .

والسؤال الذى يتبــادر إلى ذهن المتخصصين هو : لو أن الحضــارة العربية الإسلامية لم يكن لها وجود ، أكان وجود لهــذه الحضارة الغربية التى يعيشها الغرب ، وتتبعه بها ؟ .

والإجابة ــ لحسن الحظ ــ التى يتفق عليها الجميع ، باستثناء الرؤوس المنفعلة والمتطرفة والمتعصبة ذات العصــبية الفكرية ، أنه لولا الحضــارة

العربية الإسلامية لما كانت الحضـارة الغربية المعاصرة ، فهى التى استطاعت عن طريق هذا التكامل الرائع والقناعات الفكرية المتعادلة أن تمنح كل ذى حق حقه . بينما يلاحظ أن الحضارة الإغريقية اللاتينية إن كانت قد أنارت فى إطار فقد أظلمت وعتمت فى أطر أخرى . وبالتالى فإن المأخذ الذى يؤخذ على الأرضية الإغريقية اللاتينية أن هذه الأرضـية مرت بممر مظلم ، وهو العصور الوسيطة الأوروبية ، حيث كان من الصعب على الإنسان أن يفكر . فقد كان مجرد ممارسته للتفكير محرماً عليه ، وإذا كان لا مفر من ذلك فإن عليه أن يبحث لنفسه عن وسيط ليفكر له . ونعنى بذلك النسـق الكنسى الغربى ، بمعنى السيطرة الكاملة لفكر الكنيسة .. وكانت النتيجة أن صودر الإنسان ، وعتم قلبه .

ولم ينقذ عقل الإنسـان الأوروبى المصـادر إلا الحضـارة العربيـة الإسلامية ، حين أشرقت شمسها عليه . ولولا التأثر بتعاليم العلامة العربى ابن رشد من بين التأثرات الأخرى لما كانت العقلنة الغربية . وتؤكد العقلنة العربية الإسلامية على أن العقل لا ينفى الوحى ، وأن الوحى لا ينفى العقل ، لأن العقل فى خدمة الوحى ومكلف من أجله .

هذه الوصفة المبسطة للغاية ، التى تمثل إطاراً فلسفياً عند ابن رشد ، وجدت طريقاً إلى الفكر الكنسى ، وتأثر به القديس توما الأكوينى ، كما تأثر به خصـوم الكنيسة . ولم يقتصر التأثر بفلسفة ابن رشد الإسـلامية وغيره من مفكرى الإسلام على من تحفظوا على الكنيسة من خصـومها ، بل امتدت لتغذى الكنيسة ذاتها ، ولتعقلنها ، فهى فى الواقع خلقت تيـاراً متكاملا . فالكنيسة لم تكتف بالتنظير ، بل بدأت تتحرك مع توما الأكوينى ومن حوله لتحكم (!) العقـل فى بعض المواقف ومن بدأوا يتحفظون على الكنيسة قالوا : إن هناك بجوارنا حضارة أندلسية إسلامية مؤمنة ، حضارة لها إله ، حضارة لم تقم بإلغاء العقل . وبدأ التساؤل لديهم يطرح نفسـه فى مطلع عصر النهضة الغربية : لماذا لا ننهج نهج هذه الحضارة ؟ .

ومع الأسف ، فإن كثيراً من النصوص العربية الإسلامية انتحلت لتصبح نصوصاً لاتينية . فقد حذف اسـم المؤلف من على كل كتـاب ، وأضيف

ــ عوضاً عنه ــ اســم المترجم أو غيره ، أو ألحــق بمجهول أجنبى . لكن هذه الانتحالات أخذت اليوم تستعيد هويتها لحسن الحظ من الغرب نفسه . فقد بدأ العلماء يعيدون النظر فى هذا التلويث الثقافى التاريخى ، ليعطى كل ذى حق حقه .

فالحضارة العربية الإسلامية لم تكتف بأنها شغلت حيزاً طويلا من الزمان وحيزاً عريضاً من المساحة فى هذه الرقعة الممتدة من بحر الصين شرقاً إلى جبال البرانس غرباً . وإنما كانت أساساً بيّنا من بين أسس الحضارة الغربية المعاصرة التى من الصعب أن تـُعزل جذورها عن الإســلام . فهناك عــلاقة عضوية بينهما ، اللهم إلا إذا تنكر الابن لأبيه ، وعندئذ تغــدو حضــارة لقيطة .

والسؤال المتداول الآن على الساحة الكونية : هل الإســلام ما يزال قادراً على المواجهة والتحدى فى هذا الربع الأخير من القرن العشرين ليشرق من جــديد فى عصر العملقة الذهنية ، وعبــور الكواكب ، عصر الكمبيوتر والتكنولوجيا التى فاقت معطياتها كل خيال ؟

لكن حقيقة الأمر أننا حينما ننظر إلى الإسلام فى عصوره الأولى ، ثم ننظر إليه ثانية عبر القرون التالية نجــد أنه مازال بخــير ، قادراً بمبادئه ، وقادراً بعطائه على أن يمنح المسلم ما يطمح إلى نواله منه . الإسلام مسيرة طبعت مسيرة الأمة الإسلامية ، بل مسيرة البشرية جمعاء . وحينما ننظر إلى الإسلام حالياً ومستقبلا ــ حتى مع صرامة المنهــج ، وقــدرة التفكير ، والرؤية الموضوعية الهادئة النزيهة ــ نجد أن ليس للإسلام قضية مع العقل فى القرن العشرين . ومهما كانت المجازفات المطروحة حالياً فى ساحات المدارس الوضعية فإنه من المستحيل ، ونقولها بكل تحد ، أن تسجل إصابة واحدة على شرعية الإسلام باسم العقل ..

ها هو الإسلام ، وبعد أربعة عشر قرناً ، مازال يتحدى . ومن الصعب على عالم نزيه أن يزعم غير ذلك ، ومن أجل هذا نرى العديد من مفكرى العالم يشهرون إسلامهم على الملأ . وبعضهم الآخر مازال فى قائمة الانتظار .. فالإسلام بخير . وقد أعطى من الحيثيات فى عصر النبوة ما يلزم ابن القرن العشرين بأن ينحنى إجلالاً وإعزازاً أمامها .

الإسلام هو الذى كفل لهذا المسلم أن يبقى فى القرن العشرين . فهــو الذى أعطى حيثيات الوجود المتكامل الشامل الذى يسعى بعضهم الآن فى تمزيقه مد الأرض أو مد التاريخ ، ونشر اللغة كما أشرنا من قبل . وبالرغم من أن جسد الأمة الإسلامية اليوم مثخن بالجراح فإنه لن يمــزق أبداً . وسيبقى عبر التاريخ رغم كل بدع الأعداء ومكرهم وزيفهم ، ورغم مساعى سماسرة الحروب ومموهى الحقائق . والإسلام هو الضمان الذى يلجأ إليه المسلم فى أزماته .

كانت الحقب الكبرى من تاريخ هذه الأمة حقب إشراق الإســلام .. والمسلم لا ينتكس من طعنات العدو فى لحظات الأزمات الكبرى ، بقــدر ما ينتكس حينما ينتكس الإسلام نفسه فى قلبه . وحينئذ يتهاوى جســده ويخور ، ويصبح فريسة للآخرين . وقد يتأزم المسلم ويتراجع حينما يبدأ باسم أغراضه الشخصية ليقود إسلاماً بطريقته . لكن الإســلام لا يتوقف أبداً ، وهذا فى حد ذاته معجزة وقدرة تؤكدان لنا حفظ هذا الدين ، وأنه الدين المنقذ لهذا الكون فعلا .

فالمسلم ، ونقولها بكل أسى ، هزم الإسلام فى وجدانه أولا ، ليتأهل بعد ذلك للانهزام من أمام الآخرين . فالمشكلة هى فى المسلم نفسه ، وليست فى جوهر الإسلام ، لأن الإسلام ظل هو هو عبر الحقب ، لكن المسلم تهاوى وتراجـع وخار . وخـير لمن يقــول « وا إســلاماه !! » أن يقـــول : « وامسلماه ! » . فالمفروض بالمسلم الذى يخشى على الإسلام ، أن يقــوم بإصلاح ذاته أولا ، لأن المشكلة مشكلته وليست مشكلة الإسلام .

والإسلام حالياً — كما فى السابق — لديه إمكانات متعددة لكى يتمكن من تخطى العراقيل التى وضعت أمامه ، أو ما افتعله — بنفسه — من حواجز وموانع ومعوقات . بمعنى أن الأرض مهيأة ليس فقط للإسلام الذى سيقود من آمنوا به فى عقر دار الأمة الإســلامية — وهم الآن مليــار من البشر المسلمين — ولكن ليقود عالمها ، أو على الأقل ليشارك فى قيادتها .

وبكل صراحة ونزاهة فكرية لا نعتقد فى جــدية حلول تتم فى غيبــة الإسلام .. إن الحلول التى تطرح الآن باسم حضارة العصر إنما هى أمور

فيها نوع من المغالاة والمبالغة فى قدرتها الإنقاذية . إن الغرب الآن عمـلاق مندفع فى كل يوم بفضل التقدم التكنولوجى والصناعى والعلمى . ولكن هذا الإنسان الذى يزعم أن العقل والتعقل يأتى بما هو لا معقول باسـم العقل .

يأتى زعيم دولة عظمى .. إنسان سوف ينزل القبر مثل غيره من البشر ويقـول : أسـتطيع أن أدمر الأرض أربع عشرة مرة بالذرة وبالحـروب البيولوجية والصواريخ الهيدروجينية . وكان الأولى به أن يعلن أنه بمقدوره أن يعمر الأرض أربع عشرة مرة ليعمها الخير أكثر ، وتصبح أقدر على العطاء للبشرية أربع عشرة مرة أكثر مما هى عليه الآن .

إن العالم بكل آثامه وشروره مهيأ فعلا للإسلام . فالإنسـان أصـبح إنساناً آلياً ، ولم يعد إنسانا ذا عواطف ومشاعر ، يكره ويحب ويستريح ، ويحقق ذاته . وإنما هو محسوب ، كل مشاعره الداخلية تحتاج إلى من يبثها فيه بوسائل مصطنعة مثل الحبوب . فالحبوب الآن تحركه ، يصحو وينام ، ويتقوى ويتهدأ بالحبوب . وهذه الحبوب تقوده إلى ما يسمى بالانتحـار الصامت الشامل . فالحضارة الغربيـة حضـارة بلا قلب ولا وجـدان ولا مشاعر . فهى حضارة الإنسان فى غيبة الإنسان ، حضارة تتحرك على حساب الآخرين ، كما يقولها فلاسفتهم ، ولا ينبئك مثل خبير . ونحن ــ المسلمين ــ نلهث وراءها كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . والمسلم الذى يبحث عن الهداية خارج الإسلام إنما يضيع وقته وحياته وقدراته .

فالإسلام هو المعيارية الوسطية ، والأمة الإسلامية هى الأمة الوسطية الشهيدة على هذا الكون . وبهذه الوسطية البنـاءة ، وبهـذه المعيـارية التعادلية يتاح للمسلم أن يكون فى موقع القيادة فى القرن الحادى والعشرين . فرسالة الاسلام رسالة لإنقاذ الإنسان ولإسعاده ، وهى دعـوة إلى الخير والنجاة ، وهى دعوة إلى الصلاحية ، ودعوة إلى المصداقية .

وثمة سؤال يطرح نفسه إذ : كيف من حال المسـلمين المتأزم .. ينطلق الإسلام لإنقاذ العالم ؟ .

إن حال المسلمين المتأزم لن يعوقهم ــ يقيناً ــ عن إمكانية الوصول إلى الإسلام ، لأن الإسلام لن يتجه إلى العالم الشرقى أو الغربى الغـارق فى المشكلات ، إنما هم ــ وبمحض اختيارهم ــ سوف يتجهون إلى الإسلام ، يرونه سفينة نجاة لا منقـذ سـواها . وسيقلب الإنسـان الغربى حتـماً (كإنسان) أوراقه بحثاً عن مخرج من أزماته المستحكمة كإنسان ، لكن هذه الأوراق لن توصله إلى نتيجة . وأخيراً سيقول : لماذا لا نتصفح أوراق هذا الدين ، الذى هو الإسلام ؟ إن رواد الفكر وعمداء الفلسفة فى القرن العشرين يجمعون على بروز مأزق حضارى ، جاء نتيجة ، لأن إنسـان هـذا العصر إنسان الحيرة ، إنسان القلق ، إنسان الاكتئاب ، إنسان لا يشبع فى استهلاكه ، ويبحث عن الرفاهية ، وعن الرخاء بأمور يفتعلها ويصطنعها ، إنسان الحيرة هذا ! وقد أجاد « هايدجر » عميد فلاسفة القرن العشرين فى وصف هـذا العصر حينما قال :

« إنه عصر يبدو كقصر شامخ فى منظر كئيب ،يعانى سادته من الأرق والقلق ، ويقاسى خدامه من المرض والجهل والجوع » .

والآن ما العمل ؟؟

وكيف يواجـه المسـلمون المسـتقبل وهم على مشـارف القـرن الحادى والعشرين ؟ .

كما ذكرنا آنفاً ، ولا تعتقد فى جدية حلول تتم فى غيبة الإسلام .. حلول مبالغ فيها يصورها لنا العقل الغربى المتأزم هو أصـلا . بمعنى أننا نلاحظ التركيز حالياً على التنمية الاقتصادية ، والنظم السياسية .. وكل يغنى على ليلاه .. المشكلة الديموقراطية ، المشكلة النقدية ، المشكلة الاقتصـادية .

كلها مشكلات افتعلت بدهاء حتى تغيب المشكلة الحقيقية .. غيـاب الإنسان الواعى القانع المتفاهم مع نفسه بمعنى مشكلة الإنسان .. إنهـم يُصدّرون للمسلم أكبر قدر من (التدويخ) حتى يصبح لا يدرى من أين تأتى المشكلات والهموم .. تُفرض الأشكاليات وتُفتعل ، حتى تبدو الرؤية

شبه منعدمة ، ويصبح غير قادر على تبين حل لمشكلته ، بل إنه لا يرى ذاته ، ويصبح فريسة فى أيدى الآخرين ، يفعلون به ما يشاءون .

لذا ..

نطالب الذهن العربى المسلم المفكر بأن يحاول تعميق تجاوزه الذهنى وعطائه ، تجاوزاً بذكاء للتخفيف من حدة الأزمة الخانقة عن طريق إعطاء فرص حلول ، ولا أقول حلولا نهائية ، أو حلولا لكل الأجيال القادمة ، وإنما هى حلول التجاوز للاختناق . فهناك رغبة هائلة الآن لخنق هذه الأمة تماماً . وقد آن للذهنية العربية الإسلامية الواعية أن تتعامل مع هذه القدرة الفكرية الذهنية الهائلة التى تكمن وراء الخنق لكى تفلت من مشنقته .

على العقول أن تتحرك الآن ، لأن هناك ترويضاً ذهنياً مروعا فى الربع الأخير من القرن العشرين ، وعملقة ذهنية . وبالتأكيد فإن هناك ذهنيات عربية إسلامية معاصرة قادرة . فلنعطها الفرصة لكى تتحرك ، لكى تواجه ذهنيات فى قمة الفكر والدهاء ، وتخفف من حدة الصدمات الكبرى التى تهدف فى النهاية إلى شل حركة هذه الأمة وتجزئتها والتهامها جزئية تلو أخرى .

إن المعركة الآن بالفعل معركة ذهنية ومعركة فكر . وعلى العقلية العربية المسلمة الآن أن تفكر لأنها أمام مجازفات وأمام مخاضات كبرى لمحاولة كشف كل ممرات الخطر بطريقة موضوعية وعدم توسيع موجة التعتيم وموجة التضليل . لنواجه العدو فى طريق مواجهتنا لأنفسنا ، لأن العدو يعلم أننا غير قادرين على أن نواجه أنفسنا لنجعله يدرك أننا — فى هذه المرحلة — قررنا فعلا أن نخوض المواجهة ، واعترفنا بأمور كثيرة ، لا اعترافاً بالخصم ، وإنما اعترفنا بأخطاء كثيرة لدينا ، حتى تأتى الأجيال القادمة لتصحح لنا هذه الأخطاء ، وليس ليصححها العدو لنا .

إن المواجهة الذهنية قدر محتوم على الأمة الإسلامية بعد أن فاتتها فرصة الالتحام الجسدى المصيرى ، فى نهاية الأربعينيات ، بالجسم الغريب الذى زُرع ليُفنيَ وجودنا .

ومن غير بكاء على أطلال الماضى أقول : لو أن هذه الأمة طرحت فى هذه الحقبة مبدأ التضحية ، لا مبدأ المزايدات ، وضحَّت برجالها من القادرين على الاستشهاد عام ١٩٤٨ لضمنت الأمة حياتها وكرامتها ، ولقامت بعملية اختزال للأزمنة ، ولكن أما وقد أضاعت الأمة فرصتها فى الالتحام العضلى لتدافع عن كيانها فلم يبق لها إلا أن تستعمل قدرة الذهن العملاقة لا لتنتصر بها ، لأن هذا لن يكون فى عهد هذا الجيل ، إلا إذا بدأنا نتصور وجـود عصا سحرية ! .

وكذلك نكرر القول ونؤكده : فليقلل هذا الجيل ما أمكنه ــ من خلال القدرة الذهنية ــ من انعكاسات الأزمة وسلبياتها ، ومن آثار التركة التى سترثها الأجيال القادمة حتى لا تُضيع الأجيال القادمة وقتها فى سداد ديون جيل لم يضبط دفاتر حساباته كما ينبغى .

وليس ضرباً من معرفة الغيب ، بل استقراء علمى لواقع العصر أقول : إن مائدة العمالقة الكبار لن تخلى من أمامها حضارة الغرب التكنولوجيـة المعاصرة ، إلا إذا حدثت هزات كونية كحرب هيدروجينيـة مثلا . ولكن ، وبناء على قدرة التطور فى حد ذاته نرى أنها لن تكون الوحيدة لأنهـا ليست الوحيدة فى الكون الذى تستحوذ على كل عطاء التقدم . فهناك دول غربية تمتلك الآن « رأس الرمح » وهى التكنولوجيا كاليابان التى دخلت معها ، والصين التى ستدخل معها . وحينما ننظر إلى العالم الإسلامى نجـد أنه ــ وإن لم يمتلك « رأس الرمح » وهى التكنولوجيا ــ يمتلك الطاقة ، ويمتلك العطـاء البشرى والمادى . ونعتقد أن هذه المائدة سيكون للأمـة الإسلامية نصيب فى جزء منها . وستكون هناك ضوضاء كونية نابعـة من هؤلاء وأولئك لاقتسام جزء من المائدة إلى جوار العمالقة الجدد . ونتمنى للأمة الإسلامية بطاقاتها وفكرها وعضلاتها أن تكون بين صفوف العمالقة وليس من أصحاب الضوضاء ..

وبعيداً عن عموميات الفكر وتجريداته ، ما هى ــ بالتحديد ــ الخطوات التى نبدأ بها رحلة المستقبل لتجاوز الأزمة الكبرى التى تأخذ بخناقنا ؟

لنتفق على الدعوة لفكرة عقد مؤتمر فكرى عربى وإسلامى . ولنتفق

على حد فكرى أدنى ، من دون أن يكون لكل أحد أرضية مبيتة جاء ليدافع عنها . ولعله من الأفضل أن نقترح منذ البداية ملتقى بين المسئولين تربوياً من أجل إعادة النظر فى النسق المدرسى التربوى (البيداغوجى) ، ليناقشوا إلى جانب تطوير أدوات التدريس ومناهجها ، ذاتية إنسان هذه الأمــة ، وليخرجوا ــ لا أقول بميثاق أو بدستور ــ وإنما ببنود مفادها أن هذه هى ذاتيتنا التى ينبغى أن تدخل فى أطر التربية من الحضانة حتى الجامعة .

فلا شك فى أن قضية تأصيل الانتمــاء من أخطر القضــايا التى ينبغى التركيز عليها فى مجال تربية الطفل المسلم فى سنواته الأولى . ففى المجتمعات الليبراليــة مثــلا نجــد أن الأسرة تحــرص على إرســال أطفالهــا إلى (السِّيسْترات) أو الأخوات فى الكنيسة رغم عدم قناعتهــا بالقس راعى الكنيسة أحياناً . ولكنها تعتبر ذلك أمراً لابد منه لتحقيق الانتماء ، وزرع بذوره . والشىء نفسه يحدث فى الاتحاد السوفياتى والكتلة الشرقية بشكل عام ، حيث يبدأ الطفل تعلمه الابتدائى فى بيئة يســيطر عليهــا التنظيــم الماركسى واللينينى . ولكن يلاحظ أن الوسائل فى مفهوم ثقافة مجتمعنا قــد انقلبت إلى غايات : فنجد الأسرة تهتم بطعام الطفل ولباسه وصــحته ، وما إلى ذلك مما يعتبر وسائل خادمة لا مخدومة .

وفى هذا الإطار التربوى تعبر فكرة التفاهم حلقات ، بمعنى أن يمر المسلم ثلاث حلقات للتفاهم : يتفاهم مع نفسه أولا ، ثم مع إسلامه ، وبعد أن يتفاهم مع نفسه ويتفهم إسلامه ، يعود ليتفاهم مع غير المسلم .

وأرى أن قضية الطفل حتى عمر الثانية عشرة ، ينبغى أن تكون هى تحقيق انتمائه . وأتمنى أن يمنع منعاً باتاً إعطاء أطفال هذه الأمة حتى تلك الســن أى انتماء أو نموذج أو قدوة ، عدا انتمائه الحضارى ، كما تفعل ذلك الأمم الأخرى ، والدول التى تواجهنا الآن فى حلبة الصراع الحضارى .

كما أنه ليس من الحكمة أبداً أن نحدث أطفالنا قبل هذه السن عن سقراط وجان جاك روسو ولوك وشكسبير وغوتيه وغاريبالدى ونابليون وغيرهم من رجالات الغرب الفكريين والسياسيين . هذا لا يكون إلا بعد أن تنضج

كل مدارك الطفل ، وتصبح المرجعية الإحالية أو القيم المرجعية لديه واضحة وثابته ، وبعد أن يفهم قيم رجالاتنا الذين رسخوا دعائم الإسلام وصنعوا حضارته .

ويكمن خطر إعطاء الطفل نماذج من حضارة الغرب إلى جانب نماذج من السيرة النبوية العطرة والتاريخ الإسلامى ، فى أن ذلك يشوش ذهنية الطفل ويدخله فى حيرة ، ولاسيما أن الحضارة الغربية تمتلك قدرة الحضور والجذب وهى أنموذج مبرر . وهذا يؤدى تلقائياً إلى صراع فى اللاشعور بين الأنموذجين ، ينتصر فيه الغازى الذى هو حاضر أمامه ، أو أنه يلغى الأنموذجين معاً ، فينتهى به الأمر إلى ما نلاحظه الآن من انفصام فى التكوين الحضارى ، وليس هذا الذى نقترحه كما يتصور بعضهم نوعاً من التحجر والانغلاق ، إذ أننا سنعطى هذا الطفل حتى الثانية عشرة وسائل الاتصال الحضارية : نعلمه لغات أجنبية ، وبالعمق نفسه للغته العربية ، ولكن من غير أى انتماءات أو نماذج أو إحالات . وحين نقدم له أمثلة يجب أن تكون نابعة من تاريخه ووطنه ، كما تفعل ذلك الأمم الأخرى .

وعلى هامش هذا الملتقى التربوى فلتكن هناك لقاءات فكرية بين كبار المؤرخين ، ولتكثف الحوارات فى الصحف والمجلات والاذاعات حول تعميق مبدأ الإدانة ، وتعميق مبدأ الأزمة ودون محرمات (تابو) مع البعد عن الحزازات الشخصية أو المهاجمات أو التمسك المبيت بوجهات النظر الشخصية . ولا نعتقد بجدية كلمات مثل (قتل — يقتل) و (قلب — يقلب) ذلك أن الأزمة لا تبنى نفسها على القتل ولا على مسلسل الانقلابات ، فربما هذا يفيد المجتمع الصناعى ، لأن له نوعاً معيناً من التنظيمات الواسعة العريضة والرأى العام . وهذا يكون لديه نوع من تعبئة الصراع وحصره وتجاوز الانقلابات .

أما نحن — العرب المسلمين — فلدينا الكثير من فائض صراع تاريخى متعدد الخلفيات ، نصدره إلى الآخرين ، ولسنا فى حاجة إلى القول : نبدأ من جديد ليصارع بعضنا بعضاً . لأننا بهذا ربما نحل مشكلاتنا الديموغرافية (السكانية) ، بتوسيع المقابر بدلا من امتداد العمران . وسيصفى بعضنا

بعضاً تصفية جسدية ، لهذا لا ينبغى أن يتجه الفكر نحو إثارة الفتنة التى لعن الله من يوقظها (أو أيقظها) . ونعتقد أنه لا داعى أبداً لأن نوجه صراعنا نحو الماضى . ولنتجه بصراعنا الواعى نحو المستقبل ، ليس لتصفية الحسابات فيما بيننا ، حتى يصل الأمر إلى تصفية كل فرد للحسـابات مع نفسه هو أيضاً ، لأنه جزء من هذه الأمة .

وعليه فهذا يتطلب منا تصورات إسلامية واضحة لحياتنا اليومية تعتمد على رؤية منهجية واضحة تجعل المسلم يعيش بإسلامه داخل عصره لا خارجه .. فمن المعروف أن الحضارة السائدة بشقيها الليبرالى والماركسى أملت على إنسان العصر ، بل فرضت عليه ، تخصصات تحدد سلوكه ليس فقط فى بيئة أسرية أو اجتماعية (سوسيولوجية) بل تخصصات تحاول أن تتفهم حواره الداخلى مع ذاته شعورياً ولا شـعورياً . السـيكولوجيا إلى جانب هـذا التخصص الذى يطرح بناء الإنسان عبر نتاجه التراثى تقاليد وعادات وأعراف (الانتربولوجيا الاجتماعية والثقافية) . ولم تقدم التخصصات فى شـكل عفوى بل ركزتها على مناهج باحثة وشارحة تحاول من خلالها أن تسـيطر على الظواهر الإنسانية لا بهدف اكتشاف قوانين كما هو الحال فى العلوم التجريبية التى تتعامل مع الظواهر الطبيعية ، وإنما لاكتشاف طبيعة التكرار والانتظام فى الظواهر ، توطئة لحصر العوامل المهيئة للسببية . وهكذا قدمت الحضارة السائدة تصويراً للإنسـان ، ولم تكتف بالوقوف عند تصـوره الأمثل طوباوياً .

وهذا يدفعنا إلى أن نتساءل : إلى أى حد يمكن الانتفاع بهذه المناهج المستحدثة دون أن يكون فى هذا الانتفاع تأثير على الاختيـار الأسـاسى لإنساننا ، وهو أنه إنسان مؤمن بما ثبت فى قلبه وصدقه بعمله ومسلّم بوفائه كما أمره به الوحى من تطبيق والتزام بحدود الله وشرائعه وشعائره .

هل الأولى بالمسلم أن يقف من هذه المناهج وهذه التخصصات موقف المصادرة والإلغاء باعتبارها دخيلة ومبتدعة ، أو أن يقف موقف الحماسـة إلى حد المغالاة والتبنى لها قلباً وقالباً إلى الحد الذى يعرضـه تحت ثقـل المحاكاة والتقليد للمسخ والغش والتزييف ، أو أنه يشق طريقاً وسطاً يرتكز

أساساً على تثبيت خطواته الإسلامية فى مسيرته مستنيراً أولا ، وقبـل كل شيء ، بنور الوحى ؟ ومن إشراقات الوحى ونورانيته دفع العقل إلى التأمل والتفكير والتبصر ، ومن ثم وفاء لهذا الوحى الخـالد ؟ أما آن للمسـلم المعتز بوحيه والمحرك لعقله أن يتطلع إلى بضـاعته وقد ردت إليـه ؟ ونعنى بذلك ما استطاع العقل المسلم فى عصـوره المزدهرة أن يقـدمه فى مختلف العـلوم والفنون ليصـبح ركيزة من الركائز التى أسهمت فى إرهاصـات حضارة الغرب الحديثة والتى تزعم أنها مجدت الإنسان فى وضعه ، وأبرزت فلسفته منه وإليه .

لا شك أن حضارة الغرب قد أضافت الكثير فيما يعنى تنشيط منهجية العقل وتنوع طرق بحثه واستخباره عن الظاهرات ، كما أنها أفادت فى تنشيط قدراته الشارحة فضلا عن قدرته التجريبية فى المعامل والمخـابر . وهـذه القدرة الشارحة لم تكتف بقراءة الإنسان أو الطبيعة كنص وإنما سعت إلى تعرف تركيب الظواهر بعد إجراء التجارب عليها واكتشاف قوانينها . ولم تقف عند الظواهر الطبيعية ، بل طمحت إلى تشريح الإنسان كظاهرة طبيعية واكتشاف خباياه . وفى فترة تالية تجاوز بها الطموح الإنسان كجسد طبيعى لتحاول اكتشافه كظاهرة إنسانية إن كان من الصعب عزلها والسيطرة عليها مخبرياً ، لوعيها بالتجربة ، فعلى الأقل رصدها وصفاً وشرحا وتعليلا لهدف التعرف إلى العوامل المسببة لطبيعة الانتظام أو التكرار بما يمكنها من طرح احتمالات راجحة أو مرجوحة بالنسبة لمالية تصرفاته وسلوكه ونفسيته وفعله وردود فعله .

إن توظيف هذه الإمكانات بالنسبة إلى المسلم خير ضمان لمستقبله القادر على أن يتعامل ويتحاور مع الحضارات السائدة نداً لند لا سائداً ولا مسوداً . وربما فى فترة تالية تؤهله ليتجه تحت راية إسلامه عبر المستقبل نحو تحقيق نموذج الإنسان الشامل حقاً الذى لا يتنكر لوحيه ، ومن ثم ينحنى إجلالا أمام خالقه الذى منّ عليه بالقراءة ، وعلّمه ما لم يعلم . فلا يطغى ، وإنمـا يظل وفياً لرسالة السماء التى فيها يمكن إنقاذ البشرية فضلا عن تطلعه إلى

النجاة عبر بلائه الدنيوى ليتمتع بالفوز فى الدنيا والآخرة ، وهذا هو الفوز العظيم .

لهذا نرى أنه آن الأوان لأن نكف عن البحث فى خفايا الآلام والمعاناة الكامنة فى العديد من القلوب .

آن الأوان لأن نقول : نحن فى مركب واحد ، ولنا شاطىء أمان واحد . وحينما يغرق جزء من مركبنا يهلك جميع ركابه معه .

* * *

● **كلمـــة أخـــيرة :**

فى النهاية ، وبين المتشائمين والمتفائلين ، أين يسير الاختبار بنا على ضوء ما أسلفنا ذكره ؟ .

إننا نتبنى موكب التفاؤل بالنسبة إلى هـذا الجيل وهو بالطبع تفاؤل مشروط . وعموماً نحن على يقين من أن ما نراه الآن نوع من الكابوس الذى يعج بالأحلام المزعجة .

ويقيناً ستأتى أجيال الـ ٣٠٠ مليون أو الـ ٤٠٠ مليون عربى ، محـزمة بمليار من إخوتها فى الإسلام . وسوف تنظر هذه الأجيال إلى هذه الكوابيس المزعجة على أنها كانت فترات مخاضات كبرى استطاعت الذهنية الواعيـة المتسلحة بإشراق الوحى الإلهى أن تجتازها لتعيش فى زمن سابق لزمانه .

* * *



future in which he can interact with the contemporary dominant culture as an equal. May be this would, in a later period, qualify Muslims to move under the banner of Islam, towards the future and towards attaining the ideal of the complete man who does not deny his revelation, and therefore would bow in respect to his creator who granted him the gift of reading, and taught him that which he knew not, so that he will not transgress all bounds, but remain loyal to the message of God by which we may save mankind in heaven and earth, and this is verily the greatest of all triumphs.

It is therefore high time to desist from wallowing in the pain and suffering lying in many hearts.

It is time to say: We are all in the same boat, and we have only one safe shore on which we can land safely. Those who abandon ship will be drowned.

Concluding statement:

In conclusion, amongst the ranks of the pessimist and the optimists, where exactly are we going in the light of our previous discussion?

I take up my place among the optimists as far as the present generation is concerned. My optimism however is conditional. Generally speaking we are all sure that what we are seeing now is some form of nightmare.

Surely, the future generations of 300-400 million Arabs will come in time, supported by billions of Muslim brothers. These generations will look upon this horrible nightmare and will see it as a period of labour, in which the conscious mind armed with divine revelation was transcending its troubles to realise a new future.

* * *

rarily on the contrary these stressed research and explanatory methodology through which they try and control human phenomena not only to try and discover the rules that govern behaviour, as is the case in the empirical sciences which deal with natural phenomena, but to discover the consistency and patterns of recurrence of these phenomena, in order to determine the factors governing behaviour. This is how the present culture sees man; it does not simply present an idealised conception of man.

This drives us to pose the question: to what extent can we make use of these new disciplines and methodology without this use influencing the primary goal of man, that is that he should be a staunch believer in Islam in his heart and in practice:

What should the Muslim's attitude be vis-a-vis these disciplines and methodology? Should he reject and suppress them because they are foreign, and new, or should be enthusiastically adopt them in spirit and letter and imitate them to the extent of mutilation and metamorph-eses? Or should he choose a middle way based on finding his guidance in Islam, which will elucidate his first steps in the light of revelation? One of the major and brightest features of revelation is that it drives the mind to meditation, thought and vision, and thus loyalty to eternal revelation. Does not the Muslim, who reveres the revelation that set his mind free to think and meditate, now look at his attributes as they are returned to him? I am here referring to the achievements of the Muslim mind in its flourishing ages in the different sciences and arts as it became the foundation for modern Western culture, and in which it glorified man and his philosophy.

There is no doubt that Western culture has contributed a great deal towards stimulating the methodology of rationalism, and the variety of its research and investigative methods. It has also stimulated its explanatory powers and its experimental capabilities in laboratories. This explanatory power of modern science did not restrict itself to reading man or nature as a text, but has gone even further in seeking to define the structure of phenomena after conducting experiments in order to discover the rules governing it. It did not stop at natural phenomena, but went on to dissect man as a natural phenomenon. In a later period its ambition drove it to go beyond discovering the secrets of the human body to the discovery of the secrets of man as a human phenomenon. Although it is difficult to conduct experiments in the laboratory on this aspect of man, at least it could observe, describe, explain it, order to find out the factors that contribute to man's consistency in behaviour and recurrent behavioural patterns, and finally determine the probabilities of his act, behaviour, psychological makeup, actions and responses.

The use of these potentials for the Muslim is the best guarantee of a

and Islamic History is that this usually confuses him and puts him in a dilemma, particularly when western culture is continually fed through the media. This leads spontaneously to an unconscious conflict between the two ideas in which the intruding ideal usually emerges triumphant because it is always present before him; or the child will find himself in a situation of cultural schizophrenia which marks our societies today. What we are suggesting here is not a form of narrow-minded chauvinism, because we will provide the child until the age of twelve, with all the means of cultural communication; we will teach them foreign languages with the same intensity as we teach them Arabic, but free from any sense of belonging or foreign ideals and values. And when we present children with examples they have to come from his history and his homeland as is done by other nations.

Beside this educational conference, we should hold mini-conferences for major historians, and intensify dialogue in newspapers, magazines and radio about furthering our principles without false indictments, without taboos, and steering away from personal prejudices and vendettas and without a priori personal views. I do not believe in the seriousness of arguments in which threats of killing and coup d'etats are bandied about. The crisis will not be solved by killings and coup d'etats. These may fit industrial communities, because they already control public opinion and have well established organizations, which may enable them to mobilise public opinion and contain a coup d'etat.

As for us Muslim Arabs we have a surplus of historical struggle in different backgrounds, which we would gladly export to others. It goes without saying, that we do not need to fight one another once again, as if this might solve our population problem, by expanding the cemeteries instead of our cities. We are not supposed to engage in genocide. Therefore, thought must not engage in causing sedition and civil strife, for Allah damns whosoever evokes sedition. I believe that we should direct our conscious struggle towards the future, not towards settling old accounts with others but towards first settling our accounts with ourselves, because each of us is part of this nation.

Therefore, this requires a clear Islamic conception of our daily life which depends on clear methodological vision which will allow the Muslim to live with his religion in his age and not out of it. It is well known that the contemporary culture, liberal or Marxist, imposed specific specializations to determine his behaviour not only within his family and society (sociology) but also those that examine his internal dialogue between his conscious self and his subconscious. In addition to psychology there are those disciplines which study the make up of man as a product of his traditions, customs and conventions (cultural and social Anthropology). These disciplines were not presented arbit-

and to escape the major crisis that is strangling us?

Let us first agree on the call to hold an Islamic Arab conference on thought. Then let us agree on a minimum of specific intellectual policy, without anyone coming to this conference to defend a predetermined policy. It might even be better in the beginning to hold a meeting for educationalists to review the pedagogic curricula at the school level, and to discuss developing the tools and methods of teaching as well. What is more important is that they have to discuss the making of man. They should reach agreement, not on a charter or a constitution, but on a list of items that make the Islamic self, and that these items should become part of the curriculum from Kindergarten to the university.

There is no doubt, that the issue of deepening the sense of belonging is one of the most important issues which must be emphasized in the education of the Muslim child in his very first years. Even in liberal societies we find that families insist on sending their children to the nuns in the church, despite the fact that they may not be very happy with the Priest of the Parish. But these families consider this a necessary matter to sow the seeds of the children's sense of belonging. The same thing also happens in the Soviet Union and the countries of the Eastern block in general, where children start their primary education in an environment fully under the control of the Marxist-Leninist organization. But we note that in our communities the means have become objectives, we find that in our culture, families pay more attention to the feeding and clothing of children and their health, and all these are means and not objectives.

In this educational framework, the idea of understanding passes through three stages, a Muslim first has to understand himself, then he understands Islam and then he has to understand non-Muslims.

I believe that the major issue of children up to twelve has to be that of achieving their sense of belonging. I hope that we would completely prohibit giving the children of this nation up to the the age of twelve any model, ideal or sense of belonging other than their own cultural belonging. Many of the countries that are now confronting us in the arena of cultural conflict, actually practise what I have recommended here.

Moreover, it is not wise to talk to our children before this age, about Jean Jacques Rousseau, Shakespeare, Goethe, Garibaldi, Napoleon and many other western political figures and thinkers. We can only do this when the child matures, and his own set of referential values become clear and established and not before he understands the value of our own political, intellectual and religious figures, who established the pillars of Islam and made its culture.

The danger in giving children ideals and values from Western culture in addition to ideals and values from the prophet's biography

Arab mentality must think of the risks and dangers in an objective manner, in order to narrow down the obfuscation, and the disinformation campaigns. Let us face the enemy as we face ourselves, because the enemy knows that we are incapable of facing ourselves. Let us make him aware that we have decided to face him down. We have to recognize and admit our faults, so that the forthcoming generations will find remedies for these errors: our enemies will not remedy our problems.

This mental confrontation is part of the inevitable destiny of the Islamic nation, especially after it missed the opportunity for a physical confrontation at the end of the forties with the foreign entity that has been implanted amidst our nation to destroy it. Without crying on the ruins of the past, I must say that if our nation then had taken its struggle seriously, and sacrificed its men as martyrs in 1948, it would have guaranteed its dignity.

Now that the nation has lost its opportunity to fight for its own entity, it only has its great mental ability left; not to win this struggle, because it cannot be done within this generation, except through a magic wand. Let us repeat and emphasise this once again: the present generation can say what it wants intellectually, concerning the negative effects of this crisis, and the legacy the present generation will leave for the forthcoming ones. The next generation will not waste their time in paying the debts of a generation that has not done its book-keepiing properly.

What follows is not purely speculative, it is rather a scientific deduction based on the reality of this age. I say that the developed countries in our age will not give up the contemporary Western technological culture without universal catastrophes like a nuclear war, for example. Basing our argument on the logic of development we would find that these countries will not be the only countries to possess technology and development. There are many other countries than the western world who now possess technological expertise such as Japan; and shortly China will join the parade. When we look at the Islamic world we find that it does not possess technology, but it possesses energy, human and financial resources. We believe that with these resources the Islamic world is entitled to a seat at the table of the developed countries. It will definitely get its seat at this table. There will also be a great fuss about sharing the contents of this table. And we hope that the Islamic nation with its resources and potentials will be among the ranks of the leading countries and not among the ranks of those who will make a fuss to share in the feast.

Let us leave the generalities and abstractions of thought for the moment and concentrate on the particulars. What exactly are the steps that the Islamic nation should take to start on the journey to the future

it is the people themselves, of their own choice, who will go to Islam; they will see it as a life-boat without which they will have no saviour. The western man will search in his learning for a way out of his plight, but he will find nothing in his learning. Finally, he will say to himself: why not look for a way out in Islam? All great thinkers and philosophers of the twentieth century unanimously believe that a serious cultural crisis will emerge, as a result of the fact, that man in this age is anxious, distressed and depressed. Man in this age is an avid consumer, always searching for his wellbeing and prosperity in the most artificial manner. Heideger, the leading philosopher in the twentieth century, describes this age as follows:

"It is an age that looks like a towering palace in a depressing setting, whose masters suffer from anxiety and insomnia, while the servants suffer from disease, ignorance and hunger."

And now what do we do? How are Muslims going to face up to the future on the threshold of the twenty-first century?

As I previously mentioned, we do not believe in solutions for the condition of man that are provided in the absence of Islam: exaggerated solutions provided by a Western mind that is in a state of crisis. That is to say, we note an emphasis now on economic development, political doctrine, everybody seeking his own narrow self-interest, the problem of democracy, the financial and economic problems, etc.

All these are artificial problems cunningly made up so that the only real problem remains ignored: that is, of the absence of a self-aware man who fully understands himself and is in harmony with the self. This is the real problem of man. The West exports to the Muslim so many problems he loses himself in his endless troubles. Finally, under pressure, he loses his vision, and becomes incapable of seeing the self, and becomes a victim in the hands of others, simply to be toyed with.

Therefore, we call upon the Muslim Arab thinker to try and transcend his present plight, by mentally easing the present strangulation, through providing the opportunity to find temporary and expedient solutions , so as to be able to transcend the present crisis. There is a tremendous force now seeking to strangle this nation. It is high time for the conscious Islamic Arab mentality to deal with the tremendous intellectual force behind the move to strangle this nation.

Arab minds should take action now, because there are many wide scale attempts for mental manipulation of Muslims in the last quarter of the twentieth century. Surely there are contemporary Islamic mentalities capable of dealing with the challenge. Let us then give these mentalities the opportunity to deal with these problems, and absorb the major shocks which are directed to paralyzing and dividing this nation, and then dealing with each part on its own.

The battle now is is a mental and intellectual one. The Muslim

Islam today, as was the case before, has many potentials for overcoming the obstacles that have been put in its way, or those that Muslims themselves have put in their own way. That is to say that the world is not just ready for Islam to guide those who believe in the homeland of the Islamic nation, and they are now more than a bilillion people, but it is also ready for Islam to lead the world, or in the very least to participate in leading it.

In all honesty, and with the utmost intellectual integrity, I must say that I do not believe in the earnestness of solutions that are provided in the absence of Islam. Solutions for problems that are provided now in the name of contemporary civilization exaggerate their ability to save mankind. The West today is a giant rushing down his own road because of advances in technology, industry and science. But Mankind, which claims that it is the epitome of reason and rationalization, continues to act absurdly in the name of reason.

Any leader of a superpower, a man who will eventually go to his grave like any other man, says "I can destroy the Earth fourteen times over with my atomic and hydrogen bombs and the many forms of biological warfare that we possess." It would have been much better for him to have said that he could develop the earth fourteen times over so that everyone will have enough and the Earth will be capable of offering more.

The world, with all its sins and evils, is ready for Islam. Men have become robots, without feelings or emotions, who neither hate, love, rest, or find forms of self-expression. Everything has been predetermined. Even his internal feelings need artificial stimulants, like drugs. Drugs that are uppers and downers, drugs to wake up and drugs to go to sleep, drugs to pacify him and others to give him strength. These drugs are leading mankind towards what is called a total silent suicide. Western Culture is a culture without a heart, emotions and feelings. It is a culture of man without humanity; a culture that moves at the expense of others, as their philosophers say; and nobody should know better than them. We Muslims "pant" after this culture to no avail. And the Muslim who searches for guidance outside Islam is wasting his time, his life and his abilities.

Islam is the essence of moderation and balance, and the Islamic nation is a moderate and balanced witness of the universe. With this constructive moderation Muslims can take a leading position in the twenty-first century. The message of Islam is the saving of mankind and giving him happiness. Islam calls for the saving of man and his well being. It calls for moral reform and truth. The question here is: How could Muslims in their present crises get Islam to save the world?

The present plight of Muslims will surely not hinder us from reaching Islam, because Islam itself is not going to go East or West, but

ogy that has surpassed the imaginary?

In fact, when we look at Islam in its earliest ages, and look at it once again over the centures, we find that it is still vital, still capable with its principles, of giving Muslims what they are looking for. Islam is a culture that has left its mark clearly stamped not only on the Islamic nation but also on Mankind as a whole. In fact, if Islam is examined now or in the future, rigorously, objectively, honestly, and in an unbiased manner, we find that Islam has no disputes with reason in the twentieth century. Whatever the problem that is being debated now in the area of Positivism, I emphatically and challengingly say, that nothing in Islam is antagonistic to reason.

Islam, after fourteen centuries, is still challenging the world to find fault with it. It is impossible for an unbiased scholar to claim otherwise. This is why we find many world thinkers declaring their conversion to Islam openly. Others are still waiting on the side lines. Islam is still in good shape, for it has given, at the time of the prophet (PBUH), enough reasons to drive man in the twentieth century and make him bow in respect and gratitude before it.

It is Islam that has given the Muslim the means of survival in the twentieth century. Islam provided the rationale for a comprehensive and integrated view of man, that some are now trying to tear apart and replace with the blind inevitability of history. It has also spread Arabic as we previously pointed out. Despite the fact that the body of the Islamic nation is now covered with wounds, it will never be torn apart. It will continue to exist throughout history in spite of the trickery, the slyness and falsity of the enemy; it will continue to exist in spite of the endeavours of warmongers and the disinformers. Islam is the only form of support to which Muslims take refuge in times of crisis.

The most important periods of the history of this nation are those in which the dawn of Islam arose. A Muslim is not defeated by his enemy at times of crisis, as much as he is setback, when the Islam in his heart grows feeble and falls. Only then does his body give way, and he falls victim to others. A muslim may face crises and taste defeat, if he pursues his own personal interest in the name of Islam. But Islam itself will never end, and this in itself is a miracle that stresses the importance of this religion: it is the religion that will actually save this universe.

Muslims, I say this with the deepest sorrow, must have defeated Islam in their own souls before they became vulnerable to defeat by others. The problem lies in the Muslim himself, and not in the essence of Islam. Islam has continued unchanged throughout history, though some Muslims have given up, withdrawn and lie defeated. It is better for Muslims to cry out for Islam than to cry out for Muslims. It is assumed that Muslims who care for their religion should mend themselves first, because the problem is not in Islam but in themselves.

imperative for him to think it had to be done through a medium, namely the Church. That is to say that the Church had total control over thought and this resulted in the confinement of man's intellectual ability.

The only thing that saved the oppressed European mind was the emergence of the Islamic Arab Culture. Without the influence of the teachings of the Arab scientist Ibn Rushd, inter alia, there would have been no Western rationalization (Reason). Islamic Arab reason emphasises that the mind does not deny revelation (al-Wahiyy), and that revelation (al-Wahiyy) does not reject reason, because reason should be put into the service of revelation.

This extremely simple recipe, which represents Ibn Rushd's philosophical framework found its way into the thought of the Church and influenced St. Thomas Aquinas and the opponents of the Church. Ibn Rushd's Islamic philosophy and the philosophy of fellow Islamic thinkers was not restricted in its influence to those who had reservations about the church or to those who opposed it. It went further than that, as it pumped new thought into the church itself, and gave it the stamp of rationalism. In fact, Islamic influences created a new and integrated current of thought. The Church did not restrict itself to theorizing, it went further than that. Hand in hand with Thomas Aquinas it moved towards using reason in some situations. Thinkers who had reservations about the Church started saying: "Over there beside us, exists an Islamic Andulasian Culture that believes in God, but which has not impounded reason." Their self questioning started at the beginning of the western Renaissance. They wondered why they could not follow the footsteps of this culture?

Unfortunately, many Islamic Arab texts were plagiarized and became Latin texts. The name of the real author was deleted from translated books, and the name of the translator or an unknown person was added instead of the original author. But the real identities of the authors are fortunately being restored today by the efforts of the West. Scholars have started to reassess this historical and cultural mutilation, so that every rightful author would be given his due.

Islamic Culture did not only cover a long period of time and vast territories, extending from the China sea in the east to the Pyrenees in the west, but it was also one of the main pillars in the foundation of contemporary Western Culture. It would be very difficult to isolate the roots of western culture from Islam. There is a clear organic relation between the two cultures; "if the son would deny the father," Western culture will become a bastard culture.

The universal question now is: Is Islam still capable of facing the challenge in the last quarter of the twentieth century to rise once again in the age of ingeniuty, interplanetary travel, computers and a technol-

and was adopted by other peoples living outside the borders of Arab lands. Indeed, a culture which puts itself in the service of high ideals, eternal values and a sublime creed, as in the case of Islam, becomes a cultural cycle with a dual sense of belonging, a spiritual and material belonging.

We may say that al-Ridda (Apostasy) wars after the death of the Prophet (PBUH) represented a situation of choosing between two options for Arabs and Muslims; a choice between forsaking the cultural cycle so that it would be fragmented once again into ethnic cycles, or that of pushing forward in the form of a cultural cycle which is what actually happened. It is not possible for a cultural cycle to move from one phase to another without passing through a curve or a bend, that is through a crisis which might drive it to go forward or push it backwards. Praised be Allah, for al-Ridda wars, which generated the necessary driving force to the desired cultural stage, which in its turn led to the spread of Islam in all continents.

It is Islam that led to expansion in territories, language and History. All these expansions were due to Islam. The Islamic cultural stage covered a large area territorially and demographically, and over a long period of time. As a dominant culture for more than a thousand years, it elevated man and fed all the other cultures of man with ideals and a driving force. There were many fine cultures that cannot possibly be ignored, before the advent of Islam such as the Greek and Roman cultures, representing reason and logic, in addition to the Indian and Persian cultures which produced wisdom, mathematical sciences, and Astronomy. The Arab Islamic culture came and dominated the civilized world, thus transcending all other cultures. This was followed by Western Culture, which cannot be considered a leap of real achievement springing from innovation and miraculous accomplishment. Western Culture is merely the product of a long course in the history of Mankind which was initiated by Ancient Oriental cultures, Greek and Roman Cultures and then the Islamic Arab culture.

The question that is always posed by specialists is: If the Islamic Arab Culture did not exist, would the Western Culture that the West is now enjoying have come into existence?

The answer on which almost everybody agrees, except some biased intellectual fanatics, is that without the Islamic Arab Culture there would have been no contemporary Western Culture. Islamic culture, was capable through a wonderful integration and balanced intellectual equilibrium, of giving everyone his rights. We have to point out that although the Greek and Roman culture illuminated some areas, it failed in others. Therefore, we blame the Greek and Roman background for the dark ages or the Middle ages in Europe, where it was difficult for man to think. In fact, thought was prohibited, and if it was

accordance with the logic of development, that change would come from Byzantium and Rome and not from the Arabian Peninsula.

When Byzantium was defeated and Rome declined, Islam rose from this peninsula to influence the development of the world. This, Islam did not achieve through major wars, but through its morality and behaviour. Thus, the Empires, before the Islamic way of life, turned into peripheral entities.

Development always influences behaviour, behaviour also adapts to development. Philosophers have always disputed which of them influences the other? Is it behaviour or development? And when does it happen? Here we find almost complete agreement that development controls behaviour in good times when things are going well. In times of crisis, it is behaviour that leads man to development. Man has been able to overcome the major crises of humanity by his behaviour and not by his development. It is definitely wrong to say that it was development that led humanity in its old societies, it was behaviour, i.e. the message of Allah and divine revelation (al-Whiyy al-Allahi), which gave the lead to these communities living in paganism, and incapable of explaining and rationalising even the simplest matters. This divine revelation has led humanity to meditate. This is what Durkheim, the atheist philosopher said "Behind every philosophy is a religion, it is impossible to imagine a philosophy that is not founded on religion."

Religion, then, is what motivated humanity to meditation and woke up the wise men and evoked visions of the future. Therefore, it was behaviour, initiated by the message of the Creator, which rectified the course of primitive communities and communities suffering from ignorance and ambiguity. Islam is considered, without doubt, the most important phase in the radical rectification of the development of behaviour because the rectification of behaviour does not happen because of development.

Islam caused a deep and radical change in the way of life of the Arabs living in the Arabian peninsula, in the first instance. It has also caused the same deep change in many Muslim nations since their earliest days. Besides the eternal divine gift of Islam, it embodied the beginning of the tremendous cultural cycle that followed its course until it prevailed throughout the whole world. Some tribes which were continually engaged in defending their homeland, were capable via Islam, to transcend this sense of belonging and commitment to a more sublime commitment, representing higher ideals and sublime values. This is how the Arabs achieved their cultural cycle. It is impossible for a philosopher of history to think of the Arabs' cultural cycle in the absence of Islam. This Arab cultural cycle became a well illuminated beacon and a stable permanent culture after it transcended its origins,

Introduction:

This paper will not deal with vain speculations made in the name of what is called inevitable reality or futuristic predictability because the future lies in Allah's Hands, and nobody can know the future except for Almighty Allah.

We start from this axiom in an age when some scholars positively think that they could explore and predict the future: this is known as the science of Futurism. Among the prominent scholars in Futurism are people like Fichtheim, Berger, Erroll Joseph and others, who classified the future into the following: the immediate future which covers a period of a year; the very near future which covers a period of five years; the near future which covers a period of twenty years; the distant future which covers a period ranging from twenty to fifty years. There are also studies by scholars of technology and demography on the limits of development, world dynamics, pessimistic tendencies, the Malthusian expansion and many other pessimistic and optimistic, futuristic projections. These studies are carried out now by a number of specialized associations and institutions in Futurism such as The Himmler Futurist Institute, The Hudson Institute, The futurist Institutions in America at the end of the sixties, the International Association for the Study of the Future which has more than two thousand members, the many conferences held on Futurism at the end of the seventies, and later on, Toffler's work on Future Shock. The study of the future also includes those who warn us of the forthcoming crisis and those who point to the way out: the harbingers of a miserable future and the forecasters of a bright future. We find that all these people agree on one thing: the tremendous driving force in everything around man, resulting from his inventions and from the bitter crises and violent suffering, that he experiences. Some scholars have called man "a new kind of traveller" a traveller in time and unfamiliar places who inevitably has to face many shocks which could lead to his defeat and destruction, or on the other hand, could lead him to find new ways of adaptation to enable him to deal with the challenge of the future.

Within the previous framework, I cannot spend too much time on the details of futurism which are not directly related to the purpose and topic of this paper, namely Islam. Or more specifically, how are Muslims, who are guided by Islam, facing up to the future? And how did Muslims adapt to the sciences in different ages?

When Islam dawned on the world, the major cultural achievements were in the hands of the larger Empires. It was thus assumed, in

Muslims and the Challenges of the Future

"The problem lies in the Muslim himself, not in the essence of Islam."

Aussi voyons-nous qu'il est temps de cesser de fouiller dans les maux et les souffrances enfouis dans beaucoup de coeurs.

Il est temps de dire: nous sommes sur un même navire et nous avons un même rivage de sécurité. Si une partie de notre navire vient à couler, tous ses passagers périront aussi.

UN DERNIER MOT

Enfin, entre pessimistes et optimistes où l'expérience nous mènera-t-elle, à la lumière de ce qui a précédé?

Nous optons pour le cortège de l'optimisme en ce qui concerne notre génération; mais c'est, bien entendu, un optimisme à conditions. En tous les cas, nous sommes certains que ce à quoi nous assistons aujourd'hui n'est qu'un cauchemar terrifiant.

Il est certain que ce sera, un jour, l'avènement des générations de 300 ou 400 millions d'arabes entourés d'un milliard de leurs frères dans l'Islam. Ces générations futures considèreront les cauchemars d'aujourd'hui comme des moments de grande peine que leur esprit conscient, armé de la lumière de l'inspiration divine, a pu surmonter pour leur permettre de vivre dans une époque antérieure à la leur.

* * *

Nul doute qu'on doit à la civilisation occidentale un apport considérable en ce qui concerne l'activation de la méthodologie de l'esprit, la variété de ses domaines de recherche et d'investigation sur les différents phénomènes de l'univers; de même qu'elle a réussi à motiver la compétence analytique de l'esprit, sans compter sa compétence expérimentale dans les laboratoires. Cette compétence analytique ne s'est pas contentée de lire l'homme ou la nature comme un texte, mais elle a cherché à connaître la structure des phénomènes en soumettant ceux-ci à l'expérimentation pour en découvrir les lois; elle ne s'est pas limitée aux phénomènes de la nature, mais elle a eu l'ambition de disséquer le corps humain en tant que phénomène de la nature et d'en découvrir les secrets. Dans une phase ultérieure, cette ambition a dépassé l'homme en tant que corps de la nature, pour essayer de le découvrir en tant que phénomène humain. Celui-ci étant difficile à isoler et à dominer dans les laboratoires à cause de sa parfaite conscience de l'expérimention, il fallait tout au moins observer de près ce phénomène humain pour le décrire, l'expliquer et le justifier et, par là même, déterminer les constantes qui résident derrière les aspects de régularité et de répétition; par ce processus il a été possible de proposer des probabilités et des théories sur la finalité de la conduite de l'homme, de sa psychologie, de ses actions et de ses réactions.

L'emploi des compétences intellectuelles est, pour le musulman, la meilleure garantie pour un avenir susceptible de négocier avec les civilisations dominantes d'égal à égal et non de domininant à dominé. Peut-être, dans une phase ultérieure, cela lui permettra d'avancer sous l'étendard islamique, à travers les siècles à venir, vers la réalisation du modèle de l'homme vraiment complet qui ne dénie pas sa religion et qui se courbe en signe de vénération devant son Créateur qui lui a fait le don de la lecture, et lui a appris ce qu'il ignorait; un musulman qui n'use ni d'injustice ni de cruauté, mais qui demeure fidèle au message divin dans lequel réside le salut de l'humanité; un homme qui aspire à éviter les malheurs terrestres qu'il croise sur son chemin pour jouir de la félicité dans la vie sur terre et dans l'au-delà, ce dernier étant l'extrême félicité.

formation de l'homme à travers son héritage de traditions, de moeurs et d'habitudes: c'est "l'anthropologie socio-culturelle". La civilisation prédominante n'a pas présenté ces spécialisations de manière empirique, mais les a fondées sur des méthodologies de recherches et d'explication à travers lesquelles elle essaye de maîtriser les phénomènes humains, non dans le but d'en découvrir des lois, comme c'est le cas dans les sciences expérimentales, mais pour en découvrir les normes de répétition et de régularité; cela n'étant qu'une préparation au recensement des facteurs explicatifs. C'est ainsi que la civilisation prédominante a présenté une image réaliste et non pas une image utopique de l'homme d'aujourd'hui.

Ici nous sommes obligés de nous demander: dans quelle mesure est-il possible de tirer profit de ces méthodologies modernes sans que ce profit n'influence le choix initial que nous avons fait pour l'homme de notre conception: un homme confiant en cette foi fixée dans son coeur, prouvée dans sa conduite et accomplie par sa fidélité aux ordres de la religion, c'est - à dire par l'application et le respect des règlements de Dieu, de Ses lois et de Ses rites?

Convient-il au musulman d'adopter à l'égard de ces méthodologies et de ces spécialisations une attitude de confiscation et d'annulation, parce que considérées comme intruses et excentriques, ou une attitude d'enthousiasme exagéré, d'adhésion totale de fonds et de forme au risque de tomber, à force d'imitation, dans la déformation, le plagiat et l'artifice? Ou bien se frayera-t-il un chemin où ses pas de musulman éclairé seraient consolidés avant tout et surtout, par la lumière de la foi? Inspiré par la lumière émanante de cette foi et mû par sa fidélité pour elle, poussera-t-il son esprit à la méditation, à la réflexion et au discernement? N'est-il pas déjà temps pour que le musulman, fier de sa foi et de ses capacités mentales, aspire à récupérer son dû? Nous voulons dire, par "dû", les contributions de l'esprit musulman au cours des époques florissantes de son histoire- dans les différents domaines de la science et des arts et qui furent la base de ce qu'a produit la civilisation moderne de l'Occident; cette civilisation qui prétend avoir glorifié l'homme dans son monde et mis en relief sa philosophie intrinsèque.

historiens; on intensifiera les interviews dans les journaux, magazines et à la radiodiffusion, pour mettre l'accent sur une autre question importante: la notion d'accusation et la notion de crise. Sans tabous, mais aussi sans rancunes, sans attaques d'ordre personnel et sans entêtement prémédité sur des points de vue personnels. Par exemple, nous ne faisons pas foi au sérieux de termes tels que: (tuer) et (renverser); car notre crise n'est pas centrée sur des assassinats ni des séries de coups d'état successifs; ce serait peut-être pratique dans les sociétés industrielles parce que celles-ci disposent d'un système particulier d'organisation et d'une opinion publique très élaborés et très étendus; ce qui leur assure la possibilité de mobiliser la lutte, de la délimiter et de surmonter les tentatives de coups d'état.

Quant à nous, arabes musulmans, nous avons un énorme surplus de conflits historiques aux multiples références, exportable même à d'autres nations. Aucun besoin donc de nous dire: recommençons à lutter les uns contre les autres et à résoudre nos problèmes démographiques en élargissant l'étendue des cimetières plutôt que l'étendue de l'urbanisation. Et nous nous liquiderons les uns les autres. Il ne faut point que notre esprit soit détourné vers la création de discordes, de même qu'il est absolument inutile de diriger notre lutte vers le passé. Dirigeons plutôt une lutte consciente vers l'avenir, sans chercher à régler nos comptes entre nous avant que chacun ait d'abord réglé ses comptes avec lui-même, puisqu'il fait lui-même partie intégrante de cette nation.

Cela suppose que nous trouvions une formule islamique claire pour notre vie quotidienne: une formule basée sur une conception méthodologique précise, qui permette au musulman de vivre avec sa croyance à l'intérieur de son époque et non pas à l'extérieur. On sait que la civilisation prédominante, occodentale avec ses deux secteurs, libéral et marxiste, a imposé à l'homme de notre époque des spécialisations destinées, non seulement à déterminer sa conduite au sein d'un contexte familial ou social, mais qui essayent également de comprendre le dialogue qui se produit dans son for intérieur, avec son moi, consciemment et inconsciemment : c'est la psychologie. En plus d'une autre spécialisation qui étudie la

Je pense que le problème relatif a l'enfant jusqu'à l'âge de douze ans, doit être celui de son intégration. Et je souhaite qu'il soit absolument interdit d'inculquer aux enfants de cette nation jusqu'à cet âge aucun sentiment d'intégration, aucun idéal, aucun modèle, sauf ceux de sa civilisation, comme font les nations et les Etats auxquels nous sommes confrontés, à l'heure actuelle, dans l'arène de la lutte des civilisations.

Il n'est pas non plus opportun de parler à nos enfants avant cet âge (douze ans) de Socrate, de Jean-Jacques Rousseau, de Locke, de Shakespeare, de Goethe, de Garibaldi, de Napoléon et autres éminences occidentales dans les domaines intellectuel et politique. Cela ne peut se faire qu'après la maturité de toutes les facultés de l'enfant, quand les valeurs référentielles seront claires et nettes chez lui, et quand il aura compris la valeur de nos personnalités éminentes qui ont consolidé les fondements de l'Islam et élaboré sa civilisation.

Un grand danger réside dans le fait de présenter à l'enfant des exemples de la civilisation occidentale en même temps que des exemples de la vie du Prophète et de l'Histoire de l'Islam. Cela perturberait la mentalité de l'enfant et le mettrait dans l'incertitude, surtout que la civilisation occidentale jouit d'un pouvoir de présence et d'attraction et constitue un modèle éblouissant. Cela mènerait automatiquement à un conflit entre les deux modèles dans l'inconscient de l'enfant; dans ce conflit, de deux choses l'une: ou bien la victoire sera au modèle qu'il a sous les yeux, ou bien les deux modèles seront annulés à la fois; l'enfant sera sujet alors à ce qui se produit aujourd'hui sous la forme d'un schisme de la civilisation. Dans ce que nous proposons ici, il ne s'agit pas, comme on pourrait le penser, d'une forme d'endurcissement ni de renfermement puisque nous munirons cet enfant, jusqu'à l'âge de douze ans, des moyens de communiquer avec les autres civilisations: on lui apprendra les langues étrangères avec la même profondeur que la langue arabe, mais sans intégration, ni modèles ni imitation. Lorsque nous présentons des exemples, il faut que ceux-ci émanent de l'histoire de l'enfant et du contexte de sa patrie.

Parallèlement au colloque pédagogique en question, on organisera des réunions intellectuelles entre les plus grands

Loin des généralisations intellectuelles et des abstractions, **quelles sont -avec précision- les premiers pas à faire sur la voie de l'avenir afin de surmonter la grande crise qui nous étouffe?**

Entendons-nous d'abord sur l'idée d'une conférence de la Pensée Arabe et Islamique. Entendons-nous sur un minimum de pensée commune, sans que chacun n'arrive avec un thème préconçu qu'il sera venu uniquement pour défendre. Il serait peut-être préférable de proposer, dès le départ, un colloque entre les responsables de l'éducation pour réviser le système pédagogique et discuter, outre l'évolution des outils et des programmes de l'enseignement, l'identité de l'individu dans cette nation et en sortir avec - je ne dirais point une charte ni une constitution, mais du moins des clauses qui diraient dans leur ensemble: telle est notre identité, la seule qui doive figurer dans les différents cadres de l'enseignement, depuis les classes maternelles jusqu'à l'Université.

Il n'y a pas de doute que la question d'inculquer le sentiment d'intégration est une des questions cruciales dans le domaine de l'éducation de l'enfant musulman, dès son plus jeune âge. Dans les sociétés libérales, par exemple, nous remarquons que la famille tient à envoyer ses enfants chez les Soeurs à l'Eglise, quelquefois sans être elle-même convaincue par le prêtre responsable de l'Eglise. Cependant, la famille considère cela comme une chose indispensable à la création du sentiment d'intégration. Le même phénomène se produit en Union Soviétique et dans les pays du Bloc Est d'une manière générale; l'enfant commence son éducation au cycle primaire dans un contexte où prédominent les règlements marxistes et léninistes. Or, nous remarquons que, dans la conception culturelle de notre société, les moyens se sont transformés en fins; ainsi voyons-nous la famille s'occuper de la nourriture de l'enfant, de son habillement, de sa santé et d'autres aspects qui sont plutôt du ressort d'une servante et non du ressort de la maîtresse de maison.

Dans le contexte pédagogique, l'idée "d'entente" se fait par étapes; dans ce sens que le musulman passe par trois phases d'entente: d'abord il s'entend avec lui-même, puis avec sa religion, l'Islam, ensuite il s'entend avec les non-musulmans.

martyr ceux de ses hommes qui étaient capables de faire la guerre en 1948, elle se serait garanti une vie honorable et aurait gagné un temps précieux. Mais maintenant que la nation a râté la chance qui s'offrait à elle de réaliser la cohésion organique qui lui aurait permis de défendre son entité, il ne lui reste plus qu'à se servir de son potentiel mental gigantesque sans illusions de "vaincre"; c'est là une chose qui ne se produira pas dans notre génération, à moins qu'on ne croie à l'existence d'une baguette magique.

Nous insistons encore une fois sur la nécessité que notre génération atténue autant que possible, par son potentiel mental, les répercussions et les aspects négatifs de la crise, ainsi que les réminiscences que vont hériter les générations futures; de sorte que celles-ci ne perdent pas leur temps à payer les dettes d'une génération qui n'aura pas fait ses calculs comme il le fallait.

Je ne prétends pas lire l'avenir. Je fais plutôt une réflexion scientifique sur la réalité de notre époque en disant que: la table des grandes puissances ne sera déblayée de la civilisation technologique occidentale contemporaine que s'il se produit des secousses à l'échelle universelle, telles qu'une guerre hydrogénique par exemple. Or, vu le pouvoir intrinsèque à l'évolution elle-même, nous pensons que la civilisation occidentale ne sera plus seule à table, car elle n'est pas la seule dans tout l'univers à tenir toutes les données de l'évolution. D'autres pays possèdent également "la tête de lance", c'est - à dire la technologie - comme le Japon, qui partage déjà la table, et la Chine qui la partagera très bientôt. D'un regard sur le monde Islamique nous pouvons constater que, si ce monde Islamique ne possède pas encore "la tête de lance" qui est la technologie, du moins dispose-t-il de l'énergie, du potentiel humain et des moyens matériels. Nous croyons donc que, sur cette table, il y aura une place pour la Nation Arabe. Il y aura aussi du vacarme universel provenant des uns et des autres pour partager un coin de la table auprès des nouveaux géants; **et nous souhaitons à la nation musulmane d'être, par son potentiel et son esprit, parmi les rangs des géants et non pas des faiseurs de vacarme.**

surmonter l'étouffement. En fait, il existe, à l'heure actuelle, des tentatives redoutables pour étouffer totalement cette nation. Il est temps que l'esprit arabe islamique conscient établisse des rapports avec le puissant pouvoir intellectuel et rationnel qui se tient derrière cet acte d'étouffement, pour échapper à son emprise.

Les esprits doivent agir immédiatement car, dans ce dernier quart du vingtième siècle, il se produit une effrayante domestication de l'esprit: un gigantisme mental. Il est certain qu'il existe des esprits doués parmi les arabes musulmans contemporains. Donnons-leur l'occasion d'évoluer, d'aller à l'encontre des esprits qui ont atteint les sommets de l'ingéniosité et de la fourberie; l'occasion d'atténuer la violence des grands chocs qui visent en fin de compte à paralyser le mouvement de notre nation et à la partager, pour l'avaler ensuite morceau par morceau.

La lutte est aujourd'hui une lutte d'esprits et de pensées. Il incombe à la mentalité arabe musulmane d'aujourd'hui de commencer à exploiter ses facultés pour confronter les grands risques et les événements imprévus; elle se doit de découvrir, d'une manière objective, toutes les voies d'accès du danger pour ne pas élargir la vague d'obscurantisme et de supercherie. Il est certain que **notre Nation ne réussira à confronter l'ennemi qu'à travers notre confrontation à nous-mêmes. L'ennemi sait que nous sommes incapables de nous confronter à nous-mêmes. Amenons-le à comprendre - au cours de la phase actuelle de notre histoire-que nous avons effectivement décidé de faire cette confrontation**, que nous reconnaissons avoir commis beaucoup d'erreurs, sans toutefois reconnaître l'ennemi et quitte à ce que les générations futures viennent rectifier ces erreurs plutôt que de laisser l'ennemi le faire lui-même.

La confrontation mentale est une fatalité que doit subir la nation islamique, après avoir perdu, à la fin des années soixante, l'occasion d'adhérer à ce corps étranger qui lui avait été transplanté pour l'anéantir.

Sans verser les larmes sur les vestiges de notre passé, je dis: si cette nation avait adopté, à cette époque-là, le principe du sacrifice au lieu du principe des surenchères, et envoyé au

siècle est l'homme qui ne connaît pas de limites à ses consommations, qui cherche le bien - être et la fortune par des moyens qu'il simule ou qu'il fabrique. Cet homme de l'incertitude! Heidegger, l'archevêque des philosophes du vingtième siècle, a bien décrit notre époque :

C'est une époque qui apparait comme un château grandiose sur un fond triste, dont les maitres souffrent de l'insomnie et de l'anxiété et dont les serviteurs souffrent de la maladie, de l'ignorance et de la famine.

Et maintenant que faire ?

Comment les musulmans vont-ils affronter l'avenir, maintenant qu'ils sont au seuil du vingt-et-unième siècle?

Comme nous l'avons déjà dit: Nous ne nous fions pas au sérieux des solutions qui sont conçues en l'absence de l'Islam; solutions exagérées que nous offre l'esprit occidental qui est, lui- même, en pleine crise. Nous remarquons qu'on insiste, à l'heure actuelle, sur le développement économique, les régimes politiques ... le problème démocratique, le problème monétaire, la crise économique.

Autant de problèmes habilement fabriqués pour détourner les esprits du problème réel: celui de l'absence de l'homme conscient, satisfait, en accord avec lui-même. On exporte au musulman la plus grande quantité possible de "divertissants" afin qu'il ne réalise point d'où viennent les problèmes et les soucis. Les litiges artificiels se multiplient et s'imposent à lui, jusqu'à ce que sa vue devienne presque nulle et qu'il soit incapable de discerner où se trouve la solution de son problème. Plus encore, il ne retrouve plus son moi et se résigne facilement à son adversaire qui fait de lui ce qu'il veut.

Aussi . . . .

incitons-nous l'esprit arabe musulman penseur à tenter d'approfondir ses capacités mentales et son rendement, de les approfondir intelligemment de manière à atténuer l'acuité de la crise étouffante en proposant différentes alternatives, pour ne pas dire des solutions définitives ou des solutions pour toutes les générations à venir. Seulement des solutions pour

qui hait, qui se repose, qui réalise son moi. C'est plutôt un robot. Ses sensations ne peuvent être extériorisées qu'à l'aide de moyens artificiels tels que les pillules. Aujourd'hui toutes ses actions sont réglées par les pillules. Il se réveille, se fortifie et se calme à l'aide de pillules. Celles-ci le conduisent vers ce qu'on appelle le suicide silencieux et général. La civilisation occidentale est une civilisation sans coeur, ni âme, ni sentiments. C'est la civilisation de l'homme en l'absence de l'humain; une civilisation qui se développe aux dépens des autres comme le déclarent ses propres philosophes; et ils sont d'ailleurs mieux édifiés pour le dire. Et nous autres musulmans, nous nous essoufflons derrière elle comme un coureur perdant; le musulman qui cherche la conversion au droit chemin de la foi islamique ne faisant que perdre son temps, sa vie et ses capacités à suivre cette civilisation.

L'Islam est le critère de juste milieu. La Nation musulmane est la nation de juste-milieu qui témoignera de cet univers. Par ce juste-milieu constructif, par ce critérium symétrique, la chance est offerte au musulman pour occuper une place de commandement au vingt et unième siècle. Au fait, la mission de l'Islam est une mission de salut et de bonheur pour l'homme; c'est une invitation au bien et au salut; une invitation à la piété et à la loyauté.

Une question s'impose: comment, partant de la situation des musulmans en crise, l'Islam accourra-t-il à la rescousse de ce monde?

L'état critique des musulmans ne les empêchera certainement pas de retrouver l'Islam; car ce n'est pas l'Islam qui se dirigera vers le monde oriental ou le monde occidental noyés dans leurs problèmes, mais c'est eux - de leur propre gré - qui se dirigeront vers l'Islam, où ils verront un canot de sauvetage, sans autre alternative. L'Homme occidental, en tant qu'être humain, fouillera certainement dans ses papiers à la recherche d'une issue à ses problèmes incurables; mais ces papiers ne le mèneront à aucun résultat. Il dira enfin: Pourquoi ne pas feuilleter les pages de cette religion, qui est l'Islam? Les pionniers de la pensée et les éminentes autorités de la philosophie du vingtième siècle sont uninanimes sur l'existence d'une impasse culturelle, résultant du fait que l'homme de ce

a d'abord trahi l'Islam dans sa propre âme, pour s'exposer ensuite à la défaite devant autrui. Le problème réside donc à l'intérieur du musulman lui-même et non pas dans l'essence de l'Islam; car l'Islam est demeuré le même à travers les siècles, alors que le musulman a chancelé, a regressé puis a défailli. A ceux qui s'écrient "A moi Islam" il serait plus opportun de dire" "O musulman!". En fait le musulman qui s'inquiète pour l'avenir de l'Islam devrait commencer par se réformer lui-même; le problème étant le sien et non celui de l'Islam.

L'Islam aujourd'hui, possède de nombreuses capacités qui lui permettent de surmonter aussi bien les obstacles qui sont jetés sur son chemin que ceux qu'il se crée lui-même. C'est à dire que le terrain est propice non seulement pour que l'Islam gère l'action des musulmans au sein même de la Nation musulmane-qui compte aujourd'hui près d'un milliard de musulmans- mais aussi pour gérer le monde, ou du moins, participer à sa gérance.

En toute franchise et en toute intégrité nous ne croyons pas que des solutions sérieuses puissent exister en l'absence de l'Islam ... Les solutions qui sont proposées à l'heure actuelle au nom de la civilisation de notre époque comportent en réalité des exagérations sur les capacités dont celle-ci dispose pour assurer le salut. L'Occident est aujourd'hui un géant qui prend de plus en plus de l'élan grâce à son extraordinaire développement technologique, industriel et scientifique. Or l'homme occidental prétend que c'est au nom de la Raison que l'esprit et le raisonnement produisent tous ces aspects d'irrationalisme qu'on observe autour de nous.

Le chef d'une grande nation ... un homme qui sera un jour enseveli comme tous les autres humains, se lève pour déclarer qu'il peut détruire la terre quatorze fois à l'aide de l'atome, des armes biologiques et des fusées hydrogéniques. Il aurait dû plutôt annoncer qu'il pouvait rendre la terre quatorze fois plus riche pour qu'elle puisse offrir à l'humanité quatorze fois plus que ce qu'elle offre actuellement.

Le monde, avec tous ses péchés et ses vices est donc préparé à l'Islam. L'homme est devenu un être mécanique; ce n'est plus un être pourvu de sentiments et d'affections, qui aime,

conflit avec la Raison au vingtième siècle. Et, quelles que soient les théories étalées à l'heure actuelle sur les tables des écoles positivistes, il est impossible, et nous lançons là un défi, de marquer un seul but contre la légitimité de l'Islam, au nom de la Raison.

Voici que l'Islam, après quatorze siècles d'histoire, tient encore le défi. Il serait difficile à tout savant honnête de prétendre le contraire. C'est pour cela que nous voyons de nombreux penseurs dans le monde se convertir ouvertement à l'Islam. D'autres encore sont en voie de le faire. L'Islam a donné, à l'époque du Prophète, des considérants qui obligent l'homme du vingtième siècle à se courber par respect et par vénération.

C'est l'Islam qui a rendu possible au musulman de vivre au vingtième siècle. C'est l'Islam qui lui a donné les considérants d'une existence cohérente et complète que certains cherchent à disloquer; c'est lui qui a étiré la terre; étendu l'histoire et propagé la langue comme nous l'avons mentionné plus haut. Bien que le corps de la Nation islamique soit aujourd'hui parsemé de blessures, il n'en sera jamais déchiré pour autant. Il survivra tout au long de l'Histoire, en dépit de toutes les astuces des adversaires, de leurs fourberies et de leurs artifices et en dépit des efforts des agents de la guerre et des camoufleurs de vérités. L'Islam est la garantie auprès de laquelle le musulman cherchera refuge dans ses moments de crises.

Les grandes périodes de l'Histoire de cette Nation furent celles du rayonnement de l'Islam... Et le musulman ne récidive point dans les moments de grande crise, autant qu'il rechute lorsque c'est l'Islam lui-même qui rechute dans son coeur. C'est alors que son corps chancelle et défaillit et devient un gibier facile pour les autres. Il se peut que le musulman soit pris d'une crise et qu'il rédicive; c'est qu'alors il commence, mû par des intérêts personnels, à conduire un Islam à sa manière à lui. Mais l'Islam n'interrompt jamais sa marche; ce qui est, en soi, un miracle et un pouvoir qui, tous deux, démontrent que nous devons sauvegarder cette religion qui est effectivement le véritable salut pour cet univers.

Le musulman, et nous le disons avec beaucoup de chagrin,

près de nous une civilisation andalouse islamique croyante; une civilisation qui a un Dieu; une civilisation qui ne s'est pas fondée sur l'élimination de la Raison Une question avait commencé à s'imposer au début de l'époque de la renaissance occidentale: pourquoi ne pas suivre la voie de cette civilisation islamique?

Ce qui est décevant c'est que de nombreux textes arabes islamiques furent plagiés pour devenir des textes latins. On a vu sur certains livres le nom des auteur effacé et remplacés par le nom du traducteur; parfois des livres étaient attribués à un étranger inconnu. Mais heureusement que les oeuvres plagiées commencent actuellement à récupérer leur véritable identité par les mains de l'occident lui-même, les savants ayant commencé à dénoncer cette imposture culturelle historique pour rendre à César ce qui est à César.

La civilisation islamique ne s'est point contentée d'occuper une place proéminente dans le temps et une place aussi proéminente sur cette surface qui s'étend de la Mer de Chine à l'Est, aux montagnes des Pyrénées à l'Ouest; elle fut surtout un des piliers de la civilisation occidentale contemporaine dont les origines seraient difficiles à isoler de l'Islam. Car il existe un lien organique entre les deux, sauf si le fils dénigre son père; cette dernière serait alors une civilisation bâtarde.

Une question se pose aujourd'hui sur le plan universel: **l'Islam est-il encore capable d'accepter la confrontaion et le défi dans ce dernier quart du vingtième siècle** et de retrouver son rayonnement dans cette époque de gigantisme intellectuel et de voyages vers les astres; l'époque des ordinateurs et de la technologie dont les données ont dépassé toute imagination?

La vérité est que, lorsque nous considérons l'Islam à ses premières époques, et que nous le considérons une deuxième fois au cours des siècles postérieurs, nous constatons qu'il se porte encore bien, qu'il est capable, par ses principes et par son rendement, de fournir au musulman tout ce à quoi il aspire. Car l'Islam est un processus qui a laissé son empreinte sur l'histoire de la Nation islamique, voire même l'hisoire de l'humanité entière. Et lorsque nous considérons l'Islam, même à travers une logique rigoureuse, une sérieuse réflexion et une vision objective, calme et intègre, nous constatons qu'il n'est pas en

monde est d'accord, à l'exception des esprits emportés, extrémistes et de fanatisme intellectuel, est que, sans la civilisation arabe, la civilisation occidentale contemporaine n'aurait pas existé; car c'est cette civilisation islamique qui, par son admirable cohésion et ses convictions intellectuelles équilibrées, a accordé à chaque domaine de connaissance l'intérêt qui lui était dû. Alors que l'on remarque que la civilisation gréco-romaine, en éclairant certains domaines, en a obscurci d'autres. Par conséquent, ce qu'on reprend de commun aux deux civilisations grecque et romaine c'est qu'elles sont passées par un tunnel obscur, celui du Moyen-Age Européen, où il était difficile à l'homme de penser. La simple pratique de la pensée lui était interdite. Et s'il devait le faire à tout prix, il lui fallait trouver un tuteur pour le compte duquel il pouvait penser, en l'occurence, le système ecclésiastique occidental; c'était donc la domination totale de la pensée de l'Eglise. Le résultat en fut la confiscation de l'homme et l'obscurcissement de son coeur.

L'esprit confisqué de l'homme européen n'a été sauvé que par la civilisation arabe islamique, le jour où ses lumières rayonnèrent sur lui. Sans l'influence des instructions du célèbre savant arabe Ibn Rouchd (Averroès), entre autres influences, le rationalisme européen n'aurait point existé. Le rationalisme arabe islamique affirme que la Raison n'exclut point la Révélation de même que la Révélation n'exclut point la Raison. Car la Raison est au service de la Révélation ; l'une confirme l'autre.

Cette recette simplifiée jusqu'à l'extrême, qui constitue un cadre philosophique chez Ibn Rouchd, a trouvé son chemin dans la pensée de l'Eglise au point d'influencer St Thomas d'Aquin et tous les adversaires de l'Eglise. L'influence de la Philosophie d'Ibn Rouchd et d'autres penseurs de l'Islam ne s'est point limitée aux adversaires de l'Eglise-ceux qui l'ont séquestrée-mais s'étendit pour nourrir l'Eglise elle- même et pour la rationaliser, donnant naissance, en réalité, à un mouvement assez cohérent. Ainsi l'Eglise, sans se contenter de théoriser, commença à agir avec Thomas d'Aquin et ses adeptes pour imposer l'arbitrage de la raison dans certaines situations. Ceux qui avaient commencé à séquestrer l'Eglise disaient: Il y a

A mon avis, on pourrait dire que les guerres de "Riddah" - (récusation) après la mort du Prophète, que prière et salut de Dieu soient sur lui, ont concrétisé la notion de choix pour les arabes et les musulmans; ce choix étant: soit la régression de l'ère culturelle et son morcellement une fois de plus en ères généalogiques, soit l'élan vers une ère de civilisation, comme ce fut effectivement le cas. Ainsi, toute ère de l'Histoire ne peut-elle évoluer qu'à travers un virement ... c'est à dire qú à travers une crise, ou bien elle prend de l'élan, ou bien elle rétrograde. Et c'est grâce à Dieu que, de ces guerres de "Riddah", est née une poussée vers l'ère de civilisation souhaitée avec l'expansion de l'Islam sur les différents continents.

C'est l'Islam qui a étiré la terre, propagé la langue et étendu l'Histoire. Trois aspects réalisés grâce à l'Islam. L'ère de la civilisation islamique s'est donc répandue sur un espace démographique et temporel très vaste, ayant effectivement couvert plus de mille ans d'histoire au titre de civilisation prédominante ... une civilisation qui a conduit l'homme vers la sublimation et non vers la chute. C'est elle qui a nourri toutes les ramifications des civilisations humaines des notions d'idéalisme et d'élan. Il est des civilisations de niveau supérieur qui ont existé avant l'Islam et qu'il est impossible d'ignorer, telles que les deux civilisations grecque et romaine qui se sont caractérisées par le rationalisme et la logique . . . . et les deux civilisations indienne et persane qui incarnent la sagesse, les mathématiques et l'astronomie. Plus tard la civilisation arabe islamique se répandit dans le monde, surpassant toutes les autres civilisations; puis vint lui succéder la civilisation occidentale qui ne peut, en aucune façon, être considérée comme une éruption d'exploits née d'une créativité originale et d'un génie miraculeux celle-ci étant le rendement d'un processus apparemment long dans l'histoire de l'humanité auquel ont contribué les anciennes civilisations orientales et la civilisation arabe musulmane.

La question qui surgit dans l'esprit des gens spécialisés est la suivante: **si la civilisation arabe islamique n'avait pas existé, y aurait-il eu une civilisation occidentale telle qu'elle prévaut actuellement en occident et par le moyen de laquelle nous en dépendons?** La réponse sur laquelle heureusement tout le

l'humanité et les premières sociétés; car c'est plutôt la conduite, dans le sens de Message divin et d'inspiration divine qui a dirigé ces sociétés, alors plongées dans l'idolâtrie et le paganisme.... incapables même d'expliquer les aspects les plus simples autour d'elles. C'est la conduite qui les a menées à la méditation car, comme l'a dit Durkheim- ce philosophe incroyant: **Derrière toute philosophie il est une religion, et il est impossible d'imaginer une philosophie non fondée sur une religion.**

C'est donc la religion qui a incité l'humanité à la méditation et éveillé les sages (les philosophes) à la vision futuriste... Par conséquent, c'est la conduite issue du message du Créateur qui a effectué le changement dans la marche des sociétés primitives et des sociétés qui souffraient de l'ambiguité et de l'obscurité des valeurs; et nul doute que l'ère Islamique est considérée comme la phase primordiale, dans la réforme fondamentale de l'évolution par la conduite, et non point la réforme de la conduite par l'évolution.

L'Islam a produit une évolution essentielle dans la vie des Arabes de la Péninsule Arabique et dans plusieurs nations musulmanes, dès les premiers siècles de leur histoire. Car l'Islam, ce don divin, a concrétisé le début d'une extraordinaire ère culturelle qui s'est développée pour dominer la presque totalité du monde; en ce sens que l'ensemble des clans et des tribus qui jadis s'acharnaient à défendre leurs territoires, ont, par l'Islam, dépassé ce sens étroit de l'intégration et du devoir... pour une obligation plus noble, celle des valeurs et des idéaux... C'est ainsi que les arabes ont eu leur propre ère culturelle.... **Et il serait impossible pour quelqu'un qui étudie la philosophie de l'Histoire d'imaginer une ère culturelle des arabes en l'absence de l'Islam.** Cette ère culturelle arabe se transforma en une véritable civilisation au rayonnement culturel largement répandu; la civilisation islamique prit plus d'envergure et plus de poids après avoir dépassé les limites de sa terre d'origine et après avoir été adoptée par d'autres peuples au-delà des frontières de la terre arabe. Il est évident que lorsqu'une conception culturelle s'épanouit jusqu'à se mettre au service des idéaux et des valeurs éternelles de la noble croyance, elle devient alors- comme c'est le cas pour l'Islam, - une civilisation à double adhésion: spirituelle et matérielle.

Certains ont désigné l'homme de "Voyageur d'un genre nouveau"; il voyage dans le temps, dans l'insolite; de là, la nécessité d'une préparation qui le rende disposé à recevoir de nouveaux chocs qui risquent de le conduire soit vers la reddition et la rechute, soit vers plus d'excès et vers de nombreux modes d'adaptation et de commerce avec l'impossible.

Dans les limites de ce cadre et sans trop entrer dans des détails qui pourraient trouver une place plus appropriée dans d'autres domaines plus spécialisés et qui divergent, après tout, de l'objectif principal de notre étude qui est "l'Islam", nous nous posons les questions suivantes: Comment l'Islam conduira-t-il les musulmans vers l'avenir auquel ils aspirent? Comment les musulmans ont-ils escorté la marche des sciences tout au long de leur histoire?

Revenons aux tout premiers débuts. Dès l'aube de l'histoire de l'Islam, les grandes données de la civilisation étaient monopolisées par de puissants empires. Il était normal-selon la logique de l'évolution- que la renaissance de l'humanité ne vînt point de l'île Arabique, mais plutôt de "Byzance" ou de "Rome".

Cependant, avec la décadence de "Byzance" et le recul de "Rome", **l'Islam surgit de cette île pour rectifier l'évolution mondiale, non par le moyen de grandes guerres, mais à travers des principes de morale et de conduite. C'est ainsi que les puissants empires se transformèrent en entités marginales face à une conduite durable: la conduite islamique.**

C'est l'évolution qui généralement conditionne la conduite; de même que la conduite conditionne l'évolution .... Certains philosophes ont des opinions divergentes sur la question. Laquelle des deux contraint l'autre: la conduite ou l'évolution? Et quand est-ce que se produit un pareil phénomène? Ici, nous voyons une presque unanimité sur le principe que c'est l'évolution qui contraint la conduite dans les moments d'harmonie, lorsque la marche se fait sur un rythme commun, permettant alors à la première d'imposer le changement; alors que dans les moments de crise, c'est la conduite qui dirige l'évolution. L'homme a pu surmonter les grandes crises de l'histoire par sa conduite et non par son évolution. Ce serait une grosse erreur d'adopter l'idée que c'est l'évolution qui dirigeait

LES MUSULMANS ET LES DEFIS DE L'AVENIR

Nous écartons dès le départ, l'idée que notre exposé puisse être la consécration de certaines spéculations au nom des vérités déterministes ou des variétés futuristes, parce que Dieu est seul Maître de l'avenir et que nul autre que Lui ne peut percer l'Inconnu.

De cette évidence, nous nous lançons dans une époque où certains croient-en toute conviction-pouvoir découvrir le futur et prévoir ses secrets; tendance que l'on désigne aujourd'hui de Futurisme ou Futurologie, et que préconisent plusieurs experts, qui ont établi une classification de l'avenir. Ainsi : Le futur immédiat, qui couvre une période d'un an; un futur plus proche: d'une durée de cinq ans; un futur proche tout court, d'une durée de vingt ans; un futur général ou lointain qui s'étend au-delà de cinquante ans. Ajoutons à cela les études faites par certains spécialistes en technologie et certains démographes sur les limites du développement, la dynamique du monde, les tendances pessimistes, et autres visions futuristes, aussi bien pessimistes qu'optimistes, que concrétisent actuellement un certain nombre de sociétés et d'Institutions spécialisées dans le domaine de la futurologie; à commencer par l'Institution Helmer, passant par l'Institution Hudson et les Institutions américaines de futurologie de la fin des années soixante, la société Internationale de Futurologie qui compte aujourd'hui plus de deux mille membres, en plus de nombreux autres congrès qui sont apparus dans les années soixante-dix et tout ce qui a succédé jusqu'à l'école qui prévoit un choc futuriste; sans compter les préconiseurs de la Crise et de l'Issue, les menaçants d'un futur misérable, et les prometteurs d'un futur rayonnant. Or, nous remarquons qu'il existe un semblant d'accord implicite, entre toutes ces tendances, sur la force de propulsion qui se révèle dans tout ce qui entoure l'être humain comme résultat des inventions qu'il entreprend; accord aussi sur ce que l'homme endure de crises amères de toutes sortes.

LES MUSULMANS ET LES DEFIS DE L'AVENIR

"Le problème réside à l'intérieur du musulman lui-même et non pas dans l'essence de l'Islam."

exposé donné en marge du Congrés Islamique reuni à Kwait en Janvié 1987 en Presence de 44 Chef d' Etat Islamique

(١٣)

دكتور «رشـــدى فـكار»

● المؤهلات ، والعمل ، والانتاج .. باختصار :

ـ من مواليد الكرنك بمحافظة قنا ـ جنوب مصر العربية .

ـ بعد أن التحق بمعهد قنا الدينى ، ثم معهد القاهرة الدينى بالأزهر وتخرج منه وحصوله على البكالوريا الفرنسية أيضاً بالمعادلة ، واصل دراسته فى مصر ، ثم تابعها فى أوروبا بالقسم العلمى للدراسات العليا بالسوربون ، حيث تخرج منه بحصوله على ديبلومه فى الدراسات العليا ، كما حصـل فى نفس الوقت على ليسانس الآداب « تخصص فلسفة بالمعادلة » من جامعـة جنيف .

ـ حصل على ديبلومين فى الدراسات العليـا من باريس أحـدهما فى الاجتماع ، والآخر فى العلاقات الدولية .

ـ حصل على درجة دكتوراة من جامعة باريس مع مرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٥٦ .

ـ توجت حياته الدراسية الجامعية بحصوله بعد الدكتوراة السابقة ، على مرتبة الأستاذية مع درجة دكتوراة دولة أخرى من جامعة جنيف عـام ١٩٦٧ .

● الوظائف الجامعية التى تقلدها .. والعضـوية فى الأكاديميات العالمية والجمعيات والمؤتمرات الدولية ، واقـرار ترشيحه لجـائزة نوبل فى الآداب منذ ٣ اكتوبر سنة ١٩٧٦ :

ـ مكلف بمحاضرات بالسوربون فى القسم العلمى للدراسات العالية بعد تخرجه منه لمدة عام .

ـ محاضر فى جامعة جنيف بمعهد الألسن وكلية الآداب .

ـ عمل أستاذاً محاضراً بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة محمد الخامس التابع لمؤسسة اليونسكو تحت إشراف جامعة نيو شاتل ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ .

ـ أستاذ زائر بجامعة نيوشاتل وجامعة جنيف منذ سنة ١٩٦٤ .

ـ أستاذ بجامعة محمد الخامس منذ سنة ١٩٦٨ .

ـ أستاذ زائر بالعديد من الجامعات الأوروبية والعربية الأخرى .

ـ شارك فى الإشراف على الكثير من الرسائل وأطروحات الدكتوراة المقدمة فى الجامعات الأوروبية والعربية .

ـ ينتسب بالعضوية لأكثر من ٤٢ جمعية دولية ، وأكاديمية ، ومؤتمراً عالمياً مثل :

ـ عضويته لجمعية استرنبرج الاسكندنافية بالسويد .

ـ عضويته بالهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية أدلف (A. D. E. L. F.) بباريس .

ـ انتخب عضواً مشاركاً فى الأكاديمية الفرنسية للعلوم بمجامع الخالدين ـ دائرة ما وراء البحار منذ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣ .

ـ أقر ترشيحه لدى الأكاديمية السويدية « لجائزة نوبل فى الآداب » منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ بمساندة هيئات عالمية ، وإسلامية ، وعربية منها :

أكاديمية العلوم الفرنسية ، وجامعة جنيف ، والهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية « أدلف » وتزكية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، ومنظمة الجامعة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكسو) . والمجالس القومية المتخصصة برئاسة الجمهورية بمصر ..

إلى غير ذلك من الهيئات والمنظمات الفكرية والعلمية العربية الإسلامية والعالمية .

● **الانتاج العلمى :**

ـ يتجاوز إنتاجه العلمى حاليا ١٤٠ بين مؤلفات ودراسات وأبحاث وترجمات ، وتعليقات باللغة الفرنسية أساسا ، والعربية والإنجليزية .

لمزيد من التفصيل عن هذا الإنتاج يراجع **« الكتالوج الدولى لجامعة جنيف .. وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس » ..**

● **فى الانتاج العالمى بالفرنسية والانجليزية .. على سبيل المثال :**

ــ السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والاشتراكية الدولية ، وأصول الماركسية فى مجلدين (عدة طبعات فى عدة لغات) عن دار النشر العالمية دولا شونستليه نيوشاتل وباريس سنة ١٩٦٨ .

ــ المراهنة الصناعية ، فى خمس مجلدات بالاشتراك مع أعضاء فى الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من الجامعات فى دول الكتلة الشرقية خصوصاً المجلد الخامس عن (الصناعة وأزمة الحضارة) منشورات « دى نويل » .. « كوليج دى فرانس » والأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٧٢ .

ــ علم الاجتماع ، وعلم النفس والانثروبولوجيا الاجتماعية ، معجم موسوعى عالمى ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، مصطلحات وأعلام ، بالفرنسية والإنجليزية والعربية ، باريس ، دار النشر العالمية جتنير ١٩٨٠ ــ ١٩٨١ .

● **وفى الانتاج بالفرنسية عن العالم العربى والاسلامى :**

ــ نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعى الإسلامى ــ الفرج بعد الشدة ــ عن دار النشر العالمية .. أدريان ميزونيف بباريس ١٩٥٥ .

ــ تأملات فى الإسلام .. فى عدة طبعات عن دار النشر العالمية ميزونيف لاروز بباريس سنة ١٩٧٣ .

ــ انعكاسات السوسيولوجية الوضعية وأصول الماركسية فى العالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس سنة ١٩٧٤ .

ــ أصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس ١٩٧٣ .

ــ الحياة اليومية فى مصر إبان عصر محمد على .. عن دار النشر العالمية ميزونيف سنة ١٩٧٥ .

● فى الانتاج باللغة العربية :

ــ دراسات أنثروبولوجية اجتماعية (السـحر وما حـوله) دار النجاح ــ بيروت سنة ١٩٧٣ .

ــ الشباب وحرية الاختيار .. مكتبة المعارف ــ الرباط ١٩٧٤

ــ أوجست كونت عمـلاق السوسـيولوجيا وموقفـه من الإسـلام (منشورات مركز البحث العلمى) بجامعة الرباط .. حوليات علم الاجتماع سنة ١٩٦٨

ــ وضعية الدراسات السوسيولوجية فى المشرق العـربى (منشورات مركز البحث العلمى الجامعى) بالرباط سنة ١٩٧١

ــ الإسلام بين دعاته وأدعيائه ــ الرباط ، المعارف سنة ١٩٧٦

ــ الماركسية والدين ــ الرباط سنة ١٩٧٦ والقاهرة دار التعاون للنشر (الإنتاج العالمى) سنة ١٩٧٩ .

ــ فى البغاء الوحشى ــ القاهرة ــ مكتبة وهبـة والرباط . المكتبـة الجامعية سنة ١٩٧٩

ــ تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع .. فى مجلد موسـوعى القاهرة مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠

ــ نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع .. فى مجلد ــ القاهرة ــ مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠

ــ فى المنهجية والحوار ــ مكتبة وهبة سنة ١٩٨٢

إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى باللغات المختلفة .

● ومن أحدث مؤلفات د. رشدى فكار . كما أشرنا سلفا :

ــ موسوعة ضخمة فى علوم الإنسان تتكون من أربعة أجزاء بالفرنسية والإنجليزية والعربية حاول فيها أن يعيد النظر فى مضامين هذه العلوم على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة ــ تعتبر منعرجا هاماً فى التقنين المعـرفى « الابتسومولوجى » لمفاهيـم علوم الإنسـان الأسـاسية ونظرياتها الرئيسية ..

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

* * *

اسلاميات

(سلسلة العالم العربى الاسلامى)

للدكتور رشدى فكار (١)

● **عن دور النشر العالمية :**

- **الفرج بعد الشدة عند مفكرى الاسـلام** ، لاهاى بخهـوف ، باريس : ادريان ميزونيف مجموعة كارنو ، ١٩٥٥
- **تأملات حول الاسلام : أسس العقيدة والجانب الاجتماعى** ، باريس : ميزونيف ولاروز ١٩٧٢ وفى عدة طبعات اخرى .
- **أصول العلاقات الثقافية المعاصرة بين فرنسا والعالم العربى** ، باريس ، جتنير ، ١٩٧٢ وفى عدة طبعات .
- **انعكاسات السوسيولوجيا الوضـعية فى العـالم العـربى** ، باريس . جتنير ، ١٩٧٤ وفى عدة طبعات .
- **الحياة اليومية فى مصر خلال القرن التاسع عشر** ، باريس ، ميزونيف ولاروز ١٩٧٥

● **عن دار الهلال ، القاهرة (بالفرنسية) :**

- **الفكر التقدمى فى أوروبا وأثره فى الشرق** ١٩٥٩

● **عن دار النجاح للنشر ، بيروت (بالعربية) :**

السحر وما حوله مع ملحق عن انسان القرآن ، دراسة انثروبولوجيـة اجتماعية ١٩٧٣ .

---

(١) لمزيد من التفصيل عن الانتاج الكامل للدكتور رشدى فكار بالفرنسـية ، والعربيـة والانجليزية ، يراجع : **كتالوج مكتبة جامعة جنيف حرف (ف) ، والقائمة الكاملة لأهم المؤلفات والدراسات الرئيسية للدكتور رشدى فكار مع نبذة عن سـيرته المودعـة « بمؤسسـة نوبل » باستكهولم ، السويد ، وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس حرف (ف) ...**

● **عن مكتبة وهبة للنشر والتوزيع ، القاهرة (بالعربية) :**

ـ **تأملات اسلامية فى قضايا الانسان والمجتمع** (فى مجلد سنة ١٩٨٠) .

ـ **نظرات اسلامية للانسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى** ١٩٨١ .

ـ **لمحات عن المنهجية والحوار ... الطبعة الأولى** ١٩٨٢ .

ـ **خميس البكرى ، د. رشدى فكار المفكر الاسـلامى العالمى** فى حـوار متواصل حول مشاكل العصر ، ١٩٨٦ .

ـ **خميس البكرى ، د. رشدى فكار المفكر الاسـلامى العالمى** فى حـوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين ، ١٩٨٧ .

● **عن دار الشعب للنشر ، القاهرة (بالعربية) :**

ـ **امصريون فقط ؟ حوار مطـول حول القضـايا الأيديولوجية المعاصرة** ، فى كتاب عن الدكتور رشـدى فكار وضـعه الـكاتب المصرى المعروف على الدالى ١٩٧٦ .

* * *

رقم الايداع : ٧٩٩٠ / ١٩٨٧
الترقيم الدولى ٠ ـ ١٢٠ ـ ٣٠٧ ـ ٩٧٧

- Voies musulmans sur l'Homme et la Soriété après 14 siècles, (1981).

- Méthodologie et dialogue. (1982) .

- Khamis el - Bakry, Dr. Rouchdi Fakkar en Dialogue avec Problèmes de Notre Temps. (1986) .

- Khmis el-Bakry, Dr. Rouchdi Fakkar en Dialogue avec Les Problèmes

● **Edition, Maison du Peuple, Le Caire** (**en arabe**).
de L'Héritage Culturel des Musulmans. (1987) .

- Longue dialogue sur les problèmes idéologiques, contemporains à travers la pensée de Dr. Rouchdi Fakkar, ouvrage sur lui, élaboré par l'écrivain égyptien, bien connu, Ali Dali. (1976) .



ISLAMIATE

(Serie du Monde arabo-musulman)

de Dr. R. FAKKAR

● **Editions Internationales.**

- La Délivrance après l'Angoisse, La Haye, Nijhoff, Paris, Adrien Maisonneuve, Collec. Garnot, 1955.
- Réflexions sur l'Islam, fondement de croyance et aspect social, Paris, Maisonneuve et Larose, 1972 et Plusieurs éditions.
- Aux origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1972 et plusieurs éditions.
- Reflets de la Sociologie Prémarxiste dans le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1974 et plusieurs éditions.
- Aspects de la vie Quotidienne en Egypte, Paris, Maisonneuve et Larose, 1975.

● **Edition Al-Hilal, Le Caire (en français).**

- La Pensée progressiste en Europe et influence en Orient. (1959).

● **Edition Dar Al Najah, Beyrouth (en arabe).**

- La Magie et ses alentours avec une annexe relative à l'homme du Coran étude d'Anthropologie sociale. (1973).

● **Edition Wahbah, Le Caire (en arabe).**

- Reflexions musulmanes sur les problèmes de l'Homme et de la Société I Vol. (1980).

---

(1) Pour les œuvres complètes de Dr. R. Fakkar : ouvrages principaux et autres travaux, en français en anglais, et en arabe voire, Catalogue de la Bibliothèque de l' Université de Genève, Lettre F., la Liste de principaux ouvrages et travaux de R. Fakkar publiées Jusqu'a 1981 et déposée à la fondation Nobel, Stockholm, et Catalogue de la Bibliothèque Nationale de Paris, Lettre F.

compte son passage comme conseiller en information auprés du centre des études financières et commerciales Islamiques à la Faculté du commerce de l'Université AL-AZHAR. Il a éte également membre au sein de nombreuses commissions chargées des affaires religieuses aux conseils nationaux auprés de le présidence. Outre ses qualités L'Auteur est un écrivain tempéré partisant du dialogue, qni ne péche ni par l'exces des termes, ni par l'emportement du verbe.

En réalisant le second volume du « dialogue continu » avec le penseur Islamique, mondialement, connu, le Dr. ROUCHDI FAKKAR, l'auteur vient de combler un trés grand vide que la bibliothèque musulmane en souffre.

L. WAHBAH

❋ ❋ ❋

SOMMAIRE

Au Nom D'Allah. Le clément, Le misericordieux.

« Préches pour le chemin de Dieu par la sagesse, le bon conseil, les meilleurs arguments » . (CORAN KAREM)

Ce livre est le second volume de la collection.

« Dialogue continu avec le penseur islamique mondialement connu, le Dr. ROUCHDI FAKKAR, le Ier volume a été élaboré par le même auteur KHAMIS EL BAKRY, traitant les problèmes du siécle.

Le second volume est consacré aux problèmes de L'héritage culturel des musulmans. Il a commencé par montrer qu' il ne sera Jamais question d'un problème avec L'islam.L'Islam n'est pas un héritage culturel à étudier historiquement, mais est une réalité vivante, concrete et active, toujours permanente, dans les coeurs des milliards de croyants vivants avec et pour l'Islam. Cela se voit depuis le premier cri de naissance jusqu'a la mort, l'enfance, le mariage et chaque Jour exprimé cinq fois à travers les prières, le pérelinage ...

Cette eternelle présence de l'Islam dépasse la vision archiviste que certains essaientà' le faire emprisonner dedant. L'Islam n'est pas pour inaugurer ou clore les occasions et les anniverssaires .... L'Islam d'hier, c'est l'Islam d' aujourd'hui et sera l,Islam de demain.

De là, s'est engagé le dialogue pour traiter les quéstions de l'héritage culturel des musulmans et la façon dont les sciences de l'homme les ont approché; commençant par I,histoire, sa philosophie et son scientisme, le dialogue s'est penché par la suite sur la psychologie, la sociologie, l'Anthropologie pour revenir à la notion d'«Al IJTIHAD» et démontrer ses limites, ses possibiltés actuelles; pour conclure le dialogue, avait pour sujet, le problème de l'orientalisme, ses courants, les plus divers et notre pensée contemporaire; Islamo-arabe, Arabo-Islamique, ou simplement Arabe contre ou pour l'Islam.

L'Auteur de ce présent volume est KHAMIS EL BAKRY. Ecrivain islamique connu dans le monde arabe par les différents apports qu'il a consentis au plan du savoir contemporain, l'un des rédacteurs les plus éminents du quotidien AL AHRAM. L'Auteur se distingue autant par sa probite intellectuelle que par la crédibilité de son savoir entre autres fonctions qui lui ont été dévolues. ou ses apports ont été prolifique L'on

Premiere édition

1408 H. — 1988

مطابع المختار الاسلامي

KHAMIS EL BAKRY

Dr. ROUCHDI FAKKAR

PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU

EN DIALOGUE AVEC

LES PROBLÈMES DE L'HÉRITAGE CULTUREL DES MUSULMANS

EDITION, WAHBAH LIBRAIRIE.
14 Rue GAMHORIYAH
LE CAIRE - 1988